سلسلة كتب الدعوة والخطابة

(الكتاب الثالث)

القواعد المنهجية للدعوة

عند السلف

أ.د/ أحمد عبد الهادي شاهين

أستاذ الدعوة ومقارنة الأديان في جامعة الأزهر

وعضو هيئة كبار علماء الجمعية الشرعية الرئيسية بالقاهرة.

من نور القرآن الكريم

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

سورة يوسف الآية (١٠٨).

القواعد المنهجية للدعوة عند السلف.

رقم الإيداع/ ٧٢٢٦/ ٢٠٢٢ بدار الكتب المصرية.

الرقم الدولي: 978-977-94-1092-0

الطبعة الأولى/ سنة ١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م.

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن وآلاه، وبعد...

فالدعوة إلي الله ﷻ من أشرف الرسالات، وأفضل الأعمال، لأنها رسالة الأنبياء والمرسلين، والدعاة المصلحين، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[1].

والدعاة الربانيون هم ورثة الأنبياء، ورثوا العلم والعمل، وهما أمانة في النقل والاتباع، فسعوا في مشارق الأرض ومغاربها، ينشرون الهدى والنور، في ضوء ما تحملوه عن النبي ﷺ والصحابة، والسلف الصالح، من علم وفقه وعمل.

وممارسة العمل الدعوى أمر تعبدي، مبنى على الاتباع لا على الابتداع، ومبنى على الحكمة والبصيرة، لا على الأهواء والشهوات، ويقوم على وضوح الرؤية في المنهج والوسائل والأساليب، حتى يسير الداعية على هدى وبينة وبصيرة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[2].

ولا شك أن الدعوة إلي الله ﷻ أصبحت علما قائما بذاته، له كتب ومؤلفات، وكليات وأقسام، وله أساتذة وطلاب، ومن ثم ظهرت مؤلفات كثيرة في فروع علم الدعوة في الفترة لأخيرة، منها ما يتحدث عن أصول الدعوة من الداعي، والمدعو،

---

(١) سورة فصلت الآية (٣٣).

(٢) سورة يوسف الآية (١٠٨).

والدعوة، والوسائل والأساليب، ومنها ما يتحدث عن المنهج والقواعد، ومنها ما يتحدث عن المشكلات التي تواجه الدعوة والدعاة، ومنها ما يتعلق بعلم نفس الدعوة، ومنها ما يتعلق بالميادين، إلي غير ذلك من التفريعات المهمة في علم الدعوة.

ومنهج الدعوة من الموضوعات المهمة، التي تحتاج إلي قواعد علمية تأصيلية، لضبط العمل بإطاره الشرعي، كما أن القواعد لها أهمية كبيرة في ميدان الدعوة الإسلامية، لأنها كثيرة ومتنوعة ومتشعبة، وهى تضبط مسار العمل الدعوى في طريقه الصحيح، بعيدا عن الارتجال والعشوائية، وتنأى بالدعاة عن منعطفات الطريق ومنزلقاته، التي تبعده عن الاعتدال والوسطية، حتى تزداد الرؤية وضوحا، وينكشف الطريق لمن أراد الهداية والرشاد..

وفقه الدعوة يتطلب من الداعية أن يكون ملما بقواعد علم الدعوة، بالفهم الدقيق لأحكام الدين، وواقع المجتمعات التي يعيش فيها، ويدرس طبائع البشر وعللهم وأمراضهم، ويشخص الداء ويقدم الدواء، وممارسة ذلك تحتاج إلي علم وبصيرة في الدين، وتدرج، وأولويات في التطبيق، فيجمع الداعية بين حسن الفهم والتحليل، وحسن العمل والتطبيق.

والكتابة في القواعد المنهجية للدعوة كانت فكرة تراودني منذ فترة طويلة، غير أنى لم أجد العزيمة القوية، والوقت المناسب، إلي أن جاءت الفرصة المواتية، وهى كرسي العلامة الشيخ ابن باز -رحمه الله- في الدعوة، وكان هذا الموضوع أحد العناصر المطروحة، فتحولت الفكرة إلي هم وعزم، ثم إلي حقيقة واقعية، بفضل الله ﷻ وتوفيقه أولا وأخيرا.

❁❁❁

مشكلة الدراسة.

تتضح مشكلة البحث، في غياب الرؤية الصحيحة الواضحة المحددة، للقواعد المنهجية للدعوة، بصورة جامعة شاملة متفق عليها، عند بعض العاملين في ميدان الدعوة، حيث ينظر إليها كل فرد من زاوية واحدة فقط، دون مراعاة باقي الزوايا.

وهذا يحتاج إلي التأصيل والتقعيد، لعلم الدعوة بفروعه المختلفة، الذي تعددت فيه الرؤى، وتداخلت فيه الآراء، واختلطت فيه الموضوعات بعضها مع بعض، من أجل ضبط قواعد هذا العلم، لمنع التداخل والاختلاط في مفردات البحث.

ولا شك أن الاختلاف في كتابات الدعاة، حول ضبط وتحديد القواعد المنهجية للدعوة في تناولهم، ومعالجتهم لهذا الموضوع، بسب تنوع المشارب، والخلفية الفكرية لهم، فالفقيه الأصولي يدخل في هذه القواعد كل ما له علاقة بعلم أصول الفقه، والداعية الفقيه يدخل فيها ما يتعلق بفضائل الدعوة والدعاة، وهذا يتطلب الدقة والتحري في اختيار المناسب من القواعد المنهجية للدعوة.

❁❁❁

أهداف الدراسة.

١ – يتناول هذا البحث القواعد المنهجية للدعوة عند السلف، حيث إن الدعوة الإسلامية لها قواعد وأصول، ومناهج وطرق، وهذه الدراسة تقوم على توضيح هذه القواعد المنهجية، المنضبطة بضوابط الشرع والدين، دون إفراط أو تفريط، أو غلو أو إجحاف، حيث تقوم على الإتباع، فتضبط معالمه، وترسم حدوده،

٢- المشاركة على قدر الوسع والطاقة في الكتابة الدعوية للقواعد المنهجية، للمحافظة على سير الدعوة، في طريقها الشرعي الصحيح، كي تصل إلي مستوى الاتفاق بين العلماء، من خلال استقراء الدراسات السابقة وتتبعها، واستخلاص المتفق عليه منها، وإضافة بعض القواعد المنهجية الجديدة، بحيث تكون الدراسة تأصيلية ومتفق عليها، ومرجعا للباحثين والدعاة في هذا الموضوع.

٣- ربط الدعاة بمنهج القرآن الكريم والسنة النبوية، في فهم الإسلام وتبليغه، على فهم الصحابة والتابعين وسلف الأمة، والحذر من المخالفة أو الخروج عن هذا المنهج، أو إتباع الأهواء المضلة، التي تبعد الناس عن الصراط المستقيم.

❁❁❁

تساؤلات البحث.

السؤال الذي يطرح نفسه في هذه الدراسة، ما القواعد المنهجية الدعوية التي فهمها الصحابة من القرآن الكريم والسنة النبوية، وسار عليها السلف الصالح، في تبليغ الدعوة الإسلامية، ومواصلة الطريق، حتى حققت أهدافها، وآتت أكلها، لنسير على نفس الطريق، ونتبع نفس المنهج؟.

❁❁❁

الدراسات السابقة.

هناك كتابات كثيرة حول فروع علم الدعوة لم أتطرق إليها، لعدم صلتها المباشرة بالموضوع الرئيسي، مثل الكتب التي تعنى بأصول الدعوة، الداعي، والمدعو، والدعوة، والأساليب، والوسائل، وأخلاق الدعاة، وميادين الدعوة، ومشكلاتها، وعلم نفس الدعوة.

ومن خلال حصر بحوث وكتب الدعوة القديمة والحديثة وقراءتها لم أعثر – فيما أعلم- على مطابقة هذا العنوان لأي منها، وكذلك الرسائل العلمية للباحثين في الجامعات المختلفة.

لكن هناك بعض الفصول أو المباحث في كتب ذات صلة بالموضوع، وكذا بعض عناوين الكتب قريبة من هذا العنوان مثل:

١- الأسس العلمية لمنهج الدعوة الإسلامية دراسة تأصيلية على ضوء الواقع المعاصر. د- عبد الرحيم محمد المغذوي، دار الحضارة للنشر والتوزيع ط/ الأولى سنة ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م. ويقع في مجلدين. وهناك طبعة أخرى في مجلد واحد، وهو مرجع مهم في علم الدعوة، تناول فيه فصلا كاملا من ثلاثين قاعدة، في قواعد منهج الدعوة، وتقسيم هذه القواعد وأهميتها، وآلية تنفيذها، غير أنه يغلب على بعضها الجانب الأصولي الفقهي.

٢- قواعد الدعوة إلي الله تعالى، د همام عبد الرحيم سعيد. ط/ دار الوفاء القاهرة، ط/ الثالثة، ط/ العدوى عمان سنة ١٤٠٧/ ١٩٨٧ ويقع في ١٧٩ صفحة من الحجم

الصغير، تناول خمس عشرة قاعدة للدعوة، غير أنه أدخل فيها كثيرا من فضائل الدعوة والدعاة، ضمنها في قواعد الدعوة، واتفقت معه في ثلاث قواعد منها.

٣-أسس منهج السلف في الدعوة إلي الله تعالى. فواز بن هليل بن رباح السحيمي، دار ابن القيم للنشر والتوزيع ط/ الأولى، سنة ١٤٣٢هـ. تحدث فيه عن الضوابط المتعلقة بالداعية، من الإخلاص، والبصيرة، والحلم، والصبر، وعن الضوابط المتعلقة بالمدعوين، في مراعاة الفوارق الفردية بين الأفراد والجماعات، والضوابط المتعلقة بالمدعو إليه، والضوابط المتعلقة بأحوال الزمان والمكان، ثم الحديث عن وسائل الدعوة وأقسامها، ومميزات منهج السلف في الدعوة إلي الله. فهو أقرب لأصول الدعوة منها للقواعد المنهجية للدعوة.

٤-منهج الدعوة في ضوء الواقع المعاصر، عدنان عرعور، نشر- جائزة نايف بن عبد العزيز للسنة النبوية والدراسات الإسلامية المعاصرة، ط/ الأولى ١٤٢٦ه. تحدث فيه عن واقع المسلمين وحاجتهم للدعوة، وأهمية الداعية، وصفاته، وأحوال المدعوين، ومنهجية الدعوة، تناول فيها سبعة مباحث هي أقرب إلي القواعد الدعوية، وفيها تقارب بينها وبين بعض فصول هذا الموضوع، وختم كتابه بالحديث عن الأساليب، والوسائل الدعوية.

٥- قواعد الدعوة الإسلامية، د الشريف حمدان راجح المهدي الهجاري ط/ مطابع ابن تيمية بالقاهرة ط/ الأولى ١٤١٥هـ ١٩٩٥م. اعتبر المؤلف أصول الدعوة هي قواعد الدعوة، وجاء الكتاب في أربعة أبواب، الباب الأول: تناول فيه تعريف الدعوة وحكمها وموضوعها من أركان الإسلام الخمسة، وأهميتها للفرد والمجتمع،

وخصائصها، وأهم ميادينها، الباب الثاني: تناول فيه الداعي وتعريفه وصفاته وثقافته ومواقف بعض الدعاة، ومنهج النبيﷺ في الدعوة، وحياته، وأخلاقه. الباب الثالث: المدعو، تناول تعريفه، وحقوقه، ووجباته، وكيف تتم الدعوة في المجتمعات الإسلامية وغيرها، الباب الرابع: تناول وسائل الدعوة المختلفة، فهو يعد كتابا في أصول الدعوة.

٦- قواعد منهجية في الدعوة إلي الله. إعداد أ.د.فالح بن محمد بن فالح الصعني، دار ابن الأثير للنشر والتوزيع، ط/ الأولى سنة ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م. تناول فيه من وجهة نظره أربع عشرة قاعدة، وهي المقاصد والنيات، وضوح الرؤية والهدف، والغايات والوسائل، والموازنة بين العلم والعبادة والعمل، وفقه المصالح والمفاسد، والبناء والمعالجة، والتغيير والإصلاح، والعقل والعاطفة، والمثالية والواقعية، والعناية بالكل والجزء، والائتلاف والاختلاف، والموازنة بين الترغيب والترهيب، والتفاؤل واليأس، والتدرج وعدم الاستعجال.

وهذه القواعد التي ذكرها منها ما يتفق مع بعض القواعد التي اخترتها، وإن اختلف في الاسم العام لها، ومنها ما هو من خصائص الدعوة، ومنها ما يندرج تحت الأساليب الدعوية.

❁❁❁

منهج البحث.

اتبعت في هذه الدراسة منهجا تبدو معالمه فيما يأتي:

١-استخدام المنهج الوصفي التحليلي في توصيف القواعد المنهجية للدعوة، وتأصيلها، ووضع ضوابط لها، وتحليل تلك القواعد المنهجية وجزئيتها، للوصول إلي نتائج علمية صحيحة.

٢-التأصيل العلمي لكل قاعدة، بالتعريف بها، وبيان أصولها الشرعية، وإيراد الأدلة والبراهين عليها، وإيضاح القاعدة بالعديد من الأمثلة والنماذج من القرآن الكريم، والسنة النبوية، وعمل الصحابة والتابعين، وتابعيهم بإحسان.

٣-التوسط في العرض بلا توسع يطيل، وبلا إيجاز مخل.

٤-عزو الآيات القرآنية الكريمة إلي مواضعها، وتخريج الأحاديث النبوية الشريفة من مظانها من كتب السنن.

٥- نسبة كل قول لصاحبه من العلماء القدامى والمحدثين، سواءً ما كان بنصه أو بتصرف يسير.

٦-أكثرت من أقوال وتعليقات السلف في كثير من القواعد، بعد تأصيلها من القرآن الكريم والسنة النبوية، وذلك للتأكيد على أن هذه القواعد كانت محل اهتمام وتقدير، وموضع تطبيق وممارسة في حياتهم العملية، فشكلت منهجا دعويا ساروا عليه، وكذا الأجيال التي جاءت من بعدهم.

❁❁❁

خطة البحث.

يحتوي هذا البحث على مقدمة، وتمهيد، وسبعة مباحث، وخاتمة تشمل على نتائج البحث وأهم التوصيات، وقائمة بالمراجع، وفهرس عام للموضوعات.

أما المقدمة: فتشتمل على أهمية الموضوع، وسبب اختياره، ومشكلة الدراسة، وأهدافها، وتساؤلات البحث، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وخطة الدراسة.

وأما التمهيد: فيشتمل على التعريف بعنوان ومصطلحات البحث.

مميزات منهج السلف في الدعوة.

ثناء العلماء على منهج السلف في الدعوة إلى الله تعالى.

وأما المباحث السبعة فجاءت على الوجه التالي:-

المبحث الأول: القاعدة الأولى: مراعاة فقه الأولويات في الدعوة.

المبحث الثاني: القاعدة الثانية: مراعاة فقه التدرج في الدعوة.

المبحث الثالث: القاعدة الثالثة: مراعاة فقه البلاغ في العمل الدعوي.

المبحث الرابع: القاعدة الرابعة: مراعاة فقه الاختلاف في العمل الدعوي.

المبحث الخامس: القاعدة الخامسة: مراعاة أحوال المدعوين.

المبحث السادس: القاعدة السادسة: مراعاة فقه السنن الإلهية في الدعوة والدعاة.

المبحث السابع: القاعدة السابعة: مراعاة فقه الواقع.

الخاتمة: وتشتمل على أهم نتائج البحث. والتوصيات.

المراجع. والفهرس.

❁❁❁

التمهيد

التعريف بعنوان ومصطلحات البحث.

المطلب الأول: تعريف القواعد في اللغة والاصطلاح.

القواعد في اللغة: جمع لكلمة قاعدة، وأساسها الفعل الثلاثي قعد: والقاعدة في اللغة لها معان كثيرة، وهى تدور حول (الأصل والأساس الذي ينبني عليه غيره) (١).

فالقواعد هي أصل الشيء وأساسه الذي يقوم عليه، مثل قواعد البناء وغيرها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾(٢).

القواعد في الاصطلاح: (قضية كلية منطبقة على جميع جزئياتها) (٣).

وقيل: (أمر كلي ينطبق على جزئيات كثيرة تفهم أحكامها منها) (٤).

فالقاعدة تشتمل على جزئيات كثيرة، تتعدد وتختلف حسب المعلومة المستخدمة فيها، فهناك قواعد محددة لكل علم، ومنها علم الدعوة.

---

(١) انظر لسان العرب، لابن منظور مادة قعد ١٢٦/٣، دار إحياء التراث العربي ط/ الثالثة.
ومفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني صـ٦٧٨، دار القلم دمشق ط/ الثالثة ١٤٢٣هـ.
والمعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية بالقاهرة مادة قعد. ط/الثالثة سنة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

(٢) سورة البقرة الآية (١٢٧).

(٣) التعريفات، لعلي بن محمد بن علي الجرجاني صـ ٢١٩ حققه إبراهيم الأنباري، دار الكتاب العربي بيروت ط/ الرابعة ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

(٤) الكوكب المنير لمحمد بن أحمد بن عبد العزيز الفتوحي الحنبلي المعروف بابن النجار ٣٠/١.

(والضابط حكم جزئي ينطبق على جزئيات) [١].

والفرق بين القواعد والضوابط: (أن القاعدة تنطبق على فروع كثيرة من أبواب شتى، وأما الضابط فيندرج تحته فروع من باب واحد) [٢].

وبعض العلماء يجيزون إطلاق القاعدة على الضابط، والعكس.

❁❁❁

المطلب الثاني: تعريف المناهج لغة واصطلاحا.

المناهج: جمع، مفردها منهج ومنهاج، وهى تعنى: الطريقة الواضحة، ومنه قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴿٤٨﴾﴾ [٣].

وهى تعنى أيضا: (الخطة المرسومة، ومنه منهاج الدراسة، ومنهاج التعليم، ونحوها، والمنهج هو: الطريق المستقيم الواضح الذي لا يتغير) [٤]. والمناهج الدعوية هي: (النظم والخطط الدعوية) [٥].

والمنهجية مصدر صناعي للمنهج، مأخوذة من مادة نهج، فهي تفيد الوضوح، فالمنهجية: (بمعنى وضح واستبان، وصار منهجا واضحا بينا) [٦].

---

(١) لسان العرب، لابن منظور، مادة ضبط.

(٢) الأشباه والنظائر للسيوطي ٢/٥.

(٣) سورة المائدة الآية (٤٨).

(٤) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة ١/٢٨٤، ٢/٩٦٦.

(٥) المدخل لعلم الدعوة محمد أبو الفتح البيانوني صـ ٤٧ مؤسسة الرسالة الأولى ١٤١٢ هـ ١٩٩١م.

(٦) جمهرة اللغة لابن دريد ص ٤٩٨ تحقيق/ رمزي منير البعلبكي، دار العلم للملايين بيروت سنة ١٩٧٧م. ولسان العرب لابن منظور ٢/٣٨٣ دار صادر بيروت. ومختار الصحاح للرازي ٦٨١ ط، دار الفكر.

فهي أمور منظمة غير عشوائية، وقد جاء في حديث ابن عباس-رضي الله عنهما-: "لم يمت رسول الله حتى وضعكم على طريقة ناهجة" أي واضحة[١].

يقول د علي جريشة في تعريف المنهج: (النهج: الخطة أو التخطيط اللازم لشيء ما، فمنهج البحث خطته، ومنهاج الدعوة، خططها، أو تخطيطها) [٢].

ويستفاد من ذلك، أن المنهج والمنهاج يعنى الطريق الواضح، والخطة المرسومة لشيء ما، أى الطريق الذى يسير عليه الدعاة في معالجة الأمور، بقواعد واضحة، ومعالم ضابطة ومنظمة لسير الدعوة في طريقها الصحيح.

والقواعد في كل علم أمر في غاية الأهمية، لأنها أسس يبنى عليها غيرها، وتجمع شتات المسائل المتفرقة، وتعصم الإنسان من الوقوع في التخبط والتناقض، قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله-: (لا بد أن يكون مع الإنسان أصولا كلية، يرد إليها الجزئيات، ليتكلم بعلم وعدل، ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت، وإلا فيبقى في كذب وجهل في الجزئيات، وجهل وظلم في الكليات، فيتولد فساد عظيم) [٣].

وتنقسم قواعد منهج الدعوة إلي عدة تقسيمات: منها ما هو باعتبار أصلها الشرعي، فهناك القواعد المنصوص عليها، وهى القواعد التي جاء بشأنها نص شرعي، وهناك القواعد المستنبطة، وهى القواعد التي يستخرجها العلماء والدعاة من خلال استقراء الأحكام الشرعية.

---

(١) تفسير القرطبي ٢١٢/٢ ط، مؤسسة مناهل العرفان بيروت.

(٢) منهاج الدعوة وأساليبها د، علي جريشة صـ ١٦ دار الوفاء ط/ الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٠٣/١٠.

ومن ناحية أصلها تنقسم إلى: قواعد أصلية، أو كلية، وهى التي تكون مستقلة وغير تابعة لقاعدة أخرى، وقواعد تابعة أو فرعية، وهى التي تكون تابعة لقاعدة أخرى، وقد تسمى بالقواعد الفرعية.

ومن ناحية شمولها تنقسم إلي قسمين: قواعد شاملة، وهى التي تشتمل على مسائل دعوية كثيرة ومتنوعة، وقواعد غير شاملة، وهى التي تشتمل على وسائل دعوية قليلة ومختصرة.

ومن ناحية نوعيتها يمكن أن تقسم إلي قسمين هما: القواعد الأصولية، وهى القواعد التي تتعلق بأصول منهج الدعوة، كالأدلة والأحكام والمقاصد وغيرها، والقواعد الفقهية، وهي القواعد التي تتعلق بفقه منهج الدعوة، كالعبادات والمعاملات والأخلاق.

ومن ناحية الموضوع، تنقسم إلي أربعة أقسام وهى: قواعد متعلقة بمحتويات منهج الدعوة ومضامينه، وقواعد متعلقة بالقائم على تنفيذ منهج الدعوة والداعية، وقواعد تتعلق بالمخاطبين بمنهج الدعوة والمدعوين، وقواعد متعلقة بوسائل منهج الدعوة[١].

❁❁❁

(١) انظر في تقسيم قواعد منهج الدعوة الأسس العلمية لمنهج الدعوة الإسلامية د- عبد الرحيم المغذوي ١/٢٩١-٢٩٢ ط، دار الحضارة للنشر والتوزيع الأولى ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.

المطلب الثالث: تعريف الدعوة لغة واصطلاحا:

الدعوة في اللغة: كلمة عامة لها معان كثيرة، ودلالات متعددة، وهذا من مميزات اللغة العربية وخصائصها، حيث إن اللفظة الواحدة من مفردات العربية، تتسع لتشمل دلالات كثيرة، ويشهد لذلك آيات القرآن الكريم، ومعاجم اللغة العربية.

ومن هذه المعاني التي جاءت في لغة القرآن الكريم، ومعاجم اللغة، عن كلمة الدعوة ما يأتي:

أولا-تأتى كلمة الدعوة بمعنى الرغبة إلي الله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[1].

جاء في المعجم الوسيط: (دعا بالشيء: دعوا، ودعوة ودعاءً ودعوى، أي طلب إحضاره، ودعا فلانا: صاح به وناداه.

ودعا فلانا: استعان به، ورغب إليه وابتهل.ودعا لفلان: طلب الخير له. ودعا إلي الشيء: حثه على قصده. يقال دعاه إلي قتال، ودعاه إلي الصلاة، ودعاه إلي الدين، وإلى المذهب: حثه على اعتقاده وساقه إليه، والداعية: الذي يدعو إلي دين أو فكرة، والهاء للمبالغة) [2].

والدعوة أيضا: (أن تميل بالشيء إليك بصوت وكلام يكون منك) [3].

---

(١) سورة يوسف الآية (١٠٨).

(٢) المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية، مجلد ٢٩٦/١. ط، الثالثة، سنة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

(٣) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس الرازي ٤٠٩/١. تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط/ مصطفى الحلبى/ القاهرة سنة ١٣٩١هـ -١٩٧١م

ثانيا-وتأتى الدعوة بمعنى: طلب الاستجابة للتوحيد، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾(١).

جاء في لسان العرب: (ومن معاني الدعوة: الدعوة إلي التوحيد) ومنه قوله تعالى: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾(٢) (٣).

ودعوة الإسلام إلي التوحيد هي دعوة الحق، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ ﴿١٤﴾ ﴾(٤). وما سواها دعوات باطلة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾(٥).

فالدعوة إلي الله تعنى: الدعوة إلي دينه وهو الإسلام، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ ﴿١٩﴾ ﴾(٦).

جاء في لسان العرب لابن منظور: (فالفعل: دعا، ومصدره: الدعاء والدعاوة، والدعاة: قوم يدعون إلي بيعة هدى أو ضلالة، وواحدهم داع، ورجل داعية: إذا كان يدعو الناس إلي بدعة، أو دين، وأدخلت الهاء فيه للمبالغة، وكذلك المؤذن والنبي ﷺ

---

(١) سورة الأنفال من الآية (٢٤).
(٢) سورة الأحزاب من الآية (٤٦).
(٣) لسان العرب، لابن منظور، ٩٨٦/١.
(٤) سورة الرعد من الآية (١٤).
(٥) سورة يونس من الآية (٣٢).
(٦) سورة آل عمران من الآية (١٩).

داع إلي الله تعالى. وذكر ابن منظور عن الأزهري: المؤذن داعٍ إلي الله-تعالى-والنبي ﷺ داع الأمة إلي توحيد الله-تعالى-وطاعته) [١].

ويستفاد من ذلك أن كلمة الداعية لفظ عام يشمل داعي الخير والشر، والحق والباطل، ونصوص القرآن والسنة تشهد لذلك، والمعنى الاصطلاحي هو الذي يحدد المقصود بالتحديد.

ومن آيات القرآن التي جاءت كلمة الداعي فيها إلي الحق والخير، قوله تعالى: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾[٣].

ومن الآيات التي اشتركت فيها كلمة الداعي بين الطرفين، قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ

(١) لسان العرب لابن منظور، مجلد ١/٩٨٧. ط/ بيروت لبنان، بدون تاريخ.
(٢) سورة الأحقاف الآية (٣١).
(٣) سورة الأحزاب الآيتان (٤٥-٤٦).
(٤) سورة غافر الآية (٤١).

يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ (١).

ومن السنة: **"من دعا إلي هدًى، كان له من الأجرِ مثلُ أجورِ من تبِعه، لا يُنقِصُ ذلك من أجورِهم شيئًا، ومن دعا إلي ضلالةٍ، كان عليه من الإثمِ مثلُ آثامِ من تبِعه، لا يُنقِصُ ذلك من آثامِهم شيئا"**(٢).

وفي حديث حذيفة بن اليمان، فقلتُ يا رسول الله: "هل بعد ذلك الخيرِ من شرٍّ؟ قال: **نعم. دُعاةٌ على أبوابِ جهنمَ، من أجابهم إليها قذفوه فيها"**(٣).

ومما سبق يتبين أن كلمة الدعوة في اللغة لها معان كثيرة، وهى من الألفاظ المشتركة، لكنها تتقارب في مضمونها، وتتفق كلها على أن فيها معنى الطلب، والنداء لفعل شيء ما، أو الاجتماع عليه، أو اعتقاده، والطلب يحتاج إلي جهد وبذل من أجل تلبيته والموافقة عليه، ففيها معنى الإلحاح والجهد والتعب والمشقة.

وأبرز المعاني المرتبطة بالدعوة هي الرغبة إلي الله ﷻ وطلب الاستجابة للتوحيد، الذي هو رمز الإسلام وعنوانه، ولا يتم تحديد المقصود من الطلب إلا بقرينه من الحال أو المقال، والسياق هو الذي يحدد المقصود من الدعوة. ومن مرادفات كلمة الدعوة والألفاظ المتقاربة لها، التبليغ، والإرشاد، والوعظ، والنصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهي ألفاظ تتفق معانيها مع كلمة الدعوة.

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٢١).

(٢) الحديث أخرجه الإمام مسلم (٢٦٧٤) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) الحديث أخرجه الإمام مسلم (١٨٤٧) عن حذيفة بن اليمان ﷺ.

تعريف الدعوة في الاصطلاح:

لقد نحى العلماء مناحي شتى في تعريف الدعوة، نظرا للزاوية التي نظر إليها كل منهم إلي الدعوة، فمنهم من نظر إليها على أنها تبليغ الإسلام، ومنهم من جمع بين التبليغ وبين الدين نفسه، ومنهم من نظر إلي جانب من جوانب الدعوة، ووقف التعريف عليه، ومن ثم جاءت تعريفاتهم مختلفة في الألفاظ والمعنى، وإن كان بينها شيء من التقارب.

وتدور الدعوة في الاصطلاح حول معنيين رئيسين لهما صلة ببعضهما، المعنى الأول، بمعنى: النشر والتبليغ، وهو المعنى الذي تدور حوله هذه الدراسة، وهو علم قائم بذاته، له قواعده وأصوله وموضوعاته وثمراته وغاياته، والمعنى الثاني، بمعنى رسالة الإسلام، أو الدين الإسلامي.

أما تعريف العلماء للدعوة بمعنى النشر والتبليغ، فمن ذلك:

١-عرفها الدكتور/ أبو بكر ذكرى بأنها: (قيام العلماء والمستنيرين في الدين، بتعليم الجمهور من العامة، ما يبصرهم بأمور دينهم ودنياهم، على قدر الطاقة) [١].

وهذا التعريف يقصر الدعوة على جمهور العامة، ويحصرها في نطاق المسلمين وحدهم، رغم أن الدعوة للعامة والخاصة، وللعلماء والجهال، وللمسلمين وغيرهم.

٢-وعرفها الشيخ/ على محفوظ بأنها: (حث الناس على الخير والهدى، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ ليفوزوا بسعادة العاجل والآجل) [٢].

---

(١) الدعوة إلي الإسلام د، أبو بكر ذكرى صـ٨ ط، دار المعرفة مصر، بدون تاريخ.

(٢) هداية المرشدين، الشيخ على محفوظ صـ١٧ ط، دار الاعتصام ط، التاسعة ١٩٧٩م.

وهذا التعريف أعم وأشمل من سابقه، لأنه لا يحصر الداعي أو المدعو في شخص معين.

٣- وعرفها د/ حسن عيسى عبد الظاهر بقوله: (البيان والتبليغ لهذا الدين أصولا وأركانا، وتكاليفا، والحث عليه، والترغيب فيه) (١).

٤- وعرفها د/ أحمد غلوش بأنها: (إبلاغ الناس دعوة الإسلام في كل زمان ومكان، بالأساليب والوسائل التي تتناسب مع أجواء المدعوين) (٢).

٥- وعرفها د/ محمد السيد الوكيل بأنها: (جمع الناس على الخير، ودلالتهم على الرشد، بأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر) (٣).

وهذه التعريفات الأخيرة متقاربة في مضمونها وإن اختلفت في ألفاظها، وكلها تدور حول النشر والتبليغ، وتوصيل رسالة الإسلام للمدعوين في كل مكان، مع مراعاة الوسائل والأساليب المناسبة.

وأما تعريف العلماء للدعوة بمعنى الدين أو رسالة الإسلام، فمنها:

تعريف الإمام ابن تيمية-رحمه الله-قال:

---

(١) فصول في الدعوة الإسلامية د، حسن عيسى عبد الظاهر صـ٤٠، مؤسسة الرسالة بيروت، ط/الأولى سنة ١٤١٢ هـ.

(٢) الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها د، أحمد غلوش صـ١٠. دار الكتاب المصري القاهرة ط/ الثانية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

(٣) أسس الدعوة وآداب الدعاة د، محمد السيد الوكيل صـ٩. دار الوفاء المنصورة ط/ الثالثة سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

١-الدعوة إلي الله: (هي الدعوة إلي الإيمان به، وبما جاءت به رسله، بتصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا) [١].

٢-وعرف الشيخ/ محمد الصواف-رحمه الله- الدعوة إلي الإسلام بقوله هي: (رسالة السماء إلي الأرض، وهى هدية الخالق إلي المخلوق، وهى دين الله القويم، وطريقه المستقيم، وقد اختارها الله وجعلها الطريقة الموصلة إليه ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴿١٩﴾ ﴾[٢]. ثم اختارها لعباده وفرضها عليهم، ولم يرض بغيرها بديلا عنها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[٣]) [٤]. فهذه التعاريف تدل على أن الدعوة يقصد بها الإسلام، بجميع تعاليمه وأحكامه.

والدعوة هي الجانب العملي التطبيقي لنشر العلوم الشرعية بين المدعوين، فتقوم بتصحيح العقائد، وإقامة الشرائع، وتحسين الأخلاق فتنقل الأمة من محيط إلي محيط. من الكسل والفتور إلي العمل والنشاط،ومن السلبية إلي الإيجابية، ومن الغفلة إلي اليقظة والعمل النافع المثمر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله- في موضع آخر في تعريف الدعوة: (وكل ما أحبه الله ورسوله من واجب ومستحب، من باطن وظاهر، فمن الدعوة إلي الله الأمر به، وكل ما أبغضه الله ورسوله من باطن وظاهر، فمن الدعوة إلي الله النهي عنه، ولا

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ١٥/١٥٧-١٥٨ مطابع الريان، ط، الأولى

(٢) سورة آل عمران من الآية (١٩).

(٣) سورة آل عمران الآية (٨٥).

(٤) من القرآن إلي القرآن للشيخ، محمد الصواف صـ٢، مؤسسة الرسالة بيروت ط، الأولى سنة ١٣٩٨ هـ، ١٩٧٨م.

تتم الدعوة إلي الله إلا بالدعوة إلي أن يفعل ما أحبه الله، ويترك ما أبغضه الله، سواء كان من الأقوال أو الأعمال، الباطنة والظاهرة) (١).

ومما سبق حول تعريف الدعوة في الاصطلاح يتبين أن المراد بالدعوة بمعنى النشر والتبليغ، هي عملية توصيل رسالة الإسلام من الداعي إلي المدعو، وهذه الدعوة لها أركان أربعة: الداعي، وهو الركن الأول، المدعو، وهو الركن الثاني، مادة الدعوة، وهى رسالة الإسلام. منهج الدعوة، وهى الكيفية والطريقة التي يتم التبليغ بها.

وعلى ذلك فكلمة الدعوة بمعنى النشر والتبليغ هنا لها معنى خاص، وهى جزء من الدعوة بمعنى الدين.

وأما الدعوة بمعنى الدين أو رسالة الإسلام، فلها ركنان أساسيان، هما العقيدة والشريعة، وهى هنا بمعناها العام الذي تندرج تحته الدعوة بمعناها الخاص، إذ إن من مبادئ الإسلام أن يقوم بعض المسلمين بتبليغه إلي الناس، فإذا قيل هذا الرجل من رجال الدعوة، كانت بمعنى النشر والتبليغ، وإذا قيل اتبعوا دعوة الله، كانت بمعنى الدين أو الرسالة.

والداعية اصطلاحا هو: (المسلم المبلغ للإسلام، والمعلم له، والساعي إلي تطبيقه، فيشمل مصطلح الداعي من قام بأعمال الدعوة كلها، أو بعمل من أعمالها، إلا أن الذي يقوم بهذه الأعمال جميعها هو الداعية الكامل) (٢).

❁❁❁

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٥/١٥٧- ١٥٨، ١٥/١٦٤.

(٢) المدخل إلي علم الدعوة، د، محمد أبو الفتح البيانوني، صـ ٤٠، ط، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٥هـ - ١٩٩١م.

المطلب الرابع: تعريف السلف في اللغة والاصطلاح.

السلف: (كلمة مأخوذة من مادة سلف يسلف، والقوم السلاف: المتقدمون، وسلف الرجل: آباؤه المتقدمون، والجمع: أسلاف وسلاف) (١).

وقال ابن فارس: (سلف حروفه الثلاثة حروف أصل، يدل على التقدم والسبق، ومن ذلك السلف: وهم الذين مضوا، ويقال قوم سلاف أي: المتقدمون) (٢).

وفي القرآن الكريم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾(٣).

وقد وردت كلمة السلف في السنة في حديث النبي ﷺ لفاطمة: **(ولا أراني إلا قد حضر أجلي، وإنك لأول أهلي لحوقا بي، ونعم السلف أنا لك)** (٤).

وفي الحديث أيضا قوله ﷺ: **(إن الله -تعالى- إذا أراد رحمة أمة من عباده، قبض نبيها قبلها، فجعله لها فرطا وسلفا بين يديها)** (٥).

فالسلف هم من تقدموا من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم في القرون الثلاثة الأولى، التي هي أفضل القرون، كما جاء في الحديث قوله ﷺ: **(خيرُ القرونِ قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)** (٦).

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة سلف ١٥٩/٩. ومختار الصحاح للجوهري ١٣٧٧/٤. والمعجم الوسيط ٤٦٩/١.

(٢) معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس، مادة سلف ٩٥/٣.

(٣) سورة الزخرف الآية (٥٦).

(٤) الحديث أخرجه الإمام مسلم (٢٤٥٠) عن عائشة ﵂.

(٥) الحديث أخرجه الإمام مسلم (٢٢٨٨) عن أبي موسى الأشعري ﵁.

(٦) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٢٦٥١) عن عبد الله بن مسعود ﵁.

وهناك رواية أخرى تقول: (**إن خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**) [١].

فهي تعنى من تقدمك في شيء ما، وسبقك إليه، وأنت تسير مقتديا طريقه.

وسمي السلف سلفا، لسبقهم في الوقت والزمن، فهم أهل التقدم والسبق في الفضل والإحسان، والهدى والخير، بالإضافة إلي قربهم من عصر الرسالة، مقارنة بمن جاء بعدهم.

والسلف في الشرع: (اسم لكل من يقلد مذهبه في الدين ويتبع أثره، كأبي حنيفة وأصحابه، فإنهم سلفنا، وأما الصحابة فإنهم سلفهم) [٢].

والسلف هم (جنود الدعوة الأوائل، تلقوها من مصدر قوتها، وعذب معينها، فلا جرم أن كانت قوة الدفع أشد ما تكون انطلاقا، وعذب المشرب أصفى ما تكون نقاء) [٣].

والأمة الإسلامية لها سلف وخلف، وسلفها هم المعنيون بقول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [٤].

والذين اتبعوهم بإحسان، أي: الذين ساروا على نهج السابقين في العلم والعمل.

---

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم (٢٥٣٥) عن عمران بن حصين ﷺ.

(٢) كشف مصطلحات الفنون، التهانوني مادة سلف.

(٣) عظماؤنا في التاريخ، د مصطفى السباعي صـ٦، دار السلام القاهرة ط، الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

(٤) سورة التوبة الآية (١٠٠).

وهذه الآية أصل من الأصول التي تحدد معنى السلف وبيان صفاتهم، وما أعده الله لهم في الآخرة من الجنة، والنعيم المقيم.

ومن الكلمات التي تطلق من باب التنوع والمرادفات، ويقصد بها السلف أيضا، كلمة أهل السنة والجماعة، وأهل الأثر، وأهل الحق، وأهل الحديث.

يقول الإمام أحمد بن حنبل-رحمه الله-: (هذا مذهب أهل العلم، وأصحاب الأثر، وأهل السنة المتمسكين بعروقها، المعروفين بها، والمقتدى بهم فيها، من لدن أصحاب النبي ﷺ) (١).

فكلمة أهل السنة، وصف مستمد من سنة النبي ﷺ ليميز أهل الحق والاتباع عن أهل البدع والأهواء، وكلمة أهل الأثر، هم المعنيون بحديث النبيﷺ حينما سئل: (**يا رسول الله أي الناس خير؟ قال أنا ومن معي، قال فقيل له ثم من يا رسول الله؟ قال: الذين على الأثر...**) (٢).

ويقول ابن حزم-رحمه الله-: (وأهل السنة الذين تذكرهم أهل الحق، ومن عداهم أهل البدعة، فإنهم الصحابة -رضي الله عنهم- وكل من سلك نهجهم من خيار التابعين -رحمهم الله- ثم أصحاب الحديث، ومن تبعهم من الفقهاء، جيلا فجيلا إلي يومنا هذا، ومن اقتدى بهم) (٣).

---

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزى صـ٢١. دار الكتب العلمية بيروت/ ط الثانية ١٣٦٨هـ.

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٠٦/١٥ بسند صحيح عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم الظاهري ١١٣/٢.

يقول شيخ الإسلام-رحمه الله-: (أحق الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية أهل الحديث والسنة، الذين ليس متبوع يتعصبون له إلا رسول الله ﷺ وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله، وأعظم تمييزا بين صحيحها وسقيمها، وأئمتهم فقهاء وأهل معرفة بمعانيها واتباعا لها، وتصديقا وعملا، وحبا وموالاة لمن والاها، ومعادة لمن عادها) [1].

ومن خلال التعريف بمصطلحات العنوان، يتضح أن المعنى الذي يسير عليه البحث هو: القواعد المتبعة التي تضبط الدعوة في تبليغها وتطبيقها في حياة الناس بطريقة صحيحة، على أحسن وجه، وأتم حال، ومضى عليها السلف الصالح في طريق دعوة الناس إلي الله ﷻ.

❁❁❁

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٣/٣٤٧.

المطلب الخامس: هل السلفية فترة زمنية أم صفات معينة؟.

اختلف العلماء فيمن يطلق عليهم السلف، هل السلفية فترة زمنية محدودة لا يجوز تجاوزها، خاصة بالقرون الفاضلة الثلاثة الأولى؟ أم أن السلفية تطلق على كل من تحقق بأوصاف معينة في أي عصر كان؟.

والصواب الجمع بين الوصفين معا، فلا خلاف أن السلف هم أهل القرون المفضلة الواردة في الحديث النبوي، أهل الخيرية، ويضاف لتلك الفترة تقيدها بأنهم المتبعون للقرآن الكريم والسنة النبوية، الموافقون لهما قولا وعملا، فمن كان في تلك الفترة ولم يوافق قوله وعمله الكتاب والسنة، فليس من السلفية، بل من الفرق الضالة التي خرجت من الإسلام.

وأما من جاء بعد هذه القرون الثلاثة المفضلة، التي عاش فيها الصحابة والتابعون وتابعوا التابعين، سائرا على منهج وطريقة القرون المفضلة، أي متبعا لهدي القرآن الكريم والسنة النبوية في الاعتقاد والعمل، فهو منهم وإن كان متأخرا عنهم في الفترة الزمنية، وهم المعنيون بحديث النبي ﷺ **"ولن تزالَ طائفة من هذه الأمة قائمةً على أمرِ اللهِ، لا يَضُرُّهم مَن خالفهم، حتى يأتيَ أمرُ الله وهم على ذلك"**[(١)].

وإلى هذا المعنى السابق أشار ابن حزم -رحمه الله- في الفصل في الملل والأهواء والنحل بأن السلفية ليست فترة زمنية، وإنما هي وصف لمن تحقق بأوصافها، وكل من سار على نهج الصحابة والتابعين، جيلا بعد جيل، يعد من السلفية[(٢)].

---

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٧١) عن معاوية بن أبي سفيان-رضي الله عنهما-.

(٢) انظر هذا المعنى في الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم الظاهري ١١٣/٢.

والخلاصة أن كل مسلم جاء بعد هذه القرون الثلاثة الفاضلة، وتمسك بمنهج السلف الصالح في الاعتقاد والعمل والفهم والتطبيق، فهو من بقية السلف وإن تأخر في الزمن، إلا أنه معهم في الاسم والوصف.

❁❁❁

المطلب السادس: مميزات منهج السلف في الدعوة.

يتميز منهج السلف الصالح في الدعوة بعدة مميزات، ويمكن إجمالها فيما يأتي:-

١- إتباع القرآن الكريم، والسنة النبوية، فمنهج السلف الصالح، مبنى علي اتباع الأصلين الأساسيين القرآن الكريم، والسنة النبوية، كما فهمهما الصحابة والتابعون، وتابعوهم بإحسان، ومن ثم فهو يعصم صاحبه من الوقوع في البدع والمخالفات الشرعية، والفتن والضلال والزيغ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾[١].

وفي الحديث قال ﷺ: **"تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا، كتاب الله وسنتي"**[٢].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: (وأما السلف كالصحابة والتابعين لهم بإحسان، فلم يعرف لهم في هذا الأصل تنازع، بل الآثار متواترة عنهم به) [٣].

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: **"من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد"**[٤].

---

(١) سورة الأعراف الآية (٣).

(٢) الحديث أخرجه الإمام مسلم (١٢١٨). عن عبد الله بن عباس-رضي الله عنهما-.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٥٢/١٧.

(٤) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٢٦٩٧) عن عائشة ﵂.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: (فلا يجوز لأحد أن يجعل الأصل في الدين لشخص إلا لرسول الله ﷺ ولا لقول كتاب غير كتاب الله ﷻ ومن نصب شخصا كائنا من كان، فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل، فهو من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا) (١).

فحينما تغيب المرجعية، والضوابط الشرعية، يقع الناس في الحيرة، كما يفقد الإنسان البوصلة في الصحراء، فلا يدري أين الطريق التي يريد أن يسلكها، فيدور حول نفسه ولا يصل إلي شيء، لأنه فقد الدليل والهادي الذي يرشده إلي الحق والصواب.

٢- التحاكم إلي الكتاب والسنة والرد إليهما عند الخلاف، فالسلف لا يقدمون أقوالهم ولا اجتهاداتهم على القرآن والسنة على الإطلاق، بل يعظمونها ويسلمون لها، ويرون فيها النجاة والسلامة، وأن الهلاك والزيغ والتيه في مخالفتها، والله تعالى يقول: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ (٢).

فكل تنازع في أصول الدين أو فروعه، يجب أن يرد التنازع والتحاكم فيه إلي الأصلين الأساسيين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠﴾ (٣).

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٨/٢٠ والآية من سورة الأنعام (١٥٩).
(٢) سورة النساء الآية (٥٩).
(٣) سورة الشورى الآية (١٠).

وفي الحديث: **"فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي"**(١).

فعند التنازع والخلاف يجب العودة إلي الأصلين الرئيسين لرفع النزاع ودفع الخلاف قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾(٢).

واتباع السابقين الأولين من الصحابة والتابعين، ومن تبعهم على الهدى والرشاد، أمر واجب، لأن المخالفة تؤدى إلي العنت والمشقة، والزيغ والانحراف والضلال، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾(٣). وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾(٤).

والتحاكم إلي غير القرآن والسنة ليس من سبيل المؤمنين الصادقين، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية معلقا على قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ

(١) الحديث أخرجه الإمام الترمذي (٢٦٧٦) عن العرباض بن سارية ﷺ.
(٢) سورة النحل الآية (٦٤).
(٣) سورة النساء الآية (١١٥).
(٤) سورة النور الآية (٥١).

أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾[1].

(ومن هذه الآيات أنواع من العبر، الدالة على ضلال من تحاكم إلي غير الكتاب والسنة، وعلى نفاقه، وإن زعم أنه يريد التوفيق بين الأدلة الشرعية، وبين ما يسميه هو عقليات، من الأمور المأخوذة عن بعض الطواغيت، من المشركين، وأهل الكتاب، وغير ذلك من أنواع الاعتبار) [2].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: (والصواب في جميع مسائل النزاع، ما كان عليه السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان) [3].

ويقول أيضا: (فلا فلاح إلا بإتباع الرسولﷺ فإن الله خص بالفلاح أتباعه المؤمنين وأنصاره، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾)[4].

ويقول أيضا: (وإنما الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، هي سبيل نبينا محمد ﷺ وسبيل خلفائه وأصحابه، ومن سلك سبيلهم، وهم (السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار) [5].

---

(١) سورة النساء الآيات (٦٠- ٦٣).

(٢) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية ٥٨/١.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٠٥/١٧.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٩٧/١٩. والآية من سورة الأعراف (١٥٧).

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٤٣/٢٨.

٣- الاقتداء بالنبي ﷺ في كل ما صدر عنه، من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة، ظاهرا وباطنا، والمتابعة لهديه ﷺ في جميع الأحوال، واقتفاء أثر الصحابة والتابعين- رضوان الله عليهم أجمعين-.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: (فإن عامة ما عند السلف من العلم والإيمان هو ما استفادوه من نبيهم، والذي أخرجهم من الظلمات إلي النور، وهداهم إلي صراط العزيز الحميد) (١).

ويقول أيضا: (أحق الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية، أهل الحديث والسنة، الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله، وهم أعلم الناس بأقواله وأعماله، وأعظمهم تمييزا بين صحيحها وسقيمها، وأئمتهم فقهاء وأهل معرفة بمعانيها، واتباعا لها، وتصديقا وعملا، وحبا وموالاة لمن والاها، ومعاداة لمن عاداها) (٢).

٤-الفهم الشمولي للإسلام، فهم كانوا أقدر الناس على فهم شمولية الإسلام، من حيث إنه يخاطب الإنسان في كل أطوار حياته، وكل مجالات الحياة، وينظم شؤون الدنيا والآخرة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴿٨٩﴾﴾(٣).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: (الشريعة الإسلامية جاءت لتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها) (٤).

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٥٧/٤-١٥٩.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٣٤٧/٣.

(٣) سورة النحل الآية (٨٩).

(٤) منهاج السنة لابن تيمية ١٤٧/١. تحقيق د/ محمد رشاد سالم/ مكتبة ابن تيمية القاهرة/ ط/ سنة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩م

ففهم الإسلام في ضوء ما فهمه السلف الصالح، من أهم أسباب العصمة من الفتن والضلال، والزيغ والبدع، وكذلك من أهم أسباب الثبات على الدين، والإيمان، والإسلام.

٥-تقديم النقل على العقل، وعدم تعارض النقل مع العقل. وتلك ميزة من مزايا منهج السلف الصالح في تقديم النقل على العقل المجرد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾[١].

قال ابن كثير-رحمه الله-: (أي خذ بالقرآن المنزل على قلبك، فإنه هو الحق، وما يهدي إليه هو الحق المفضي إلي صراط الله المستقيم، الموصل إلي جنات النعيم، والخير الدائم المقيم) [٢].

وقال الحافظ ابن حجر-رحمه الله-: (لا تعملوا في أمور الدين بالرأي المجرد، الذي لا يستند إلي أصل من الدين، وهو كقول علي رضي الله عنه فيما خرجه أبو داود بسند حسن: "لو كان الدين بالرأي، لكان مسح أسفل الخفين أولى من أعلاه"[٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: (وأصل ضلال من ضل، هو بتقديم قياسه على النص المنزل من عند الله، واختياره الهوى على اتباع أمر الله) [٤].

---

(١) سورة الزخرف الآية (٤٣).

(٢) تفسير ابن كثير ١٢٨/٤.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٨٨/١٣-٢٨٩. والحديث أخرجه الإمام أبو داود (١٦٤) بسند حسن، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٥١/١٠.

وقال: (إذا تعارض الشرع والعقل وجب تقديم الشرع) [١].

قال ابن القيم-رحمه الله-: (وأصل كل فتنة تقديم الرأي على الشرع والهوى على العقل) [٢].

٦-البعد عن التعصب الأعمى للمذاهب والأشخاص والرجال، مهما كانت مكانتهم، دون الوقوف على الدليل، إن خالفت النصوص الشرعية، فكل يؤخذ من كلامه ويرد إلا النبي ﷺ والتحرر من الجمود الفكري والمذهبي.

قال الإمام أبو حنيفة: (ويحك يا يعقوب، لا تكتب كل ما تسمعه مني، فإني قد أرى الرأي اليوم، فأتركه غدا) [٣].

وقال الإمام مالك: (إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه) [٤].

وقال الشافعي: (إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله فقولوا بسنة رسول الله، ودعوا ما قلت) [٥]. وقال الإمام أحمد: (لا تقلد دينك أحدا من هؤلاء، ما جاء من النبي ﷺ وأصحابه فخذ، ثم التابعين بعد، الرجل فيه مخير) [٦].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية ١٣٨/١. تحقيق محمد رشاد سالم/ جامعة الإمام محمد بن سعود ط/ سنة ١٤٠١ هـ سنة ١٩٨١م.

(٢) إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان، لابن القيم صـ١٦٢.

(٣) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي ٢٤٦١.

(٤) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر ٣٢/٢.

(٥) مناقب الشافعي، للبيهقى ٤٧٢/١.

(٦) مسائل أحمد، لأبي داود السجستاني ١٧٩/٣.

وخلاصة منهج السلف الصالح أنه يقوم على دقة المتابعة لهدى النبي ﷺ في جميع الأحوال، وإخلاص النية، وتجديدها لله ﷻ في جميع الأقوال والأعمال قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾(١).

ولا شك أن منهج السلف في فهم الإسلام والعمل به يحقق الخير في الدنيا والآخرة، فهو يحقق المصلحة العاجلة والآجلة، ويحقق مصالح العباد في المعاش والمعاد، فالمنهج الإسلامي جاء لتحقيق المصالح، ودرء المفاسد في جميع العصور والأزمان.

❁❁❁

وخلاصة المنهج: الاقتصار في مصدر التبليغ على الوحيين، لأن العقيدة توقيفية، وفهم العقيدة في ضوء فهم الصحابة والسلف الصالح. والتسليم للنصوص، وعدم عرضها على العقول، سواء عرفت الحكمة أم لا، قال الزهري: (من الله الرسالة، وعلى الرسول التبليغ، وعلينا التسليم). والايمان بجميع ما جاء عن الله وعن رسوله. وعدم التفريق بين القرآن والسنة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ (٢). والجمع بين العلم والعمل، فالعمل قرين العلم. وعدم الاختلاف في المسائل الاعتقادية، وبدون تأويل أو تعطيل أو تشبيه أو تجسيم. وعدم التقعر والتشدد في السؤال عما لا يحتاجه الإنسان وليس العلم الشرعي. والالتزام بالشريعة الإسلامية ظاهرا وباطنا. ❁❁❁

(١) سورة الكهف الآية (١١٠).

(٢) سورة البقرة الآية (٢٠٨).

المطلب السابع: ثناء العلماء على منهج السلف.

هذا الإمام أبو حنيفة-رحمه الله- يقول: (ما جاءَ عن اللهِ تعالى فعلى الرأسِ والعينين، وما جاءَ عن رسولِ الله ﷺ فسمعا وطاعةً، وما جاءَ عن الصحابةِ رضي الله عنهم تخيرنا من أقوالهم، ولم نخرجْ عنهم، وما جاءَ عن التابعين فهُمْ رجالٌ ونحنُ رجالٌ) (١).

وقال الإمام الشافعي-رحمه الله- في رسالته عن فضل السلف: (هم فوقنا في كل علم وعقل ودين وفضل، وكل سبب ينال به علم، أو يدرك هدى، ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا) (٢).

وروى ابن الجوزي عن الأوزاعي-رحمة الله عليهما-: أنه قال: (اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح، فإنه يسعك ما وسعهم) (٣).

وقال الجنيد-رحمه الله-: (الطرق كلها مسدودة إلا المقتفين آثار رسول الله ﷺ والمتبعين سنته وطريقته، فإن طريق الخيرات كلها مفتوحة عليه، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾(٤).

---

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي ٦/ ٤٠١. تحقيق شعيب الأرنؤط/ مؤسسة الرسالة بيروت، ط/ الثانية ١٤٠٢هـ -١٩٨٢م.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٥٧/٤.

(٣) تلبيس إبليس، لابن الجوزي، صـ٨-٩ ط، دار الكتب العلمية بيروت، ط، الثانية ١٣٦٨هـ.

(٤) حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصفهاني، ٢٥٧/١٠. والآية من سورة الأحزاب (٢١).

وقال سفيان الثوري-رحمه الله-: (استوصوا بأهل السنة خيرا فإنهم غرباء) (١).

وقال أيضا: (إذا بلغك عن رجل من المشرق صاحب سنة، وآخر بالمغرب، فابعث إليهما السلام وادع لهما، ما أقل أهل السنة والجماعة) (٢).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: (ومَنْ آتاه اللهُ علما وإيمانا عَلِمَ أنّه لا يكون عند المتأخرين من التحقيق إلا ما هُو دونَ تحقيقِ السلفِ لا في العلم ولا في العمل) (٣).

وقال أيضا: (ومن المعلوم بالضرورة لمن تدبر الكتابَ والسنةَ وما اتفق عليه أهلُ السنةِ والجماعةِ من جميعِ الطوائف أنّ خيرَ قرونِ هذه الأمة في الأعمالِ والأقوالِ والاعتقادِ وغيرِها من كل فضيلةٍ أنّ خيرها القرنُ الأولُ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم كما ثَبَتَ ذلكَ عن النبي ﷺ من غيرِ وجهٍ، وأنهم أفضلُ من الخَلَفِ في كل فضيلةٍ من علمٍ وعملٍ وإيمانٍ وعقلٍ ودينٍ وبيانٍ وعبادةٍ وأنهم أولى بالبيانِ لكل مُشْكلٍ، هذا لا يدفعُه إلاّ من كابرَ المعلوم بالضرورة من دين الإسلام، وأضله الله على علمٍ، كما قال عبد الله بن مسعود ﷺ: "مَنْ كانَ منكم مستنا فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئكَ أصحابُ محمد؛ أبرّ هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم". وقال غيره: عليكم بآثارِ مَنْ سَلَفَ فإنهم جاءوا بما يكفي

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي، تحقيق د، أحمد سعد علوان ٦٤/١ ط، دار طيبة بالرياض الثانية هـ.

(٢) المصدر السابق ٦٤/١.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٤٣٦/٧.

وما يشفي ولم يحدث بعدهم خير كامن لم يعلموه) [١]. وقال أيضا: (مذهب السلف لا يكون إلا حقا) [٢].

وورد عن ابن القيم-رحمه الله- وهو يمدح الأجيال الأولى من الصحابة ومن تبعهم، فيقول: (وقالوا: هذا عهد نبينا إلينا، وقد عهدنا إليكم، وهذه وصية ربنا وفرضه علينا، وهى وصيته وفرضه عليكم، فجرى التابعون لهم بإحسان على منهاجهم القويم، واقتفوا على آثارهم صراطهم المستقيم، ثم سلك تابعو التابعين هذا المسلك الرشيد) [٣].

وقد عَقَد ابنُ القيم-رحمه الله- في كتابه "إعلام الموقعين" فصلا لبيان فضل علم السلف قال في أوله: (فصل في جواز الفتوى بالآثار السلفية والفتاوى الصحابية وإنها أولى بالأخذ بها من آراء المتأخرين وفتاويهم، وأن قربها إلي الصواب بحسب قرب أهلها من عصر الرسول ﷺ وأن فتاوى الصحابة أولى أن يؤخذ بها من فتاوى التابعين وفتاوى التابعين أولى من فتاوى تابعي التابعين، وهلم جرا، وكلما كان العهد بالرسول ﷺ أقرب كان الصواب أغلب، وهذا حكم بحسب الجنس لا بحسب كل فرد من المسائل، كما إن عصر التابعين وإن كان أفضل من عصر تابعيهم، فإنما هو بحسب الجنس لا بحسب كل شخص شخص، ولكن المفضلين في العصر المتقدم أكثر

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٥٧/٤-١٥٨. وقول ابن مسعود أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ٩٧/٢.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٤٩/٤.

(٣) إعلام الموقعين، لابن القيم ٨/١. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد/ نشر دار الفكر بيروت، ط/ الثامنة سنة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧ م

من المفضلين في العصر المتأخر وهكذا الصواب في أقوالهم أكثر من الصواب في أقوال من بعدهم فإن التفاوت بين علوم المتقدمين والمتأخرين كالتفاوت الذي بينهم في الفضل والدين) [١].

وقال الشاطبيُّ -رحمه الله-: (فأعمالُ المتقدمين -في إصلاحِ دنياهم ودينهم- على خلافِ أعمالِ المتأخرين؛ وعلومُهم في التحقيقِ أقعدُ، فتحققُ الصحابةِ بعلوم الشريعة ليسَ كتحققِ التابعين؛ والتابعونَ ليسوا كتابعيهم؛ وهكذا إلي الآن، ومَنْ طالعَ سيرهَم وأقوالَهم وحكاياتِهم أبصرَ العَجبَ في هذا المعنى، وأما الخَبَرُ ففي الحديث "خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم"...والأخبارُ هنا كثيرةٌ، وهى تدلُ على نقصِ الدينِ والدنيا، وأعظمُ ذلكَ العلم، فهو إذا في نقصٍ بلا شك، فلذلك صارتْ كتب المتقدمين وكلامهم وسيرهم أنفع لمن أراد الأخذ بالاحتياط في العلم على أيّ نوعٍ كان، وخصوصا علم الشريعة، الذي هو العروةُ الوثقى، والوزَر الأحمى) [٢].

فلا شك أن الأمة الإسلامية لها سلف سبقوا وتقدموا في صدر الإسلام، وكتب الله لهم الإيمان والهدى والرشاد، وجمعوا بين العلم النافع والتنفيذ الدقيق، والمتبع لهم لا يسعه إلا أن يسير على نهجهم، ويقتفي أثرهم، ليستحق أن يشمله وصفهم، فيكون امتدادا لهم. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [٣].

❁❁❁

(١) إعلام الموقعين، لابن القيم ٤/١١٨-١١٩.

(٢) الموافقات، للشاطبي ١/٩٧-٩٩.

(٣) سورة الحشر الآية (١٠).

المبحث الأول

القاعدة الأولى: مراعاة فقه الأولويات في الدعوة.

مقدمة

إن انضباط ميزان الأولويات، يجعل الإنسان يعيش في توازن وراحة، ويعطي القضية حقها من العناية والأهمية، على قدر ما أعطاها الشرع، ويحسم كثيرا من القضايا التي ينشأ عنها نزاع وخلاف، وتوضع الأمور في نصابها الطبيعي.

والذي يفتقد فقه الأولويات، لهو أشبه بمريض مصاب بالسرطان، اختلت النسب عنده، فتضخمت خلايا على حساب غيرها، فأقعدته عن الحركة بالكلية، وقد تكون سببا في نهايته، ألا فلينتبه المصابون قبل فوات الأوان.

فعندما تختل النسب في تقدير الأمور، وتضطرب الموازين في معرفة الأولويات، ينبغي على المسلم أن يعود سريعا إلي القرآن الكريم، والسنة النبوية، إذ هما المعيار الوحيد الصحيح، الذي يزن به الأمور، ويقيس عليه القضايا الملتبسة، ليسفر الأمر عن ضوء الفجر، فيظهر النور، ويشرق الصباح.

وحينما يغيب فقه الأولويات عن حياة الناس العملية، يقع خلل كبير في سلم الأولويات وميزانه، فينشغل الناس بالجزئيات عن الكليات، والفروع عن الأصول، والتحسينات عن الحاجيات أو الضروريات، ويقع الخلط بين المتغيرات والثوابت، ويفصل الناس بين العلم والعمل، وبين النظرية والتطبيق، ويضيع الناس كثيرا من الأوقات والجهود، في أمور لا يضر تأخير تطبيقها الآن.

فعلى المسلم أن يركز على العلم قبل العمل، ويقدم الكيف على الكم، وفرض العين على فرض الكفاية، والعمل المتعدي للغير على العمل القاصر على الذات، والأصول على الفروع، والمتفق عليه قبل المختلف فيه.

❁❁❁

المطلب الأول: تعريف فقه الأولويات لغة واصطلاحا.

فقه الأولويات: كلمة مركبة تركيب إضافي من كلمتين، فقه والأولويات، وكلمة فقه تعني: (حسن الفهم والإدراك والتفطن، والعلم بالشيء، وغلب على علم الدين والشريعة) (١).

وهو يعني: (العلم بالشيء والفهم له، والفطنة، والجمع فقهاء، يقال: فقه الأمر فقها، أحسن إدراكه) (٢).

ويعني: (فهم غرض المتكلم من كلامه) (٣).

والفقه أخص من العلم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (٤).

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (٥).

---

(١) القاموس المحيط للفيروز أبادي مادة فقه صـ١٢٥٠.

(٢) لسان العرب لابن منظور ٣٠٥/١٠ مادة فقه، دار إحياء التراث العربي ط/ الثالثة.

(٣) التعريفات للجرجاني صـ ١٧٠. والمعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية صـ ٦٩٨.

(٤) سورة الحشر الآية (١٣).

(٥) سورة التوبة الآية (١٢٢).

يقول ابن فارس-رحمه الله- كلمة فقه: (الفاء والقاف والهاء أصل واحد صحيح يدل على إدراك الشيء والعلم به، تقول فقه الحديث أفقهه، وكل من علم بشيء فهو فقه، وقيل لكل عالم بالحلال والحرام فقيه، وأفقهتك الشيء، إذا بينته لك) [١].

والفقه: (العلم بالشيء والفهم له، وغلب على علم الدين لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلم، والفقه في الأصل هو الفهم، يقال أوتى فلان فقها في الدين أي فهما فيه قال الله ﷻ: (ليتفقهوا في الدين) أي ليكونوا علماء به، ودعا النبي ﷺ لابن عباس: **"اللهم فقهه في الدين"**[٢].

أي فهمه تأويله، فاستجاب الله دعاءه، وكان من أعلم الناس في زمانه بكتاب الله -تعالى-)[٣].

والأولويات في اللغة تعني الأحق والأجدر يقال: (فلان أولى بهذا الأمر من فلان أي أحق به) [٤]. جاء في المعجم الوسيط: (الأولى: أفعل تفضيل بمعنى: الأحق والأجدر والأقرب) [٥].

وصيغ التفضيل تدل على أن شيئين اشتركا في معنى، وزاد أحدهما على الآخر، وهو الأفضل والأحسن، فاستحق التقديم، نظرًا لزيادة الفضل والحسن. وقد جاءت هذه الكلمة في القرآن الكريم إحدى عشرة مرة[٦]،

---

(١) معجم مقاييس اللغة أحمد بن فارس ٤٤٢/٢.

(٢) الحديث أخرجه الإمام البخاري (١٤٣) عن ابن عباس -رضي الله عنهما-.

(٣) لسان العرب لابن منظور ٥٢٢/١٣.

(٤) لسان العرب، مادة ولى.

(٥) المعجم الوسيط، مادة ولى.

(٦) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي صـ ٧٥٧.

منها ما جاء في سورة القيامة في قوله تَعَالَىٰ: ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ﴾[١].

ووردت في السنة النبوية في أحاديث كثيرة، منها حديث النبي ﷺ قال: **" أنا أَوْلى بالمؤمنينَ منْ أنفسهِمْ، فمَنْ تُوُفِّي من المؤمِنِينَ فتَرَكَ دينًا فعليَّ قضاؤُه، ومن ترك مالًا فَلِورَثتِه"**[٢].

وحديث النبي ﷺ قال: **"أنا أولى الناسِ بابنِ مريمَ، والأنبياءُ أولادُ عَلّاتٍ، ليس بيني وبينه نبيٌّ"**[٣].

وفقه الأولويات اصطلاحا يعني: (العلم بالأحكام الشرعية التي لها حق التقديم على غيرها، بناءً على العلم بمراتبها، وبالواقع الذي يتطلبها) [٤].

ويعرفه الدكتور القرضاوي فيقول: (وضع كل شيء في مرتبة بالعدل من الأحكام والقيم والأعمال، ثم يقدم الأولى فالأولى بناءً على معايير شرعية صحيحة، يهدي إليها نور الوحي، ونور العقل، نور على نور) [٥].

وقال في موضع آخر: (احترام مراتب الأعمال الشرعية، بتقديم الأهم منها على المهم، ووضع كل عمل منها في موضعه وإطاره الشرعي) [٦].

---

(١) سورة القيامة الآية (٣٤).

(٢) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٥٣٧١) عن أبى هريرة ﷺ.

(٣) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٣٤٤٢) عن أبى هريرة ﷺ.

(٤) فقه الأولويات د/ محمد السيد الوكيل صـ ١٦ المعهد العالي للفكر الإسلامي ط/الأولى سنة ١٩٩٧م

(٥) فقه الأولويات دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة د/ يوسف القرضاوي صـ ٩. مكتبة وهبه القاهرة ط/ الرابعة سنة ١٤٢٢هـ –٢٠٠٠م.

(٦) كيف نتعامل مع السنة، د/ يوسف القرضاوي صـ ٧٨.

ويفصل هذا التعريف فيقول: (وضع كل شيء في مرتبته، فلا يؤخر ما حقه التقديم، أو يقدم ما حقه التأخير، ولا يصغر الأمر الكبير، ولا يكبر الأمر الصغير) (١).

ومما سبق يتبين أن فقه الأولويات يعني: ووضع كل شيء في موضعه الطبيعي، حسبما وضعه ميزان الشرع، وهو مرتبط بفقه الترجيح والموازنات، وواقع الناس، وظروف حياتهم، ويعطي الداعية القضية من الأهمية مثل ما أعطاها القرآن الكريم والسنة النبوية، فإذا أجملا يجمل، وإذا فصلا يفصل، وإذا سكتا يسكت.

وفقه الأولويات بهذه التسمية يعد من المصطلحات الجديدة التي لم ترد في المعاجم اللغوية القديمة، ولا عند علماء الشريعة بهذه التسمية، وإنما استخدم بمعناه تحت مسميات أخرى، منها اسم أفعل التفضيل، الأولى، أو مراتب الأعمال، إلي غير ذلك من المصطلحات القديمة.

ومن الكلمات التي لها صلة وارتباط مباشرة بفقه الأولويات: فقه الموازنة، وفقه المقاصد، وفقه الواقع، وخلاف الأولى، الذي هو في مرتبة أقل من المكروه وفوق المباح، وكذلك له صلة بالتعارض والترجيح، حيث يدور مع الدليل الصحيح الذي يقدم الحكم الراجح.

❁❁❁

(١) أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة د/ يوسف القرضاوي صـ٣٤ مؤسسة الرسالة بيروت ط/ الثانية عشرة ١٤١١هـ. وفقه الأولويات للقرضاوي صـ١٧.

المطلب الثاني: أهمية فقه الأولويات.

من القواعد الهامة في ميدان العمل الدعوي، فقه الأولويات، لأنه يعالج كثيراً من المشكلات المعاصرة، التي تصعب على كثير من الناس، خاصة حينما تلتبس الأمور، وتضييع المعايير، وتضطرب الفتوى، ويحتاج الناس إلي ميزان حق وعدل، في ضبط الموازين والمقاييس، فيأتي فقه الأولويات ليقوم بهذا الدور الجليل.

ففقه الأولويات يقوم على أساس نظرة الشرع إلي تقييم الأعمال فهي لا تتساوى مع بعضها ومن ثم كانت الحكم الشرعي لأفعال العباد من الواجب والمحرم والمستحب والمكروه والمباح، وكذلك هناك الفرض والنفل، وهناك الفاضل والمفضول والراجح والمرجوح، وهناك المقبول والمردود والسنة والبدعة وهناك الضرورات والحاجات والتحسينات.

وهذه عدة نماذج تكشف أهمية هذا الفقه من خلال غياب فقه الأولويات، في ميدان العبادات عند بعض الناس، مما يجعلهم يقعون في المخالفات الشرعية، ومن ذلك ما يأتي:-

١- من يقوم الليل، وينام عن صلاة الفجر، أو يذهب متأخرا متعبا إلي عمله، فيقصر في حقوق العباد، فقد أقام سنة، وضيع فرضا أو واجبا.

٢- من يصوم الاثنين والخميس فيجهده الصيام عن أداء عمله الوظيفي، فيؤخر مصالح الناس متعللا بالصيام، فألزم نفسه بالنفل المستحب، وقصر في مصالح الناس التي يتقاضى عليها راتبا وهى من الواجبات.

٣- من يكرر الحج والعمرة لمرات عديدة، ويعتمر في رمضان من كل عام، يأتي من مكان بعيد، وينفق عشرات الآلاف وهذا كله أمر مستحب ندب إليه الشرع، ففي الحديث قال ﷺ: **"تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الذنوب كما تنفي النار خبث الحديد"**(١).

لكنه يمسك يده على الإنفاق في سد ثغور المسلمين، فهناك مسلمون في العالم يموتون جوعا، ويفتقدون أساسيات الحياة الإنسانية، وهم في أشد الحاجة للقليل من المال، يسد جوعتهم، أو يستر عورتهم، أو يدفع عنهم البرد الشديد في الشتاء، وهناك من المسلمين من يتعرضون للإبادة الجماعية، والتصفية الجسدية، وممارسة الضغوط من الجوع والمرض والجهل لتغيير الدين والملة.

فلو قدم نفقات حج النافلة والعمرة المكررة لهذه الأبواب، لكان ذلك أكثر في الأجر والثواب له، وأعظم فائدة لغيره.

❁❁❁

(١) الحديث أخرجه الإمام الترمذي (٨١٠) حديث حسن صحيح غريب، عن ابن مسعود ﷺ.

المطلب الثالث: فقه الأولويات في القرآن الكريم.

لقد وردت آيات عديدة في القرآن الكريم تبين تفاوت الدرجات في الأعمال، وتفضل عملا على آخر، وتقدم عملا معينا على غيره، وهذا له أمثلة كثيرة في القرآن الكريم، في عدة مواضع منها:

١ -قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾[١].

فالآية قاعدة قرآنية في فقه مراتب الأعمال، بأي عمل يشغل الإنسان نفسه؟ وأي القضايا يعطيها أولوية عن غيرها؟.

فالآية قدمت الأكثر مصلحة ومنفعة على الأقل، ففضلت الجهاد والرباط على التطوع بأعمال الخير والبر والصدقة، وفي الحديث: **"رباطُ يومٍ خيرٌ منْ صيامِ شهرٍ وقيامِهِ"**[٢].

لقد ظن بعض المشركين أن سقاية حجاج بيت الله الحرام، وعمارة بيته، مبعث الفخر والتفضيل على الإيمان بالله، والجهاد في سبيله، فنزلت الآية لتحسم القضية، وتفض النزاع، وتضع الحق في نصابه، فتبين أن هذا العمل الخفيف اليسير من حمل الماء لسقاية الحجيج، والجلوس في بيت الله الحرام لعمارته، لا يتساوى مع هذا العمل الشاق، وهو الجهاد في سبيل الله، الذي هو ذروة سنام الإسلام، ودرب العزة للأمة

---

(١) سورة التوبة الآية (١٩).

(٢) الحديث أخرجه الإمام السيوطي في الجامع الصغير (٤٣٩٦) عن عبد الله بن عمرو-رضي الله عنهما-.

المسلمة، فهما لا يستويان لا في العمل، ولا في الثواب عند الله، فماذا تنفع خدمة بيت الله الحرام إذا لم يكن القائم بذلك مؤمنا موحدا مجاهدا في سبيل الله ﷻ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: (وذلك لأن الرباط هو من جنس الجهاد، والمجاورة من جنس النسك، وجنس الجهاد في سبيل الله أفضل من جنس النسك، وذلك بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وإجماع المسلمين) (١).

ويقول الشيخ محمد الغزالي-رحمه الله-: (وكما راعت السنة أحوال المخاطبين قد تراعي الأحوال العامة للجماعة، فعند كلب الكفار وضراوتهم على بلادنا، يكون الجهاد أفضل من الحج، وعند اشتداد الأزمات وكثرة البائسين تكون الصدقة أفضل من الصلاة، وعندما يظهر قصور أمتنا في ميدان الاحتراف والتصنيع يكون الانشغال بالكيمياء والحديد، أحب إلي الله من حراثة الأرض، ورعاية الغنم) (٢).

٢- ومن الآيات التي تبين مراتب الأعمال وأنها لا تتساوى فيما بينها قوله تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ (٣).

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ٥٢/٢٧.

(٢) ليس من الإسلام، محمد الغزالي، صـ ٣٠.

(٣) سورة الزمر الآيتان (٨-٩).

وأولويات الأعمال قد تختلف من شخص إلي آخر، ومن زمان إلي آخر، ومن بيئة إلي أخرى، ومن حرفة إلي أخرى، ويراعى فيه أيضًا الظروف العارضة والطارئة، والفوارق الشخصية وطبيعة العمل من حيث الديمومة والانقطاع والقاصر والمتعدي.

وهكذا تأتي أغلب الآيات في مجال المقارنة، لتبين أيهما الأصوب فيتقدم، وأيهما الصواب فيتأخر، وأيهما الخطأ فينحى، فالقرآن الكريم دائما يرغب المسلم في الأفضل والأحسن في كل شيء، حتى يبذل المسلم أقصى ما في وسعه وجهده، لإخراج العمل في أحسن صورة وأفضل حال، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾[1].

٣- وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾[2].

فالإسلام فضل وقدم المؤمنة على المشركة، وقدم العبد المؤمن على المشرك، بسبب أفضلية الإيمان.

---

(١) سورة الزمر الآيتان (١٧-١٨).

(٢) سورة البقرة الآية (٢٢١).

٤- ومن نماذج القرآن الكريم في الأولويات، في قصة يوسف عليه السلام أولوية السجن على الوقوع في الحرام، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[1].

فقدم الخوف من الخالق بعدم الوقوع في الحرام، على الخوف من البشر- بدخول السجن مظلوما، وتهديد امرأة العزيز له، فوازن بين أمرين واختار أخف الضررين، فأعطى الأولوية للسجن على الوقوع في الحرام والفاحشة مع الحرية.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: (ليس العاقل الذي يعلم الخير من الشر، وإنما العاقل الذي يعلم خير الخيرين، وشر الشرين) [2].

فيوسف عليه السلام حينما دعا في السجن استخدم فقه الأولويات، فبدأ بالأهم وهو الدعوة إلي توحيد الله، وعدم الإشراك به، مركزا على أهم قضية تعني المدعوين، وهي التوحيد الخالص من الشرك، مستخدما أسلوب التدرج في الإقناع، ثم بعد ذلك فسر لهم أحلامهم الشخصية، ومن ثم نجح في دعوته لأنه راعى الأولوية في الموضوعات التي طرحها على رفقائه في السجن.

٥- ومن الأمثلة أيضا قصة السفينة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾[3].

قال العز بن عبد السلام-رحمه الله-: (إذا كانت السفينة ليتيم يخاف الوصي أن تغصب، وعلم الوصي أنه لو خرقها لزهد الغاصب في غصبها، فإنه يلزم خرقها حفظا

(١) سورة يوسف الآية (٣٣).
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ٥٤/٢٠.
(٣) سورة الكهف الآية (٧٩).

للأكثر بتفويت الأقل، فإن حفظ الكثير الخطير؟ بتفويت القليل الخطير، من أحسن التصرفات) (١).

٦- ومن الأمثلة قصة سحرة فرعون قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ ﴾ (٢).

فالسحرة أعطوا الأولوية للحياة الآخرة الباقية على الحياة الدنيوية الفانية، ودائما الباقي يقدم على الفاني، واختاروا الإيمان على الكفر والشرك.

والقرآن الكريم دائما كان يوجه الصحابة إلي الأهم، حيث سألوا عن الهلال وتغيراته، فوجههم القرآن الكريم إلي فوائد الهلال في حياتهم العملية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ (٣).

ولما سألوا عن عدد أهل الكهف نقلهم القرآن الكريم إلي الدروس والعبر المستفادة من القصة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ (٤).

❁❁❁

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام ٧٩/١.

(٢) سورة طه الآية (٧٢).

(٣) سورة البقرة الآية (١٨٩).

(٤) سورة الكهف الآية (٢٢).

المطلب الرابع: فقه الأولويات في السنة النبوية.

السنة النبوية ترغب المسلم في السعي إلي الأفضل قدر الوسع والاستطاعة، وفي الحديث: **"إن الدينَ يُسرٌ، ولن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبَه، فسدِّدوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوَةِ والرَّوْحةِ وشيءٍ من الدُّلْجَةِ"** (١).

والنبي ﷺ كان يوجه الصحابة إلي الأهم، ومن ذلك حينما سأله الصحابي عن متى الساعة؟ فوجهه النبي ﷺ بقوله: **"وماذا أَعْدَدْتَ لها؟"**. قال: لا شيء، إلا أني أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﷺ فقال: **"أنت مع مَن أَحْبَبْتَ"**. قال أنسٌ: فما فرِحْنا بشَيْءٍ فرَحَنا بقولِ النبي ﷺ: **"أنت مع مَن أَحْبَبْتَ"**. قال أنسٌ: فأنا أُحِبُّ النبي ﷺ وأبا بكرٍ وعُمَرَ، وأرْجو أنْ أكونَ معهُم بحُبِّي إياهُم، وإنْ لم أعْملْ بمثلِ أعْمالِهِم. (٢).

وردت عدة أحاديث في سنة النبي ﷺ توضح أفضل الأعمال، من خلال أسئلة وجهت إليه ﷺ فكان جوابه ﷺ يختار أحسن الإجابات وأفضلها وأصوبها، ومن ذلك ما يأتي:

١- سئل النبيﷺ أي الإسلام أفضل؟ قال: **"من سلم الناس من لسانه ويده، قيل: فأي الجهاد أفضل؟ قال: من عقر جواده وأهريق دمه، قيل: فأي الصلاة أفضل؟ قال طول القنوت"**(٣).

٢-وابن مسعود ﷺ يقول: سألتُ رسولَ الله ﷺ قُلْت: يا رسولَ اللهِ، أيُّ العملِ أفضَلُ؟ قال: **"الصلاةُ علَى ميقاتِها. قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: ثم بِرُّ الوالِدَينِ.**

---

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٣٩)عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٣٦٨٨) عن أنس بن مالك ﷺ.

(٣) الحديث ذكره الإمام الهيثمي في مجمع الزوائد ٦٥/١ عن أبي موسى الأشعري ﷺ.

قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ. فسكتُّ عن رسولِ اللهِ ﷺ ولوِ استَزَدتُهُ لزادَني"(١).

٣-وسئل النبي ﷺ عن أفضل الصيام، بعد رمضان؟ **" قال: شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة، صلاة الليل"**(٢).

٤-ومما يدل على أن الأعمال تتفاوت في ترتيبها وأولويتها وفضلها، حديث النبي ﷺ **"الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان"**(٣).

٥-وكذلك قول النبيﷺ **"سبق درهمٌ مائةَ ألفِ درهمٍ، فقال رجلٌ وكيف ذاك يا رسولَ الله؟ فالرَّجلُ له مالٌ كثيرٌ أخذ من عرَضِه مائةَ ألفِ درهمٍ تصدَّق بها، ورجلٌ ليس له إلَّا درهمان، فأخذ أحدَهما فتصدَّق به"**(٤).

٦-وسئل النبي ﷺ أي الإسلام خير قال: **"تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف"**(٥).

٧-وجاء رجلٌ إلي النبيِّ ﷺ فاستأذنهُ في الجهاد، فقال: **"أحَيٌّ والِداكَ"**. قال: نعم، قال: **"فَفِيهِما فَجاهِدْ"** (٦).

---

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٢٧٨٢) عن ابن مسعود ﷺ.

(٢) الحديث أخرجه الإمام مسلم (١١٦٣) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) الحديث أخرجه الإمام مسلم (٣٥) عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) الحديث ذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٦٦/٢ حديث صحيح أو حسن، عن أبي هريرة ﷺ.

(٥) الحديث أخرجه الإمام أبو داود (٥١٩٤) عن عبد الله بن عمرو ﷺ.

(٦) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٣٠٠٤)عن عبد الله بن عمرو ﷺ.

وجاء آخر فقال: **"جئت أبَايعك على الهجرة وتركت أبوي يبكيان فقال ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما"**(١).

وهاجر رجل إلي رسول الله ﷺ من اليمن فقال: **هل لك أحد باليمن؟ قال: أبواي. قال: أذنا لك؟ قال: لا. قال: ارجع إليهما فاستأذنهما فإن أذنا لك فجاهد وإلا فبرهما."** (٢).

وحديث: **"قلتُ: يا رسولَ الله من أبَرُّ؟ قالَ: أمَّكَ قالَ: قلتُ: ثمَّ مَن؟ قالَ: أمَّكَ قالَ: قلتُ: ثمَّ مَن؟ قالَ: أمَّكَ قالَ: قلتُ: ثمَّ مَن؟ قالَ: ثمّ أباكَ ثمّ الأقربَ فالأقربَ."** (٣). فيلاحظ أن النبي ﷺ قدم بر الوالدين على الجهاد في سبيل الله الذي هو فرض كفاية.

٨-وفي الحديث: **"فإنَّ أفضلَ الصلاةِ صلاةُ المَرْءِ في بيتِهِ إلَّا المكتوبةَ."** (٤).

فإخفاء التطوع أفضل، وإظهار الفريضة أحسن، وذلك لأن الفرائض لا يدخلها الرياء في الغالب الأعم.

ومثال ذلك قوله تعَالَى: ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴾(٥).

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أبو داود (٢٥٢٨)عن عبد الله بن عمرو ﷺ.

(٢) الحديث أخرجه الإمام أبو داود (٢٥٣٠) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) الحديث أخرجه الإمام الترمذي (١٨٩٧) حديث حسن عن معاوية بن حيدة القشيري ﷺ.

(٤) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٧٣١). عن زيد بن ثابت ﷺ.

(٥) سورة البقرة الآية (٢٧١).

يقول القرطبي-رحمه الله-: (إن ذلك يختلف باختلاف حال المتصدق والمتصدق عليه، فمن قويت حاله، وحسنت نيته وأمن على نفسه الرياء، فالإظهار له أولى، ومن ضعف عن هذه المرتبة، فالسر له أفضل، وأما المتصدق عليه فإن السر له أسلم من احتقار الناس له) (١).

٩-جاء رجلٌ إلي النبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله ! أيُّ الصدقةِ أعظمُ أجرًا؟ فقال: **" أما وأبيك لتنبأنَّه: أن تصَّدق وأنت صحيحٌ شحيحٌ. تخشى الفقرَ وتأملُ البقاءَ. ولا تُمهَل حتى إذا بلغتِ الحلقومَ قلتَ: لفلانٍ كذا. ولفلانٍ كذا. وقد كان لفلانٍ "**. وفي رواية: **أيُّ الصدقةِ أفضلُ. "** (٢).

فبذل المال وإنفاقه في حال الصحة والشباب وكثرة التبعات، أفضل وأكثر أجرا من إنفاقه في وقت المرض واقتراب الأجل والرحيل عن الدنيا، قال ابن حجر: (ولما كانت مجاهدة النفس على إخراج المال مع قيام مانع الشح دالا على صحة القصد، وقوة الرغبة في القربة، كان ذلك أفضل من غيره) (٣).

والأقرباء أولى من غيرهم في العطاء والإنفاق، كان أبو طلحةَ أكثرُ أنصاري بالمدينةِ مالًا مِن نَخْلٍ، وكان أحبُّ مالِه إليه بَيْرُحاءَ، وكانت مُسْتَقْبَلَ المسجدِ، وكان رسولُ الله ﷺ يَدْخُلُها ويَشْرَبُ مِن ماءٍ فيها طيِّبٌ.

---

(١) تفسير القرطبي ٣/٣٣٢-٣٣٣.

(٢) الحديث أخرجه الإمام مسلم (١٠٣٢) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٣/٢٨٥. تحقيق الشيخ بن باز، ط/ دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

قال أنسٌ: فلما نزلت (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) قام أبو طلحةَ فقال: يا رسولَ الله، إن اللهَ يقول: (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وإن أحبَّ مالي إليَّ بَيْرُحاءُ، وإنها صدقةٌ لله أرجو برَّها وذُخْرَها عندَ الله، فضَعْها يا رسولَ الله، حيث أراكَ اللهُ، فقال رسولُ الله ﷺ: **بَخٍ ! ذلك مالٌ رابحٌ، أو رايحٌ - شك عبدُ الله - وقد سَمِعْتُ ما قلتَ، وإني أرى أن تجعلَها في الأَقربين)** (١).

فالأقرباء بلا شك مقدمون على غيرهم في العطاء والهدية والصدقة، وذلك بسبب القرابة، وصلة الدم، فرغب النبي ﷺ في التصدق على الأقارب، لأن لهم الأولوية في العلاقة التي تربطهم بالمنفق والمتصدق.

١٠-ومن الأمثلة الاهتمام بالباطن قبل الظاهر ومن ذلك حديث النبي ﷺ: **"إنَّ اللهَّ لا ينظرُ إلي صورِكُم وأموالِكُم، ولَكِن ينظرُ إلي قلوبِكُم وأعمالِكُم."** (٢).

قدم الإسلام الاعتناء بإصلاح الباطن على الظاهر، والقلب على الجسد، لأن القلب هو المحرك للجوارح والقائم عليها، وهي تبع له، فإذا صلح صلح كل شيء، والعكس. (إن الوصول إلي القلب السليم هدف... ومن أوامر الله الأمر بالجهاد، وجعل كلمة الله هي العليا، فإن ترى صوفيا مشغولا بقضية القلب السليم طوال حياته، وهو ناس أوامر الله بإعلاء كلمته، وغافل عن واجبات الوقت الكثيرة، ويقيد ما هو فيه هو الكمال، مع تفريطه بكثير من الواجبات، مثل ذلك غلط كبير) (٣).

---

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٥٦١١) عن أنس بن مالك ﷺ.

(٢) الحديث أخرجه الإمام مسلم (٤٦٥١) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) تربيتنا الروحية، سعيد حوى، صـ ٧٨.

ينبغي الحرص على رعاية القلوب من الأمراض المهلكة، وتعاهدها وتحصينها من الفتن الظاهرة والباطنة حتى لا تجد منفذا للوصول إلي القلب فتفسده، إذ النجاة في القلب السليم وما فيه من إيمان ويقين قال تعالى: (يوم لا ينفع مال ولا بنون...) (١).

وهكذا تأتي أحاديث كثيرة في هذا الميدان لتبين أن النبي ﷺ كان يلفت أنظار الصحابة إلي أولويات أمور في العبادات والمعاملات، وتقديم الأفضل على غيره، كما أن الصحابة كانوا حريصين على ذلك، فكانوا يبتدرون النبي ﷺ بالسؤال في هذا المجال حرصا على اتباع معالي الأمور وأفضلها عند الله.

ونلاحظ فيما سبق أن إجابة النبي ﷺ قد اختلفت حول أسئلة واحدة، وهذا يعني مراعاة النبي ﷺ الأفضل بالنسبة للأشخاص، والأوقات، والظروف، وهذا سرُّ اختلاف الأجوبة رغم وحدة السؤال.

قال ابن حجر-رحمه الله-: (قال العلماء اختلاف الأجوبة في ذلك باختلاف الأحوال، واحتياج المخاطبين) (٢).

ويقول ابن تيمية-رحمه الله-: (فمن الأعمال ما يكون جنسه أفضل، ثم يكون تارة مرجوحا، أو منهيا عنه، وقد يكون شخص يصلح دينه على العمل المفضول دون الأفضل، فيكون أفضل في حقه، كما أن الحج في حق النساء أفضل من الجهاد، ومن الناس من تكون القراءة أنفع له من الصلاة، ومنهم من يكون الذكر أنفع له من القراءة، والشخص الواحد يكون تارة هذا أفضل له، وتارة هذا أفضل له، ومعرفة

(١) سورة الشعراء الآيتان (٨٨-٨٩).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧٩/١.

حال كل شخص، وبيان الأفضل له لا يكون ذكره في كتاب، بل لابدَّ من هداية يهدي الله بها عبده إلي ما هو أصلح، وما صدق الله عبدا إلا صنع له) (١).

وقال العز بن عبد السلام-رحمه الله-: (واعلم أن تقديم الأصلح فالأصلح مركوز في طبائع العباد، فلو خيرت الصبي الصغير بين اللذيذ والألذ، لاختار الألذ، ولو خُيِّر بين الحسن والأحسن، لاختار الأحسن، ولا يقدم الصالح على الأصلح، إلا جاهل بفضل الأصلح، أو شقي متجاهل لا ينظر إلي ما بين المرتبتين من تفاوت) (٢).

والتفضيل من القرآن الكريم والسنة النبوية لعمل ما، أحيانا يذكران العلة، وأحيانا يسكتان عنها، وفي كلتا الحالتين المطلوب الامتثال والاتباع، وكلها من أعمال العبادات، ومن الأمثلة التي لم تذكر فيها العلة، ما يأتي:

تفضل المسجد النبوي على باقي المساجد، **"صلاةٌ في مسجدي هذا، أفضلُ من ألفِ صلاةٍ فيما سواه من المساجدِ، إلَّا المسجدَ الحرامَ ؛ و صلاةٌ في المسجدِ الحرامِ أفضلُ من صلاةٍ في مسجدي هذا بمائةِ صلاةٍ"** (٣).

وتفضيل صيام التطوع في المحرم على غيره "سُئِلَ: أيُّ الصلاةِ أفضلُ بعد المكتوبةِ؟ وأيُّ الصيامِ أفضلُ بعد شهرِ رمضانَ؟ فقال **" أفضلُ الصلاةِ، بعد الصلاةِ المكتوبةِ، الصلاةُ في جوفِ الليلِ . وأفضلُ الصيامِ، بعد شهرِ رمضانَ، صيامُ شهرِ اللهِ المُحرَّمِ "**.(٤)

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ٢٢/٣٠٨-٣٠٩.

(٢) قواعد الأحكام للعز بن عبد السلام: ١/٧.

(٣) الحديث ذكره ابن عبد البر في التمهيد ٦/٢٥عبد الله بن الزبير ﷺ.

(٤) الحديث أخرجه الإمام مسلم (١١٦٣) عن أبي هريرة ﷺ.

وتفضيل العمرة في رمضان على غيرها قال ﷺ: **"فإذا جاء رمضانُ فاعتمِري، فـإنَّ عُمرةً فيه تعدِلُ حجَّةً"**.(١)

ومن التعليلات المنصوص عليها في القرآن الكريم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾(٢).

والعلة أن الكافر يدعو إلي النار.

وتعليل إصلاح ذات البين يقدم على نوافل العبادات؛ لأن فساد ذات البين هي الحالقة، وفي الحديث قوله ﷺ: **"ألا أُخبِرُكم بأفضلَ من درجةِ الصيامِ والصلاةِ والصدقةِ؟ قالوا: بلى. قال: صلاحُ ذاتِ البَيْنِ، فإنَّ فسادَ ذاتِ البَيْنِ هي الحالقةُ"**(٣).

وتقديمه عدم هدم الكعبة وتعديل بنائها على قواعد إبراهيم؛ لأن القوم كانوا حديث عهد بجاهلية. فامتنع النبي ﷺ عن نقض الكعبة وبنائها من جديد، لأن ذلك يعارض مفسدة أكبر، وهو امتناع قبول الكفار ذلك لأنهم حديثو عهد بالكفر.

وتفضيله عدم قتل المنافقين حتى لا يتحدث الناس أن محمدا كان يقتل أصحابه، يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: "غزونا مع رسول الله ﷺ وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا، وكان من المهاجرين رجل لعاب، فكسع أنصاريا، فغضب الأنصاري

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم (١٢٥٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) سورة البقرة الآية (٢٢١).
(٣) الحديث أخرجه الإمام الترمذي (٢٥٠٩) حديث صحيح عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

غضبا شديدا حتى تداعوا، وقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين.

فخرج النبي ﷺ فقال: **"ما بال دعوى أهل الجاهلية؟** ثم قال: ما شأنهم". فأخبر بكسعة المهاجري الأنصاري، قال: فقال النبي ﷺ: **"دعوها فإنها خبيثة"**.

وقال عبد الله بن أبي سلول: أقد تداعوا علينا، لئن رجعنا إلي المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فقال عمر: ألا نقتل يا رسول الله هذا الخبيث؟ لعبد الله، فقال النبي ﷺ: **"لا يتحدث الناس أنه كان يقتل أصحابه"**.(١).

وذلك لأن قتلهم ذريعة للنفور من الإسلام.

❁❁❁

المطلب الخامس: العلم قبل العمل.

أوجب الإسلام على كل مسلم أن يطلب العلم ويتعلمه، وجعله فريضة على المسلمين جميعا، كما جاء في الحديث النبوي قال ﷺ: **"طلب العلم فريضة على كل مسلم"**(٢).

وذلك حتى يعبد الله ﷻ على بصيرة وهداية ونور، فالعلم هو الأساس والعمل تابع له، فمن عمل بدون علم، كان ضرره أكبر من نفعه.

---

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٣٥١٨) عن جابر بن عبد الله ﷺ.

(٢) الحديث ذكره الإمام السيوطي في الجامع الصغير (٥٢٦٦) حديث صحيح عن أنس بن مالك ﷺ.

ولأهمية العلم في الإسلام طلب النبي ﷺ من ربه الزيادة منه في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾[١].

وطريق الدعوة يبدأ قبل كل شيء بطلب العلم، قال ابن حجر-رحمه الله-: (قوله: (وقل ربى زدني علما) واضح الدلالة في فضل العلم، لأن الله -تعالى- لم يأمر نبيه ﷺ بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم، والمراد بالعلم العلم الشرعي، الذي يفيد معرفة ما يجب على المكلف من أمر دينه في عبادته ومعاملاته، والعلم بالله ووصفاته، وما يجب له من القيام بأمره وتنزيهه عن النقائص، ومدار ذلك على التفسير والحديث والفقه) [٢].

ولن تجد في تراث أي أمة من الأمم على مستوى التاريخ، مثلما تجد في الإسلام من الترغيب في العلم، وتحصيله، والحث عليه، وبيان فوائده، وأهميته، وآثاره، وفي الحديث قال ﷺ: **"تعلموا العلم فإن تعلمه خشية، وطلبه عبادة، ومذكراته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله مقربة"**[٣].

ويقول ابن الجوزي-رحمه الله-: (فأقرب الخلق من الله العلماء، وليس العلم بمجرد صورته هو النافع، بل معناه، وإنما ينال معناه من تعلمه للعمل به) [٤].

فالعالم أفضل من العابد، والانشغال بطلب العلم يقدم على النوافل، عن أبي أمامة الباهلي قال: "ذكر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) سورة طه الآية (١١٤).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١/ ١٤١

(٣) الحديث ذكره ابن القيم في مدارج السالكين ١٣٤/٤ مرفوعا عن معاذ بن جبل ﷺ.

(٤) صيد الخاطر لابن الجوزي صـ١٥٧ ط/ دار الكتب العلمية.

"فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم"[١]. فالعلم يسبق العمل، والعلم إمام والعمل تابع له. قال ابن القيم-رحمه الله-: (أول مراتب جهاد النفس طلب العلم الشرعي)[٢]. وعنون البخاري -رحمه الله- في صحيحه بابا في كتاب العلم فقال: (باب العلم قبل القول والعمل). [٣].

ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾ ﴾[٤].

فأمر الله نبيه ﷺ بالعلم والتوحيد أولا، ثم ثنى بالاستغفار الذي هو عمل. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٞ ﴿٢٨﴾ ﴾[٥].

فالعلم الحقيقي هو الذي يورث صاحبه الخشية، ويدفعه إلي العمل والتطبيق، والعلم هو الذي يميز الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، ولقد أوتى الخوارج من قبل قلة العلم، ونقص الفهم، فخرجوا على المسلمين بسيوفهم، وكفروا الإمام علي، وأشاعوا الفوضى في ديار المسلمين بتكفيرهم، واستباحة دمائهم.

قال الحسن البصري-رحمه الله-: (العامل على غير علم، كالسالك على غير طريق) [٦].

---

(١) الحديث أخرجه الإمام الترمذي (٢٦٨٥) عن أبي أمامة الباهلي ﷺ.
(٢) زاد المعاد، لابن القيم ١٠/٣.
(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٥٩/١.
(٤) سورة محمد الآية (١٩).
(٥) سورة فاطر الآية (٢٨).
(٦) الاعتصام، للشاطبي ٦٨٢/١.

وقال عمر بن عبد العزيزﷺ: (من لم يعد كلامه من عمله، كثرت خطاياه، ومن عمل بغير علم، كان ما يفسد أكثر مما يصلح) [١].

وفي الحديث عن معاوية قال: سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ يقولُ: **"مَن يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ"**[٢].

لأن العبد إذا فقه وفهم، عمل وأحسن العمل وأتقنه، فجمع بين الحسنيين، حسن الفهم، وحسن العمل.

والقرآن الكريم فرق بين من يعلم ومن لا يعلم، وبين أنهما لا يستويان في الدنيا ولا في الآخرة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾[٣].

ووجه النبي ﷺ الصحابة والأمة إلي أفضل الأعمال في العلم والعمل، فقال: **"خيرُكم مَن تعلَّم القرآنَ وعلَّمه"**[٤].

وفي الحديث: **"من سلك طريقا يطلب فيه علما، سلك الله به طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة**

---

(١) الأثر ذكره ابن أبي شيبة في مصنفه ١٣/٤٧٠.

(٢) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٧١) عن معاوية بن أبى سفيان ﷺ.

(٣) سورة الزمر الآية (٩).

(٤) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٥٦٢٧) عن عثمان بن عفان ﷺ.

البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر"[١].

قال الإمام علي ﷺ: (العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف مثله).

فالانشغال بطلب العلم أولى من الانشغال بالتطوع من العبادات، وأن العالم مفضل على العابد، وأن العالم مقدم على الجاهل، والمسلم الطائع مقدم على المسلم العاصي أو الفاسق، بل إن الإسلام يقدم الأصلح على الصالح.

وتحصيل العلم تتحقق به مصالح الأمة، ولا شك أن العمل مبني على العلم، ولا يمكن التمييز بين الأحكام الشرعية والترجيح بين بعضها البعض إلا بالعلم النافع، وهو الذي يقدم بعضها على بعض، من حيث كونه فرض عين أو كفاية، أو كونه من الواجبات أو السنن المؤكدة، أو المستحبة.

قال عمر بن عبد العزيز ﷺ: (والعامل على غير علم يفسد أكثر مما يصلح، فاطلبوا العلم طلبا لا يضر بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبا لا يضر بالعلم، فإن قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم،

فخرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا) [٢].

يقول الشاطبي –رحمه الله– وهو يصف أصحاب العلم الراسخ وفضلهم: (الذين صار لهم العلم وصفا من الأوصاف الثابتة، بمثابة الأمور البديهية في المعقولات الأول

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أبو داود (٣٦٤١) عن أبي الدرداء ﷺ.

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١٦٤/١.

أو تقاربها، ولا ينظر إلي طريق حصولها، فإن ذلك لا يحتاج إليه، فهؤلاء لا يخليهم العلم وأهواءهم إذا تبين لهم الحق، بل يرجعون إليه رجوعهم إلي دواعيهم البشرية، وأوصافهم الخلقية، وهذه هي المرتبة المترجم لها، والدليل على صحتها من الشريعة كثيرة.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ فنسب هذه المحاسن إلي أولي العلم، من أجل العلم لا من أجل غيره) [1].

❁❁❁

المطلب السادس: أولوية الكيف على الكم.

العمل في الإسلام يقاس بإتقانه وإحسانه، لا بكميته وعدده، فإذا صلى المسلم ركعتين لا تسل عن حسنهن وجمالهن وطولهن، أفضل من أن يصلى عشر ركعات دون تؤدة وطمأنينة وخشوع، فالكيفية موضع نظر الله ﷻ من العبد.

قال تعالى عن بني إسرائيل وهو يبشرهم بهلاك العدو والاستخلاف في الأرض: ﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾[2].

(١) الموافقات، للشاطبى ١/٤١. والآية من سورة الزمر (٩).

(٢) سورة الأعراف الآية (١٢٩).

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ ﴾[١].

فمعيار السباق الأحسن، وليس الحسن، ويتعلم العبد ذلك من خالقه ﷻ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ﴾[٢].

وفي الحديث قال ﷺ: **"إنَّ اللهَ كتب الإحسانَ على كلِّ شيءٍ فإذا قتلتم فأحسِنُوا القِتْلَةَ. وإذا ذبحتم فأحسِنُوا الذبحَ. وليُحِدَّ أحدُكم شفرتَه. فليُرِحْ ذبيحتَه "**[٣].

وفي قصة طالوت وجالوت تميز الكيف على الكم، حيث إن الذين صبروا وتحملوا الابتلاء، وواصلوا الطريق حتى نهايته، إلي أن تنزل عليهم نصر الله، كانوا هم القلة المؤمنة، بينما الكثرة الكاثرة سقطوا في الاختيار، حينما تدافعوا على شرب الماء، دون أن يلتزموا بتعليمات القائد، وفى نهاية المطاف والقصة هزمت القلة المؤمنة الصادقة الصابرة، الكثرة الكافرة.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٢٤٩ ﴾[٤].

---

(١) سورة الكهف الآية (٧).

(٢) سورة السجدة الآية (٧).

(٣) الحديث أخرجه الإمام مسلم (١٩٥٥) عن شداد بن أوس ﷺ.

(٤) سورة البقرة الآيات (٢٤٩).

وفى غزوة بدر تكرر المعنى نفسه، حيث انتصرت القلة المؤمنة الصابرة من الصحابة الكرام، على مشركي قريش، وكانت كثرة كاثرة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[1].

وحتى تبقى هذه الفئة المؤمنة متعلقة قلوبها بالله ﷻ نسب الله النصر إلي صانعه الحقيقي وهو ذاته ﷻ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[2].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾[3].

فالإسلام يعتنى بنوعية الأفراد من حيث الإعداد والإيمان، والثبات والتضحية، ولا يعتنى بكثرة كاثرة تفقد هذه الخصائص والصفات، فالنوعية الأولى تواجه عشرة أضعافها في الميدان، ولديها القدرة على الثبات والتضحية حتى النصر المبين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ

(١) سورة الأنفال الآية (٢٦).
(٢) سورة العمران الآية (١٢٣).
(٣) سورة الأنفال الآية (١٧).

ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾[1].

ولقد حذر النبي ﷺ الأمة من الكثرة الضعيفة الواهية، خاصة في آخر الزمان، حينما تتعلق قلوب المسلمين بحب الدنيا وكراهية الموت، فيقذف الله في قلوبهم الوهن والضعف. ماذا يستفيد العالم من أمة لا تقوم بواجبها ورسالتها، وتعلقت بجواذب الأرض ومغريات الحياة.

فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال ﷺ: **"يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها! قال قلنا يا رسول الله أمن قلة بنا يومئذ؟ قال أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل، ينتزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن، قال قلنا وما الوهن؟ قال حب الحياة وكراهية الموت"** [2].

فالقرآن الكريم، والسنة النبوية، والسيرة المطهرة، دائما يركزون على الكيفية والنوعية، وليست الكمية العددية، والأمثلة كثيرة لمن أرادا التوسع والاستطراد.

❁❁❁

المطلب السابع: أولوية فرض العين على فرض الكفاية.

فرض العين ما يتعين على كل إنسان أن يقوم به، مثل بر الوالدين، وفرض الكفاية، إذا قام به البعض سقط الإثم والحرج عن الباقين، مثل جهاد الطلب، لا جهاد الدفع.

---

(١) سورة الأنفال الآيتان (٦٥-٦٦).

(٢) الحديث أخرجه الإمام أبو داود (٤٢٩٧) عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ (رضي الله عنه).

فجهاد الطلب هو مباغته العدو في أرضه، عند خوف الغدر أو الهجوم عليه، كأنها حرب وقائية، أو استباقية، أما جهاد الدفع، بأن يدخل العدو بلاد المسلمين، فيجب الجهاد على جميع من في البلد، فإذا لم يستطيعوا دفعة، وجب على أهل البلاد المجاورة من المسلمين.

فمن له أبوان كبيران أو أحدهما، فالقيام على حقوقهما واجب، يقدم على جهاد الطلب، الذي هو فرض كفاية، وفي الحديث: **"أن رجلا جاء إلي النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد، فقال أحي والداك؟ قال نعم، قال ففيهما جهاد"**(١).

وإذا كان فرض العين مقدما على فرض الكفاية، فإن فروض الأعيان تتفاوت فيما بينها أيضا.

ولذا جاء الشرع يؤكد في كثير من أحكامه على تعظيم ما يتعلق بحقوق العباد.

ففرض العين، المتعلق بحق الله ﷻ وحده يمكن التسامح فيه، بخلاف فرض العين المتعلق بحقوق العباد.

فقد قال العلماء إن حقوق الله ﷻ مبنية على المسامحة، وحقوق العباد مبنية على المشاحة.

ولهذا إذا كان الحج مثلا واجبا، وأداء الدين واجبا، فإن أداء الدين مقدم، فلا يجوز لمسلم أن يقدم على الحج حتى يؤدي دينه. إلا إذا استأذن من صاحب الدين، أو كان الدين مؤجلا، وهو واثق من قدرته على الوفاء به.

---

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٣٠٠٤) عن عبد الله بن عمرو-رضي الله عنهما-.

ولأهمية حقوق العباد هنا وبخاصة الحقوق المالية صح الحديث أن الشهادة في سبيل الله وهي أرقى ما يطلبه المسلم للتقرب إلي ربه لا تسقط عنه الدين. ففي الصحيح: **" يُغفَرُ للشهيدِ كلَّ ذنبٍ، إلا الدَّيْنَ "**(١).

وفي الحديث عن أبي قتادة: أنه قام فيهم ﷺ فذكر لهم: أنَّ الجهادَ في سبيلِ الله والإيمانَ بالله أفضلُ الأعمالِ، فقام رجلٌ فقال: يا رسولَ الله أرأيتَ إن قُتلتُ في سبيلِ الله تكفَّرُ عني خطاياي؟ فقال له رسولُ اللهﷺ نعم. إن قُتِلْتَ في سبيلِ الله، وأنت صابرٌ مُحتسبٌ، مُقبلٌ غيرُ مُدبرٍ، ثم قال رسولُ الله ﷺ كيف قلتَ؟ قال: أرأيتَ إن قُتلتُ في سبيلِ الله أَتكفَّرُ عني خطاياىَ؟ فقال رسولُ الله ﷺ نعم. وأنت صابرٌ مُحتسبٌ، مُقبلٌ غيرُ مُدبرٍ. إلا الدَّينَ. فإنَّ جبريلَ عليه السلام قال لي ذلك.(٢).

وكان رسولُ الله ﷺ قاعدًا حيث تُوضعُ الجنائزُ فرفع رأسَه قِبلَ السَّماءِ ثمَّ خفض بصرَه فوضع يدَه على جبهتِه فقال: "سبحانَ الله! سبحانَ الله! ما أنزل من التَّشديدِ؟ قال فعرفنا وسكتنا، حتَّى إذا كان الغدُ سألتُ رسولَ الله ﷺ فقلنا ما التَّشديدُ الَّذي نزل؟ قال في الدَّيْنِ، والَّذي نفسي بيدِه لو قُتِل رجلٌ في سبيلِ الله، ثمَّ عاش، ثمَّ قُتِل، ثمَّ عاش، ثمَّ قُتِل وعليه دَيْنٌ، ما دخل الجنَّةَ حتَّى يُقضَى دَيْنُه"(٣).

❁❁❁

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم (١٨٨٦) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٢) الحديث أخرجه الإمام مسلم (١٨٨٥) عن أبي قتادة رضي الله عنه.

(٣) الحديث ذكره الإمام المنذري في الترغيب والترهيب ٤٦/٣ إسناده صحيح أو حسن عن محمد بن عبد الله بن جحش رضي الله عنه.

المطلب الثامن: أولوية الأصول على الفروع.

الإسلام عقيدة وشريعة، والعقيدة هي الأصل، والشريعة تابعة لها، ومن أصول العقيدة، الإيمان بالله وتوحيده، وتنزيهه عن كل نقص، وأركان الإيمان الستة، وأركان الإسلام الخمسة.

ففي ميدان الدعوة العملية مع غير المسلمين، يبدأ معهم بالعقيدة الإسلامية النقية الصافية، فإذا قبلوها، جاء دور التشريع للأركان، والواجبات، والعمدة في ذلك حديث معاذ بن جبل ﷺ حينما بعثه النبي ﷺ إلى اليمن فقال: **"إنك تأتي قومًا أهل كتابٍ، فادعُهم إلى شهادةِ أن لا إله إلا اللهُ، وأني رسولُ اللهِ، فإن هم أطاعوك لذلك، فأَعْلِمْهم أنَّ اللهَ افترض عليهم خمسَ صلواتٍ في كلِّ يومٍ وليلةٍ، فإن هم أطاعوك لذلك، فأَعْلِمْهم أنَّ اللهَ افترض عليهم صدقةً في أموالهم، تُؤخذُ من أغنيائِهم وتردُّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائم أموالِهم، واتَّقِ دعوةَ المظلومِ، فإنها ليس بينها وبين اللهِ حجابٌ"**(١).

ويستفاد من ذلك عظم أهمية التوحيد، حيث إنه الغاية من بعثة الأنبياء والمرسلين، وأنه أساس هذا الدين، وأن التوحيد هو أول أركان الإسلام، به يدخل الإنسان في الإسلام، وإذا وقع فيما يخالفه أو يناقضه يخرج من الإسلام.

فالإسلام بدأ بالعقيدة قبل الشريعة، وقدم الإيمان بالله على باقي الأركان، وقدم الصلاة على باقي العبادات الأخرى.

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أبو داود (١٥٨٤) عن ابن عباس-رضي الله عنهما-.

والحديث فيه أولويات الدعوة، وما ينبغي أن يقدم، وما ينبغي أن يؤخر، وفيه التدرج في الدعوة، فالرسول ﷺ بدأ بالأهم فالمهم، وهذا يوضح لنا أهمية فقه الأولويات والتدرج والواقع في ميدان الدعوة العملي. والعقيدة أولى بالتقديم من الشريعة، لأن بها بدأ الأنبياء والمرسلون فهي الأساس، فكذلك كل داعية يبدأ بها مع خاصته مع غير المسلمين.

قال الشيخ شلتوت–رحمه الله–: (العقيدة في الوضع الإسلامي هي الأصل الذي تنبني عليه الشريعة، والشريعة أثر تستتبعه العقيدة، ومن ثم، فلا وجود للشريعة في الإسلام إلا بوجود العقيدة، كما لا ازدهار للشريعة إلا في ظل العقيدة، ذلك أن الشريعة بدون العقيدة علة ليس لها أساس) (١).

❁❁❁

المطلب التاسع: أولوية المتفق عليه قبل المختلف فيه.

في ممارسة العمل الدعوى مع المسلمين وغيرهم، ينبغي التركيز على المتفق عليه عند العلماء أولا، وهو ما يسمى (ما علم من الدين بالضرورة) وكذا الأمور القطعية المجمع عليها، والتي ليست محل خلاف في الدلالة، وتأتي بعد ذلك الأمور الخلافية التي فيها أكثر من رأى، وقد يتعدد فيها الصواب، والترجيح بينها إنما مكانة بين العلماء، وطلبة العلم الشرعي، وليس بين عوام الناس في المساجد ومنتدياتهم.

وحينما جاء رجل إلي النبي ﷺ وطلب منه أن يعرض عليه الإسلام، فذكر له النبي ﷺ أركان الإسلام الخمسة، إلا أن يتطوع، وفي الحديث: **"أنَّ أعرابيًا جاءَ إلي رسولِ اللهِ**

(١) الإسلام عقيدة وشريعة، الشيخ محمود شلتوت صـ ١١ط/ مكتبة الشروق.

ﷺ ثائِرَ الرأسِ، فقالَ: يا رسولَ الله، أخبرني ماذَا فرَضَ اللهُ عليَّ من الصَّلاةِ، فقالَ: الصَّلَوَاتِ الخمْسَ إلا أنْ تَطَّوَّعَ شيئًا. فقالَ: أخبِرْني ما فَرَضَ اللهُ عليَّ من الصيامِ، فقالَ: شَهْرُ رمضانَ إلَّا أنْ تَطَّوَّعَ شيئًا. فقالَ: أخْبِرني بِمَا فَرَضَ اللهُ عليَّ من الزَّكَاةِ، فقالَ: فَأَخْبَرَهُ رسولُ اللهِ ﷺ شرائِعَ الإسلامِ، قالَ: والذي أكْرَمَكَ، لا أَتَطَوَّعُ شيئًا، ولا أَنْقُصُ ممَّا فَرَضَ اللهُ عليَّ شيئًا. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ:أَفْلَحَ إنْ صَدَقَ، أوْ: دخلَ الجنةَ إنْ صدقَ"(١).

فإذا تذوق حلاوة الإيمان، لم يقنع بالفرائض، وإنما سوف يزيد بالنوافل إلي أن يأتيها كلها، ويستكمل الصورة بمكارم الأخلاق.

والواجب أو الفرض يقدم على النفل بلا خلاف، وفي الحديث قول النبي ﷺ: **"إنَّ اللهَ ﷻ قال: "من عادَى لي وليًّا فقد آذنتُه بالحربِ، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترضتُ عليه، وما يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافلِ حتَّى أُحبَّه، فإذا أحببتُه: كنتُ سمعَه الَّذي يسمَعُ به، وبصرَه الَّذي يُبصِرُ به، ويدَه الَّتي يبطِشُ بها، ورِجلَه الَّتي يمشي بها، وإن سألني لأُعطينَّه، ولئن استعاذني لأُعيذنَّه، وما تردَّدتُ عن شيءٍ أنا فاعلُه تردُّدي عن نفسِ المؤمنِ، يكرهُ الموتَ وأنا أكرهُ مُساءتَه"**(٢).

وهناك علاقة قوية بين فقه الأولويات، وبين فقه التدرج، فهما يتفقان في نقاط كثيرة، يكمل بعضها بعضا، فإذا كنت تدعو غير مسلم إلي الإسلام، فينبغي مراعاة التدرج معه، وأن تتبع فقه الأولويات، وتحدثه عن الأصول العامة في الإسلام، من

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري (١٨٩١) عن طلحة بن عبيد الله ﷺ.

(٢) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٦٥٠٢) عن أبى هريرة ﷺ.

كلمة التوحيد، وأركان الإسلام والإيمان، فإذا ما قبل الإسلام، أتى بالنوافل تباعا بعد ذلك. ومن الخلل أن تعرض عليه الإسلام كله دفعة واحدة، بأركانه، وسنته، وآدابه، ومن الخلل أيضا سوق المسائل الخلافية إليه، وترجيح أحدها على الآخر، وإدخاله في هذا الخلاف الذي هو ليس في حاجة إليه الآن.

❁❁❁

المطلب العاشر: أولوية العمل المتعدي للغير، على العمل القاصر على الذات.

فمعيار التفاضل بين الأعمال عمومية نفعها، وعدم قصورها على صاحبها، أو على فرد واحد، فالعمل الأفضل ما كان أكثر نفعا للآخرين.

وفي الحديث قوله ﷺ: **"أنَّ رجلًا جاء إلي رسولِ الله ﷺ فقال يا رسولَ الله أيُّ النَّاسِ أحبُّ إلي الله؟ فقال أحبُّ النَّاسِ إلي الله أنفعُهم للنَّاسِ، وأحبُّ الأعمالِ إلي الله ﷻ سرورٌ تُدخِلُه على مسلمٍ، تكشِفُ عنه كُربةً، أو تقضي عنه ديْنًا، أو تطرُدُ عنه جوعًا، ولأن أمشيَ مع أخٍ في حاجةٍ أحبُّ إليَّ من أن أعتكِفَ في هذا المسجدِ يعني مسجدَ المدينةِ شهرًا، ومن كظم غيظَه ولو شاء أن يُمضيَه أمضاه، ملأ اللهُ قلبَه يومَ القيامةِ رضًى، ومن مشَى مع أخيه في حاجةٍ حتَّى يَقضيَها له، ثبَّت اللهُ قدمَيْه يومَ تزولُ الأقدامِ"**(١).

فعلى قدر نفعه للآخرين يكون أجره وثوابه وفضله، ومن ذلك نهى النبي ﷺ عن صيام المرأة تطوعا وزوجها حاضر إلا بإذنه، لأن الصوم نافلة بالنسبة لها، وأما قيامها بحقوق الزوج فأمر واجب، وفي الحديث قوله ﷺ: **"لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه"**(٢).

---

(١) الحديث ذكره الإمام المنذري في الترغيب والترهيب ٣٤٧/٣عن عبد الله بن عمرو ﷺ.

(٢) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٥١٩٥) عن أبى هريرة ﷺ.

فالعمل الذي يتعدى خيره للآخرين، يقدم على العمل الذي يقتصر خيره على الفرد نفسه، وهكذا...

وفي الحديث أيضا **"ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين الحالقة"**(١).

فالمصلحة العامة هنا التي يتعدى نفعها إلي الآخرين، تقدم على المصلحة الخاصة التي يقتصر نفعها على الفرد ذاته، حيث أن الفائدة أعم وأشمل وأكثر، وثوابها دائم لا ينقطع، ومستمر لا يتوقف.

ومن صور تقديم المصلحة العامة على الخاصة الإقامة بالمدينة المنورة، أو الخروج منها لنشر الدعوة والمرابطة في سبيل الله، فالخروج أفضل إذا عظمت الفائدة.

قال ابن حجر –رحمه الله– في الفتح فيما يتعلق بالإقامة في المدينة النبوية نقلا عن ابن المنير–رحمه الله–: (فقد خرج منها جمع كثير من الصحابة –رضوان الله عليهم– وسكنوا غيرها من البلاد، وكذا من بعدهم من الفضلاء، والمذموم من خرج عنها كراهية فيها، ورغبة عنها، وأما المشار إليهم فإنهم خرجوا لمقاصد صحيحة كنشر العلم، وفتح بلاد الشرك، والمرابطة في الثغور، وجهاد الأعداء، وهم مع ذلك على اعتقاد فضل المدينة، وفضل سكانها) (٢).

ومن صور تقديم المصلحة العامة على المصلحة الشخصية: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ

(١) الحديث أخرجه الإمام أبو داود (٤٩١٩) عن أبي الدرداء ﷺ.
(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني ١٢٢/١٥.

﴿ ۝٩ ﴾[١]. فالغلام قدم نفسه للهلاك والموت، بأن دل الملك على طريقة قتله، فختم حياته بالشهادة في سبيل دينه وعقيدته، فأحيا بموته أمة من الكفر والشرك والوثنية.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾[٢].

قال العز بن عبد السلام–رحمه الله–: (ولا شك أن منفعة الخمر من الاتجار بها، والانتفاع بثمنها، ومنفعة الميسر فيما يأخذه المقامر من المقمور، وإثمهما في إفساد العقل والإضرار بالصحة، وإحداث الشقاق بين الناس المؤدي إلي تفريق كلمة المسلمين، ولا شك أن هذه الآثام أكبر من ذلك النفع، فوجب درء مفسدة الإثم على طلب مصلحة النفع)[٣]. ومن أمثلة الأفضلية في إمامة الصلاة حديث النبي ﷺ الذي يقول: **"يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، وأقدمهم قراءة، فإن كانوا في القراءة سواء، فليؤمهم أقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء، فليؤمهم أكبرهم سنا، ولا يؤم الرجل في بيته ولا في سلطانه ولا يجلس على تكرمته إلا بإذنه"**[٤].قال السيوطي–رحمه الله–: (لو اجتمع في الإمامة الأفقه والأقرأ والأورع والأصح، قدم الأفقه عليها؛ لاحتياج الصلاة إلي مزيد الفقه لكثرة عوارضها)[٥]. ❁❁❁

---

(١) سورة البروج الآيتان (٨–٩).

(٢) سورة البقرة الآية (٢١٩).

(٣) قواعد الإحكام، للعز بن عبد السلام ٣٨/١.

(٤) الحديث أخرجه الإمام أبو داود (٥٨٢) عن عقبة بن عمرو بن ثعلبة ﷺ.

(٥) الأشباه والنظائر، صـ ٣٣٩.

المطلب الحادي عاشر: أولوية العمل الدائم على العمل المنقطع.

في الحديث أن عائشةَ ﵂ قالتْ: عن النبي ﷺ قال: **"يا أَيُّها الناسُ! عليكم من الأعمالِ ما تُطِيقُونَ، فإنَّ اللهَ لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا، وإنَّ أَحَبَّ الأعمال إلي اللهِ ما دُووِمَ عليه وإن قَلَّ"**(١).

وسئلت السيدة عائشة ﵂ أيُّ العملِ كان أحبَّ إلي النبيِّ ﷺ؟ قالتْ: **"الدائمُ، قال: قلتُ: فأيَّ حينٍ كان يقومُ؟ قالتْ: كان يقومُ إذا سمِع الصارِخَ"**(٢).

وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: **"سدِّدوا وقارِبوا، واعلموا أنَّه لن يُدخِلَ أحدُكم عملُه الجنَّةَ، وأنَّ أحبَّ الأعمالِ أدوَمُها إلي اللهِ وإن قلَّ"**(٣).

وتقول السيدة عائشة ﵂ **أن النبيَّ ﷺ دخَل عليها وعِندَها امرأةٌ، قال: مَن هذه. قالتْ: فُلانةُ، تذكُرُ من صلاتِها، قال: مَهْ، عليكم بما تُطيقونَ، فو اللهِ لا يَمَلُّ اللهُ حتى تَمَلُّو. وكان أحَبَّ الدِّينِ إليه ماداومَ عليهِ صاحِبُه.**(٤).

فالعمل الدائم القليل، أفضل من العمل المنقطع الكثير، لأن النفس بطبيعتها ملولة، فلا يجمع الإنسان عليها الكثرة والملل، والجمع بين القلة والاستمرار أفضل، وذلك هو هدي النبي ﷺ.

---

(١) الحديث ذكره الألباني في صحيح الجامع (٧٨٨٧) عن عائشة ﵂.

(٢) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٦٤٦١) عن عائشة ﵂.

(٣) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٦٤٦٤) عن عائشة ﵂.

(٤) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٤٣) عن عائشة ﵂.

يقول العز بن عبد السلام–رحمه الله-: (إنما التفاوت بين المطلوبات من طلب المصالح ودرء المفاسد، ولذلك انقسمت الطاعات إلي الفاضل والأفضل، لانقسام مصالحها إلي الكبير والأكبر، ولانقسام مفاسدها إلي الرذيل والأرذل) (١).

ففضل الإسلام العمل القليل المستمر، على الإفراط والتشدد والتعنت، الذي يردي صاحبه في منتصف الطريق، فلا يصل إلي غايته.

وعبادة النبي ﷺ في صلاته وصيامه كانت هكذا كما حكتها السيدة عائشة: أن النبيَّ ﷺ كان يَحْتَجِرُ حصيرًا بالليلِ فيُصَلِّي، ويَبْسُطُه بالنهارِ فيَجْلِسُ عليه، فجَعَلَ الناسُ يَثُوبون إلي النبيِّ ﷺ فيُصَلُّون بصلاتِه حتى كَثُرُوا، فأقبَلَ فقال: **يا أيُّها الناسُ، خُذوا مِن الأعمالِ ما تُطِيقُون، فإن اللهَ لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا، وإن أحبَ الأعمالِ إلي اللهِ ما دامَ وإن قلَّ.** (٢).

وفي الحديث أن عائشةَ ﷺ قالتْ: لم يكنِ النبيُّ ﷺ يصومُ شهرًا أكثرَ من شَعبانَ، فإنه كان يصومُ شعبانَ كلَّه، وكان يقولُ خُذوا من العملِ ما تُطيقون، فإن اللهَ لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا. وأُحِبُّ الصلاةَ إلي النبيِّ ﷺ ما دُووِمَ عليه وإن قَلَّتْ، وكان إذا صلَّى صلاةً داوَمَ عليها.(٣).

فالأعمال متفاوتة في الأجر والثواب، ومتفاوتة في الرتبة، فمنها الفاضل والمفضول ومنها الراجح والمرجوح، فينبغي على المسلم أن يراعي ذلك عند العمل والتطبيق، حتى لا تختل عنده النسب في تقدير الأمور.

❁❁❁

(١) قواعد الأحكام، للعز بن عبد السلام ١٩/١.

(٢) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٥٨٦١) عن عائشة ﷺ.

(٣) الحديث أخرجه الإمام البخاري (١٩٧٠) عن عائشة ﷺ.

المبحث الثاني

القاعدة الثانية: مراعاة فقه التدرج في الدعوة.

مقدمة

التدرج منهج رباني شرعه الله في كتابه، وسار عليه النبي ﷺ في تبليغ الدعوة، وهو يتوافق مع الفطرة الإنسانية، التي فطر الله الناس عليها.

والتدرج سنة إلهية في معظم الأشياء، بدءا من خلق الكون، مرورا بخلق الإنسان وأطواره، فهو سنة مطردة في شعائر الإسلام وعباداته ومعاملاته.

فحينما خلق الله الكون بسمائه وأرضه، وسهوله وجباله، وأفلاكه ومداره، وبحاره وأنهاره، والشمس والقمر، والنجوم والكواكب، وكل المخلوقات، خلق الله ذلك كله بالتدرج في ستة أيام، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾[1].

والتدرج سنة إلهية من الله في خلق الإنسان، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[2].

فخلق الإنسان مر بمراحل، ليتعلم التدرج في التطبيق، فمر آدم بمرحلة التراب والماء، فتحول إلي طين، ثم الحمأ المسنون، ثم الصلصال، ثم النفخة الإلهية من الله ﷻ

---

(١) سورة يونس الآية (٣).

(٢) سورة الحجر الآية (٢٨-٢٩).

فتحول إلي إنسان، وهو آدم عليه السلام قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾(١).

وأما ذرية آدم عليه السلام فمرت بمراحل، النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة، ثم العظام، ثم اللحم، ثم النشأة على الصورة السوية التي عليها الإنسان الآن، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾(٢).

فبالرغم من طلاقة القدرة الإلهية في الخلق والتكوين، وقدرته ﷻ على أن يقول للشيء كن فيكون، ومع ذلك يعلمنا التدرج والتأني في كل شيء، حتى يتعلم المخلوق الضعيف، من الخالق القوى ﷻ.

ومن بين قواعد الدعوة إلي الله ﷻ التدرج مع المدعوين، وتبليغهم الأحكام الشرعية، وهذا له أثر كبير في نجاح الدعوة وقبولها، حيث لا تأتي التكاليف الشرعية إلي المدعوين دفعة واحدة، فيصعب عليهم تطبيقها، خاصة في الصدر الأول من الإسلام، حيث كان الناس حديثي عهد بالجاهلية، فنشأوا على عقائد وعبادات، وتقاليد وعادات باطلة، وانعكست هذه الموروثات على سلوكهم، وتركت أثرا عميقا في نفوسهم، ومن ثم يصعب اقتلاع أمراض الجاهلية من نفوسهم إلا بالتدرج والتدريج، خاصة

(١) سورة آل عمران الآية (٥٩).

(٢) سورة المؤمنون الآية (١٢-١٤).

المعتقدات الباطلة، والعادات السيئة، والأخلاق المذمومة، التي ترسخت في النفوس والقلوب.

وإذا كان التدرج قاعدة هامة من قواعد الدعوة الإسلامية، فإنه مرتبط بفقه الأولويات، وهو يحتاج إلي فهم الواقع، وفهم الواجب في الواقع، أي فهم طبيعة المجتمع، وفهم فقه الأحكام التشريعية، والتدرج يراعى فيه قدرة المدعوين وظروفهم، قبل استخدام الوسيلة أو الأسلوب المناسب.

❁❁❁

المطلب الأول: تعريف التدرج في اللغة والاصطلاح.

التدرج في اللغة مأخوذ من مادة درج، بمعنى تحول وانتقل، جاء في المعجم الوسيط: (تدرج إليه: تقدم شيئا فشيئا، وتدرج فيه: تصعد درجة درجة، ودرج فلان إلي الشيء: أدناه منه قليلا قليلا، وعوده إليه، ويقال درج الصبي أخذ في الحركة، ومشي قليلا أول ما يمشي، وفي التنزيل العزيز: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1]. أي سنأخذهم قليلا قليلا ولا نباغتهم) [2].

وجاء في لسان العرب: (درجه إلي كذا واستدرجه بمعنى: أدناه منه على التدريج فتدرج هو، ودرج البناء، ودرجه بالتثقيل - أي تشديد الراء- مراتب بعضها فوق بعض، وتعني أيضا: التأني في تناول الشيء أو بلوغه، درجت العليل تدريجا: إذا أطعمته

(١) سورة القلم الآية (٤٤).

(٢) المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية بالقاهرة ٢٧٧/١ ط/ دار إحياء التراث الإسلامي.

شيئا قليلا، وذلك إذا نقله حتى يتدرج إلي غاية أكله، كما كان قبل العلة درجة درجة) [١].

ومما سبق يتبين أن التدرج يعني: الانتقال والتحول من شيء إلي شيء آخر، في مرتبة أعلى منه، وفيه معنى الترقي من الأخف إلي الأثقل حتى يعتاده.

ويعني أيضا: تحصيل المطلوب شيئا بعد شيء، فالإنسان لا يستطيع أن يصعد فوق السطح دفعة واحدة، وإنما يحتاج إلي درج السلم يصعده درجة درجة حتى يبلغ المطلوب.

وكذا تعلم اللغات، فإنه يصعب تعلمها دفعة واحدة، ولكن بالتدرج والوقت والتدريب والمران، يكتسب الإنسان لغة جديدة إلي لغته الأم التي يتكلم بها، ولم يكن له أن يحقق ذلك إلا بالتدرج، فالتدرج يبعث في النفس الهمة والعزيمة، على خلاف ما تبعثه المفاجأة من نفرة وصعوبة.

وفي الاصطلاح: (التقدم بالمدعو شيئا فشيئا، للبلوغ به إلي غاية ما طلب منه، وفق طرق مشروعة مخصوصة) [٢].

وهذا يعني نقل الفرد من مرحلة إلي مرحلة أخرى متقدمة، أي نقله من صعوبة التكيف مع التكاليف الشرعية، إلي أن يألفها ويعتاد عليها، وتكون موضع قبول ورضا وتسليم، وحتى يسهل على الناس اتباع أوامر الدين، واجتناب نواهيه.

---

(١) لسان العرب لابن منظور، مادة درج.

(٢) التدرج في دعوة النبي، إبراهيم بن عبد الله المطلق صـ١٧ وزارة الشؤون الإسلامية ط/ الأولى ١٤١٧هـ.

وعكس التدرج الاستعجال، وهو كما قال د/ سيد نوح–رحمه الله–: (إرادة تغيير الواقع الذي يحياه المسلمون في لمحة، أو في أقل من طرفة عين، دون نظر العواقب، ودون فهم للظروف والملابسات المحيطة بهذا الواقع، ودون إعداد جيد للمقدمات أو الأساليب والوسائل، بحيث يغمض الناس عيونهم ثم يفتحونها، أو ينامون ليلة ثم يستيقظون، فإذا بهم يرون كل شيء عاد إلي وضعه الطبيعي في حياتهم) (١).

❁❁❁

المطلب الثاني: أقسام التدرج.

والتدرج نوعان: تدرج تشريعي، وتدرج تطبيقي.

فأما التشريعي: فهذا مرتبط بذات الحكم نفسه، وقد انتهى بكمال الدين، ووفاة النبي ﷺ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ (٢).

وأما التدرج التطبيقي: فهو تدرج قائم إلي يوم الدين، لأنه مرتبط بالمكلف بنفسه، وهو من خصائص الشريعة الإسلامية، طبقه الرسول ﷺ والصحابة والتابعون، والأمة الإسلامية في حاجة إلي فهمه وتطبيقه في حياتنا المعاصرة، للنهوض بالدعوة في إصلاح المجتمعات البشرية.

والتدرج التطبيقي لا يعني أن يؤخذ بعض الأحكام ويترك الأخرى، وإنما يعني الإيمان بالإسلام كله إجمالا وتفصيلا.

---

(١) آفات على الطريق، د. سيد نوح ٥٧/١ دار الوفاء ط/ الحادية عشر ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م.

(٢) سورة المائدة الآية (٣).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ ﴾[1].

ولكن إلي بلوغ هذا الكمال يراعى التدرج في التطبيق على قدر الوسع والطاقة، إلي أن يقوى العود، ويشتد الساعد، وفي الحديث قال ﷺ: **"ما أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عن شيء فاجتنبوه"**[2]. فترك الحرام واجب، وأما مباشرة الطاعات فعلى قدر الوسع والطاقة، وأحوال الناس وظروفهم.

وهناك نوعان من التدرج في التشريع أيضا، التدرج في الأحكام أي بتشريع حكم ثم حكم ثم حكم وهكذا، مثل الصلاة ثم القتال ثم الصوم ثم الزكاة وهكذا، وهناك تشريع داخل الحكم الواحد مثل الخمر، والربا، وكلا النوعين من التدرج قد وقعا في عصر النبي ﷺ.

❁❁❁

(١) سورة البقرة، الآية (٢٠٨).

(٢) الحديث أخرجه الإمام مسلم (١٣٣٧) عن أبي هريرة ﷺ.

المطلب الثالث: فوائد التدرج.

للتدرج حكم جليلة وفوائد عظيمة:

١-**تيسير الأحكام على المدعوين**: لا شك أن التربية تحتاج إلي وقت طويل، وجهد جهيد، وانفعال وتأثير، وهذا كله يحتاج إلي تدرج، والزمن جزء من العلاج، فبالتدريج يسهل التطبيق، حتى تتربى النفوس، وتتهذب الأخلاق. قال ابن القيم: (إن حكمة هذا التدرج التربية على قبول الأحكام، والإذعان لها، والانقياد لها شيئا فشيئا) (١).

والتدرج يسهل قيادة الناس وتوجيههم نحو قبول الحق، فهو يتوافق مع فطر الناس، وطبيعتهم التي خلقهم الله عليها، وهذه سنة معلومة ومشاهدة في الإنسان والكون والحياة.

يقول ابن حجر-رحمه الله-: (فحمل الناس على الحكم الشرعي دفعة واحدة دون تدرج، أمر فيه صعوبة ومشقة، خاصة إذا كانوا حديثي عهد بالإسلام، وربما يرفضوه بالجملة، حيث فيه من الثقل الشديد في قطع النفس عن مألوف العادات جملة واحدة، والإقلاع عنه، فالعادات ولو كانت مستهجنة لها سلطان على النفوس، والناس أسرى ما ألفوا ونشئوا عليه) (٢).

فالمدعو شخص يتأثر بالبيئة التي يعيش فيها، وظروفها الاجتماعية، والبيئة الخاصة والعامة، والنفس البشرية تحتاج إلي سياسة في التربية والإصلاح، وأفضل وسيلة في تحقيق ذلك كله إنما هو التدرج.

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم ٤٦٥/٣ ط/ دار الكتاب العربي بيروت سنة ١٤٢٢ هـ سنة ٢٠٠٤م.
(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٤٥٨/٤.

وفي الحديث أيضا: (إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة) (١).

قال النووي–رحمه الله–: (إلا غلبه أي الدين، وعجز ذلك المشاد عن مقاومة الدين لكثرة طرقه) (٢).

وقال ابن المنير–رحمه الله– في تعليقه على الحديث السابق: (في هذا الحديث علم من أعلام النبوة، فقد رأينا ورأى الناس قبلنا، أن كل متنطع في الدين ينقطع، وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة، فإنه من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدى إلي الملل، أو المبالغة في التطوع المفضي إلي ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته، كمن بات يصلى الليل كله ويغالب النوم، إلي أن غلبته عيناه في آخر الليل، فنام عن صلاة الصبح في الجماعة، أو إلي آخر الوقت المختار، أو إلي أن طلعت الشمس فخرج عن وقت الفريضة) (٣).

ويستفاد من الحديث أنه تعليم من النبي ﷺ للأمة بالتدرج في أمور الدين، من أجل تحمل التكاليف الشرعية، ولو حمل الإنسان نفسه على جميع التكاليف مرة واحدة وبلا تدرج، لجاءت النتيجة عكس الهدف المطلوب.

وجاء في فيض القدير للمناوي–رحمه الله–: (أراد بهذا الحديث أن لا يكلف نفسه في أعماله الدينية ما يخالف العادة، بل يكون بتلطف وتدريج، فلا ينتقل دفعة واحدة إلي

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٣٩) عن أبى هريرة ﷺ.

(٢) نزهة المتقين شرح رياض الصالحين، د مصطفى الخن ١٦٨/١. مؤسسة الرسالة بيروت ط/ الأولى سنة ١٣٩٧ – ١٩٧٧م.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ١٧/١.

الطرف الأقصى من التبدل، فإن للطبع نفورا، ولا يمكن نقله عن أخلاقه الرديئة إلا شيئا فشيئا، حتى تنفصم تلك الصفات المذمومة الراسخة فيه، ومن لم يراع التدرج، وتوغل دفعة واحدة ترقى إلي حالة تشق عليه، فتنعكس أموره، فيصير ما كان محبوبا عنده ممقوتا، وما كان مكروها عنده مشربا هنيئا لا ينفر منه، وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والذوق) (١).

٢- **تهيئة النفوس للاستجابة**: التدرج فيه مراعاة لحالة العرب، في العادات والتقاليد التي نشأوا فيها، وعاشوا عليها فترة طويلة من الزمن، وفطام النفوس يحتاج إلي هذا التدرج، لرفع الحرج والمشقة.

يقول الإمام السيوطي–رحمه الله–: (لقد سلك القرآن الكريم مسلك التدرج في نزوله، وفي معالجة الأمراض المستوطنة في المجتمع، لأمرين هما:

١- تأخير العلاج حتى يترسخ الإيمان في القلوب، وذلك ليكون عونا على التخلص من العادات السيئة المستحكمة في النفوس، وإزالة أثرها المتغلغل في القلوب.

٢- التهيئة للنفوس شيئا فشيئا مراعاة لأحوالهم، للإقلاع عن هذه العادات) (٢).

وعن عائشة ﵂ قالت: "جاءها عراقي فقال: أي الكفن خير؟ قالت: ويحك وما يضرك. قال: يا أم المؤمنين أريني مصحفك، قالت: لم؟ قال: لعلي أؤلف القرآن عليه، فإنه يقرأ غير مؤلف، قالت: وما يضرك أيه قرأت قبل، إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلي الإسلام، نزل الحلال

(١) فيض القدير للمناوي ٥٤٤/٢. دار المعرفة بيروت ط/ الثانية سنة ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م.

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي صـ ٩٩ مؤسسة الرسالة بيروت ط/ الأولى سنة ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدا، ولو نـزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدا، لقد نزل بمكـة عـلى محمـد ﷺ وإني لجاريـة ألعـب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾ وما نزلت سورة البقـرة والنسـاء إلا وأنا عنده، قال: فأخرجت له المصحف، فأملت عليه آي السورة"[1].

قال ابن حجر –رحمه الله– في الفتح: (أشارت إلي الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل، وأن أول ما نزل من القـرآن الـدعاء إلي التوحيـد، والتبشـير للمـؤمن والمطيـع بالجنـة، وللكافر العاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس إلي ذلك أنزلت الأحكـام، ولهـذا قالـت: (ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا لا ندعها) وذلك لما طبعـت عليـه النفـوس من النفرة من ترك المألوف) [2].

يقول أ/ محمد قطب–رحمه الله–: (القرآن الكريم بدأ بإزالة العـادات السـيئة التـي كانت سائدة في المجتمع والبيئة العربية، واتخذ لذلك وسيلتين القطع الحاسم الفاصـل، والتدرج البطيء، فكل عادة تتصل بأصول العقيدة، والارتباط المباشر بـالله ﷻ قطعهـا قطعا حاسما، كذلك العادات الخبيثة، مثل: وأد البنات، والكـذب، والغيبـة، والخمـر، واللمز، والكبر، والعنجهية، وغيرها، التي لا يمكن للشخصية السليمة المؤمنة المطمئنة بالله أن تتصف بها.

أما العادات الاجتماعية التي لا تقوم على مشاعر الفرد وحدها، وإنما ترتبط بأصول اجتماعية واقتصادية متشابكة، فقد لجأ فيها إلي التدرج البطـيء، مـع اسـتمرار الـوعظ

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٤٩٩٣) عن عائشة والآية من سورة القمر (٤٦).
(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٥١/٩.

والتوجيه، واستحياء القلوب، كتدرجه في تحريم الخمر والربا والميسر، لأنها كانت عملة سارية في المجتمع، لذلك شرع في علاجها إلي التدرج على مراحل ودرجات، أو أخرَّ تحريمها حتى اكتمل نمو المجتمع) (١).

التدرج في نزول القرآن الكريم: نزل القرآن من عند الله ﷻ على قلب النبي محمد ﷺ متدرجا حسب الوقائع والأحداث، في ثلاث وعشرين سنة، وذلك لمراعاة طبيعة المجتمع الذي نزل فيه، ومعالجة الأمراض التي تأصلت في أعماقه، وهو يحاول إخراجهم من ظلمات الشرك والوثنية، إلي نور التوحيد الخالص، وتفرد في ذلك باتباع سنة التدرج في النزول والتبليغ.

يقول الشيخ محمد الغزالي–رحمه الله–: (ونزول القرآن على هذه الوتيرة مقصود للشارع الحكيم، فإن الزمن جزء من علاج النفوس، وسياسة الأمم، وتقرير الأحكام، وانساق القرآن في أغراضه ومعانيه على طول المدة التي استغرقها تجمعه، يعتبر من وجوه إعجازه، فإن خواتيمه– مدة ربع قرن – جاءت مطابقة مساوقة لفواتحه، يصدق بعضها بعضا ويكمله، كأنما أرسلت في نفس واحدة) (٢).

ويقول صاحب الظلال–رحمه الله–: (جاء هذا القرآن مفرقا وفق الحاجات الواقعية لتلك الأمة، ووفق الملابسات التي صاحبت فترة التربية الأولى، والتربية تتم في الزمن الطويل، وبالتجربة العملية في الزمن الطويل، جاء ليكون منهجا عمليا

(١) منهج التربية الإسلامية، أ.محمد قطب، ٢٠١/١، ٢٠٢، ط/ دار الشروق القاهرة.
(٢) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي صـ ٢٩. دار الكتب الحديثة القاهرة، ط/ السابعة ١٩٧٦م.

يتحقق جزءا جزءا في مرحلة الإعداد، لا فقها نظريا، ولا فكرة تجريدية تعرض للقراءة والاستمتاع الذهني) (١).

لقد كان النبي ﷺ يهيئ نفوس الصحابة لقبول الحكم قبل أن يبلغه لهم، واستخدم في ذلك أساليب كثيرة، منها حسن استقبال الوفود والأفراد بالترحيب والمؤانسة، كما فعل مع وفد عبد القيس، ففي الحديث: " -إنَّ وفدَ عبدِ القيسِ أتَوُا النبيَّ ﷺ فقال: مَنِ الوفدُ أو مَنِ القومُ. قالوا: ربيعةُ، فقال: مرحبًا بالقومِ أو بالوفدِ، غيرَ خَزايا ولا نَدامى. قالوا: إنا نأتيك من شُقَّةٍ بعيدةٍ، وبينَنا وبينَك هذا الحيُّ من كفارِ مُضَرَ، ولا نستطيعُ أن نأتيَك إلا في شهرٍ حرامٍ، فمُرْنا بأمرٍ نُخبِرُ به مَن وراءَنا، نَدخلُ به الجنةَ، فأمرَهم بأربعٍ ونهاهم عن أربعٍ: أمرَهم بالإيمانِ باللهِ ﷻ وحدَه، قال: هل تدرونَ ما الإيمانُ باللهِ وحدَه. قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ، قال: شهادةُ أن لا إلهَ إلا اللهُ، وأن محمدًا رسولُ اللهِ، وإقامُ الصلاةِ، وإيتاءُ الزكاةِ، وصومُ رمضانَ، وتُعطوا الخمُسَ من المغنَمِ، ونهاهم عن الدُّبَّاءِ والحنتَمِ والمُزَفَّتِ. قال شعبةُ: ربما قال: النَّقيرِ. وربما قال: المُقَيَّرِ. قال: احفَظوه وأخبِروه مَن وراءَكم"(٢).

وأحيانا يقبل منهم ما يستطيعون في أول الأمر، وهو على ثقة بأنهم سوف يرتفعون إلي مستوى أعلى فيما بعد، كما فعل مع وفد ثقيف، "عن وهب قال: سألت جابرا عن

(١) في ظلال القرآن أ/ سيد قطب ٤/٢٢٥٤م. دار الشروق القاهرة، ط/ العاشرة ١٤٠٢هـ.

(٢) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٥٧) عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-.

شأن ثقيف إذ بًايعت قال اشترطت على النبي ﷺ أن لا صدقة عليها ولا جهاد، وأنه سمع النبي ﷺ بعد ذلك يقول: سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا"[١].

فإذا لم يقبل النبي ﷺ منهم هذا الشرط مؤقتا لم يقبلوا الإسلام، ونفروا منه، إذ الناس ليسوا على درجة واحدة، فمنهم من يحتاج إلي التدرج شيئا فشيئا حتى يقبل الحكم بسهولة ويسر، وينتقل به النبي ﷺ من مرحلة إلي مرحلة، إلي أن تطمئن القلوب، وتذعن النفوس.

وأما اشتراط ثقيف على الرسول ﷺ أن يقبلوا الإسلام بلا صدقة، ولا جهاد، وأن النبي ﷺ قال سيتصدقون ويجاهدون، فقد أسلمت ثقيف وتصدقت وجاهدت وأبلت بلاءً حسنا، يقول المغيرة بن شعبة: (لقد دخلوا في الإسلام، فلا أعلم قوما من العرب بني أب وقبيلة كانوا أصح إسلاما، ولا أبعد أن يوجد فيهم غش لله ولكتابه منهم) [٢].

وهذا بشر بن الخصاصية يقول: أتيت رسول الله ﷺ أبايعه، فاشترط علي أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، وتصلي الخمس، وتصوم رمضان، وتؤدي الزكاة، وتحج البيت، وتجاهد في سبيل الله، فقلت: يا رسول الله أما اثنتان فلا أطيقها، الزكاة، فو الله مالي إلا عشر ذود، هن رسل أهلي وحمولتهم، وأما الجهاد فيزعمون أنه من ولى الدبر فقد باء بغضب من الله، فأخاف إذا حضرني قتال خشعت نفسي، فكرهت

(١) الحديث أخرجه الإمام أبو داود (٣٠٢٥) عن جابر بن عبد الله-رضي الله عنهما-.
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣١٣/١، ٣١٤، ط/ دار صادر بيروت بدون تاريخ.

الموت، فقبض رسول الله ﷺ يده وحركها، وقال لا صدقة ولا جهاد، فبم تدخل الجنة؟ فبايعته عليهن كله"[١].

وأحيانا تأتيه الشكوى فيستمع إلي الطرف الآخر، فيقره على ما عنده من صواب، ثم يوجهه إلي تدارك التقصير بالتدرج.

فقد جاءتِ امرأةٌ إلي النَّبيِّ ﷺ ونحنُ عندَهُ فقالَت: يا رسولَ اللهَّ إنَّ زَوجي صفوانَ بنَ المعطَّلِ يضرِبُني إذا صلَّيتُ، ويُفطِّرُني إذا صُمتُ، ولا يصلِّي الفَجرَ حتَّى تطلُعَ الشَّمسُ، قالَ: وصَفوانُ عندَهُ فسألَهُ عمَّا قالَت فقالَ: يا رسولَ اللهَّ أمَّا قولُها يضربُني إذا صلَّيتُ فإنَّها تقرأُ بسورتينِ نَهَيتُها عنهُما وقلتُ: لو كانَت سورةٌ واحدةٌ لَكَفتِ النَّاسَ، وأمَّا قولُها: ويفطِّرُني فإنَّها تنطلقُ وتصومُ وأَنا رجلٌ شابٌّ فلا أصبرُ، فقالَ رسولُ اللهَّ ﷺ يومئذٍ: لا تصومُ المرأةُ إلَّا بإذنِ زوجِها، وأمَّا قولُها بأنِّي لا أُصلِّ حتَّى تطلعَ الشَّمسُ فإنَّا أَهْلُ بيتٍ قد عُرِفَ لَنا ذاكَ لا نَكادُ نصلي حتَّى تطلُعَ الشَّمسُ، قالَ: فإذا استيقظتَ فصلِّ)[٢].

فقد استولت العادة عليه، وربما لا يوجد من يوقظه فيستمر في النوم حتى توقظه الشمس، وأقره الرسول ﷺ على ذلك، حتى يستطيع أن يتغلب على تلك العادة فيما بعد، إذا تغيرت الأحوال، فلا علاج له إلا بالتدرج حتى تتحسن حالته.

❁❁❁

(١) الحديث ذكره الإمام الهيثمي في المجمع ٤٧/١ ورجاله موثوقون عن بشر بن الخصاصية ﷺ.
(٢) الحديث ذكره ابن حجر في فتح الباري ٣١٦/٣ وقال رجاله رجال الصحيح، وله متابعة جيدة عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

المطلب الرابع: التدرج في الدعوة.

التدرج في الدعوة سنة إلهية من الله ﷻ تتوافق مع الفطرة البشرية، وجاءت كثير من تعاليم الإسلام وفق هذه السنة، بقصد التيسير والتسهيل، والتدرج أيضا سنة نبوية، استخدمه النبي ﷺ أسلوبا في الدعوة، فكان يدعوهم إلي الأهم فالمهم، فبدأ بالتوحيد أولا، ثم جاءت العبادات، والمعاملات، والأخلاق، فالعقيدة هي الأساس، وباقي تعاليم الإسلام تباعا بعد ذلك.

ومن خطوات التدرج في الدعوة، البدء بالأقربين من العائلة وأولى الأرحام، والجيران، والأصدقاء.

كما أن الدعوة في تبليغها مرت بالتدرج، بدأت بالعشيرة والأقربين، ثم أهل مكة، ثم العرب خاصة، ثم الناس كافة، وقد ذكر هذه المراتب الإمام بن القيم في تبليغ الدعوة[1].

وأما مراحل الدعوة خلال حياة الرسول ﷺ فمرت بأربع مراحل:

المرحلة الأولى: الدعوة سرا واستمرت ثلاث سنوات.

المرحلة الثانية: الدعوة جهرا والكف عن القتال واستمرت إلي الهجرة.

المرحلة الثالثة: الدعوة جهرا مع قتال المبتدئين بالقتال، واستمرت إلي صلح الحديبية.

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية ٨٦/١. مؤسسة الرسالة بيروت ط/ الأولى سنة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦م.

المرحلة الرابعة: الدعوة جهرا مع قتال كل من يقف في سبيل سير الدعوة. (١).

ومن أمثلة التدرج في الدعوة، بيعة العقبة الأولى، والثانية، فالأولى تسمى بيعة النساء وليس فيها بيعة على الجهاد والنصرة، حيث كانت النفوس البشرية من أهل المدينة في أول الإسلام، ولم ترتفع معاني السمع والطاعة إلي أعلى مستوى، حتى تتهيأ للجهاد في سبيل الله، على خلاف بيعة العقبة الثانية، فكانت فيها البيعة على الجهاد والنصرة، وذلك بعدما فهموا طبيعة الدين، واستقرت نفوسهم في تطبيق تعاليم الإسلام، فجاءت الخطوة الثانية التي يتوقع منهم قبولها، فبايعوه على ما يمنعون منه أولادهم وزوجاتهم وأنفسهم.

وفي التطبيق العملي لحياة الرسول ما يدل على التدرج في السيرة النبوية، فقد مكث النبي ﷺ في مكة ثلاثة عشر عاما يدعو الناس إلي التوحيد، ويعالج قضايا العقيدة، من الإيمان بالله وتوحيده، والرسالة والرسول، واليوم الآخر وما فيه من بعث وثواب وعقاب، فإذا ما انتقل إلي المدينة، وكانت مرحلة إقامة الدولة، كان التشريع الذي ينظم حياة الناس، وكانت العبادات والأخلاق التي تهذب النفوس، وتسمو بالأرواح، وتعلي من قيمة الإنسان، وترفع من شأنه، وتحدد له رسالته في الكون والحياة.

يقول أ/ سيد قطب–رحمه الله–: (لقد أمره الله أن يبدأ بالقضية الأولى، والقضية الكبرى، والقضية الأساس في هذا الدين، قضية العقيدة، ممثلة في قاعدتها الرئيسية الألوهية وإفراد الله بالعبادة، لقد كان يخاطب بهذه العقيدة الإنسان، بما أنه إنسان، وفي

(١) الرحيق المختوم صفي الرحمن المباكفوري صـ ٨٤. دار الفكر بيروت ط/ الأولى سنة ١٤٢١هـ –٢٠٠٠م.

هذا المجال يستوي الإنسان العربي، وكل إنسان في ذلك الزمان، وفي كل زمان، إنها قضية الإنسان التي لا تتغير، لأنها قضية وجوده في هذا الكون، وقضية مصيره، قضية علاقته بهذا الكون، وبهؤلاء الأحياء، وقضية علاقته بخالق هذا الكون، وخالق هذه الأحياء، وهي قضية لا تتغير، لأنها قضية الوجود والإنسان) (١).

وحينما أرسل النبي ﷺ معاذا إلي اليمن، أعلمه حال المدعوين، حتى يتعامل مع كل منهم حسب ما يتناسب معه من أسلوب، فبدأ بالأهم فالمهم، وفي الحديث "أنَّ رسولَ الله ﷺ بعث معاذًا إلي اليمنِ، فقال إنك تأتي قومًا أهل كتابٍ، فادعُهم إلي شهادةِ أن لا إله إلا اللهُ، وأني رسولُ اللهِ، فإن هم أطاعوك لذلك، فأَعْلِمْهم أنَّ اللهَ افترض عليهم خمسَ صلواتٍ في كلِّ يومٍ وليلةٍ، فإن هم أطاعوك لذلك، فأَعْلِمْهم أنَّ اللهَ افترض عليهم صدقةً في أموالهم، تُؤخذُ من أغنيائِهم وتردُّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائمَ أموالِهم، واتَّقِ دعوةَ المظلومِ، فإنها ليس بينها وبين اللهِ حجابٌ"(٢).

وهذا الحديث يدل دلالة واضحة على أفضل صور التدرج في تبليغ الدعوة، قال ابن حجر -رحمه الله-: (الملاحظ أن النبي ﷺ بدأ بالأهم فالمهم، وذلك من التلطف في الخطاب، لأنه لو طالبهم بالجميع أول مرة لم يأمن النفرة) (٣).

(١) معالم في الطريق، أ.سيد قطب، صـ٢٤، دار الشروق القاهرة.
(٢) الحديث أخرجه الإمام أبو داود (١٥٨٤) عن عبد الله بن عباس-رضي الله عنهما-.
(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني ٤٥٨/٤.

فالعقيدة هي الأساس، وأما باقي الأركان والواجبات فهي تأتى تباعا لذلك، ولو خوطب الناس بالأحكام كلها دفعة واحدة، لكانت غاية في الصعوبة، ولما استطاعوا أن يقبلوها، أو يطيقوها، فاتخذ النبي ﷺ هذه الوسيلة، التدرج في التشريع وتبليغ الأحكام، حتى يهيئهم للقبول والتطبيق في سهولة ويسر.

قال ابن حجر في أهمية التدرج في تبليغ الدعوة: (كان النبي ﷺ أول ما يشترط بعد التوحيد إقامة الصلاة، لأنها رأس العبادات البدنية، ثم يعلم كل قوم ما حاجتهم إليه أمس)[1].

وهذا يبين أن التدرج سمة بارزة في تبليغ الدعوة الإسلامية، مما يحقق لها القبول والتسليم والرضا. فأول عمل يقوم به الداعية من أمور الدعوة، الدعوة إلي التوحيد الذي هو المقام الأول في الإسلام، وكذا ربط الأحكام الشرعية به.

ويأتي بعد ذلك الدعوة إلي أركان الإسلام والإيمان، ثم تحذير المدعو من الكبائر، والترغيب في الطاعات، مراعيا في ذلك كله الأدلة المفصلة في القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة.

فالداعية يبدأ في تبليغ دعوته بالأهم فالمهم، بالدعوة إلي التوحيد الخالص، الذي هو مفتاح الدخول في الإسلام، والعقيدة الإسلامية الصافية النقية، وإخلاص العبادة لله وحده، والبعد عن الشرك والوثنية، بجميع صورها وأشكالها، ومظاهرها، ثم القيام بالواجبات والفرائض التي هي أعظم الواجبات بعد التوحيد.

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧/٢.

والتوحيد الخالص هو الهدف الرئيسي الذي من أجله خلق الله الخلق، وأرسل من أجله الرسل، واصطفي من بعدهم الدعاة، لدلالة الناس على عبادة الله وحده، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[١].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾[٢]. وحكى القرآن الكريم عن جميع الأنبياء أن كل واحد منهم قال لقومه: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴿٥٩﴾ ﴾[٣].

قال الإمام ابن تيمية –رحمه الله–: (ولهذا كان رأس الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، وهي متضمنة عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، وهو الإسلام العام الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين دينا سواه)[٤].

والأنبياء بذلك يردونهم إلي الفطرة، وأساس الخلقة، وهي التوحيد، وأما الانحراف فأمر عارض وطارئ عنه، وفي الحديث القدسي قولُ اللهُ ﷻ: **"إنِّي خلَقتُ عبادي حُنفاءَ، فاجتالَتْهمُ الشَّياطينُ، وحرَّمَتْ عليهِم ما أحلَلتُ لَهُم، وأمرَتْهُم أن يُشرِكوا بي ما لم أُنزِّل به سُلطانًا"**[٥].

(١) سورة النحل الآية (٣٦).
(٢) سورة الأنبياء الآية (٢٥).
(٣) سورة الأعراف الآية (٥٩).
(٤) الفتاوى لابن تيمية ١٥/١٠.
(٥) الحديث أخرجه الإمام مسلم (٢٨٦٥) عن عياض بن حمار ﷺ.

ويقول ابن حجر–رحمه الله– أيضا مبينا العلة في تبصير النبي ﷺ لمعاذ بحال المدعوين وأنهم أهل كتاب: (هي كالتوطئة للوصية، لتستجمع همته عليها، لكون أهل الكتاب أهل علم في الجملة، فلا تكون العناية في مخاطبتهم، كمخاطبة الجهال من عبدة الأوثان) (١).

يقول أ/ عبد الحميد البلالي: (وهذا يفسر عن حقيقة مهمة، وهي معرفة ظروف كل مدعو على حدة، ليتم تحديد نقطة البدء التي تناسبه، والتي تختلف من مدعو لآخر، من هذه القاعدة يكون مجانبا لفقه الدعوة إلي الله من ينكر على شخص يأكل بشماله، وهو يعلم أنه تارك للصلاة، ويكون مجانبا لفقه الدعوة من ينكر على أحدهم إسبال الإزار، وهو يعلم أنه منغمس حتى النخاع في التشبه بغير المسلمين) (٢).

فبدأ النبي ﷺ بالأساس الذي يبنى عليه غيره، فإذا كان صحيحا وسليما وقويا ومتينا، تحمل ما جاء بعده وبني عليه، ومن ثم بدأ النبي ﷺ بالأصل الأول في الإسلام وهو التوحيد.

❁❁❁

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٣/٣٥٨.

(٢) فقه الدعوة في إنكار المنكر، عبد الحميد البلالي، صـ٨٠، دار الدعوة بالكويت، ط/ الرابعة ١٤١١هـ – ١٩٩١م.

المطلب الخامس: التدرج في التشريع.

كثير من الأحكام الشرعية جاءت متدرجة على مراحل، ولم يأت الحكم الأخير فيها من أول مرة، وإنما أخذ أطوارا عديدة إلي أن وصل إلي مرحلته الأخيرة:

مثل الصلاة- والصيام- والقتال- وعقوبة الزنا- وتحريم الربا- وتحريم الخمر.

الصلاة: شرعت الصلاة في مكة، وكانت ركعتين في الغداة، وركعتين في العشي، ثم زيدت في الحضر، وبقيت في السفر.

تقول السيدة عائشة ﵂: **"فُرِضَتِ الصلاةُ ركعتينِ ركعتينِ، في الحضرِ والسفرِ، فأُقِرَّتْ صلاةُ السفرِ، وزِيدَ في صلاةِ الحضرِ"**(١).

فالعرب لم يعتادوا الصلاة، ومن ثم سوف تكون ثقيلة عليهم، فاحتاجت إلي التدرج حتى تألفها الطباع، وتقبلها النفوس والعقول، فلما تذوقوا حلاوتها، زيدت في الحضر، وبقيت في السفر على حالها، دفعا للمشقة، وتيسيرا على المكلفين.

الصيام: كان صيام عاشوراء واجبا في أول الإسلام، ثم نسخ بصيام رمضان، وأصبح عاشوراء سنة، ورمضان فرضا(٢).

الزكاة: كانت في أول التشريع غير محدودة بمقدار يخرجه الإنسان، وإنما مرتبطة بالقدر المستطاع، **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ **وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ ﴿٢١٩﴾** ﴾(٣).

---

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم (٦٨٥)عن عائشة ﵂.

(٢) انظر في ذلك فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني كتاب الصيام.

(٣) سورة البقرة الآية (٢١٩).

ثم جاء التشريع بعد ذلك بتحديد المقادير، وتحديد الأصناف، وقدر النصاب، وحجم الزكاة من كل صنف ونوع، وورد في السنة المطهرة زكاة المال، والذهب، والفضة، والزروع والثمار، وعروض التجارة، وغير ذلك مما جاءت تفاصيله في كتب الفقه.

ومن صور التدرج في التشريع، تعامل الإسلام مع الرق الذي كان سائدا في الجاهلية، ويصعب إلغاؤه من الحياة الاجتماعية والاقتصادية، فجاء التشريع الإلهي بتضييق روافده، وتوسيع مصارفه، وكان ذلك خطوة منه نحو منع الرق وإلغائه بصورة متدرجة، ولما جاءت القوانين الدولية لتمنع الرق والتجارة فيه، كانت المجتمعات الإسلامية أكثر استجابة، وأيسر تطبيقا لقلة الرق فيها عبر فترة طويلة من الزمن.

التدرج في القتال: مر الجهاد بعدة مراحل: الأولى: الدعوة إلي الإسلام دون قتال المشركين أورد الأذى. قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾[1].

حيث قلة العدد، وكانوا يعيشون وسط المشركين، وأما بعد الهجرة إلي المدينة فكثر عدد المسلمين من المهاجرين والأنصار.

(١) سورة النساء الآية (٧٧).

المرحلة الثانية: الإذن برد العدوان دون الابتداء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[1].

والدافع هنا لرد الظلم والعدوان، ووجود النصير والعتاد.

المرحلة الثالثة: قتال المشركين دون من يقاتلهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾[2].

فالآية تسمح لهم بصد العدوان، والدفاع عن أنفسهم دون اعتداء على الآخرين.

المرحلة الرابعة: الأمر بقتال المشركين كافة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴿٣٦﴾ ﴾[3]. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾[4].

وهذا هو الحكم الأخير، حيث شرع الإسلام الجهاد في وجه من يقف في طريق الإسلام، ويغلق أمامه الأبواب، حتى لا يصل إلي الناس جميعا، فأوجب قتال المعاندين الذين يمنعون الدعاة من البلاغ المبين.

ومن هنا يتبين أن الإسلام راعى أحوال الصحابة في التدرج في فرض الجهاد، بسبب ظروفهم وأحوالهم، حتى إذا ما رغبهم فيه، واشتاقت إليه نفوسهم، فرضه

---

(١) سورة الحج الآية (٣٩).
(٢) سورة البقرة الآية (١٩٠).
(٣) سورة التوبة الآية (٣٦).
(٤) سورة البقرة الآية (١٩٣).

عليهم، فكان موضع قبول ورضا، وتسليم وتنفيذ، وضربوا أروع الأمثلة في التضحية والرباط، والجهاد والشهادة.

التدرج في عقوبة الزنا: الزنا مر بمرحلة متدرجة أيضا، فأول ما نزل فيه قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥﴾[١].

ثم نزل قوله تَعَالَىٰ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾[٢].

والجلد هذا لغير المحصن، وأما المحصن المتزوج، فجاء في حديث ابن مسعود ﷺ قال: "قام فينا رسولُ الله ﷺ فقال: والذي لا إله غيرُه لا يحلُّ دمُ رجلٍ مسلمٍ يشهدُ أن لا إله إلا اللهُ، وأني رسولُ الله، إلا ثلاثةُ نفرٍ: التاركُ الإسلامِ، المُفارقُ للجماعةِ والثَّيِّبُ الزَّاني. والنفسُ بالنفسِ"[٣].

التدرج في تحريم الربا: وأما الربا فنزلت فيه عدة آيات، منها ما جاء في أول الأمر من الآيات المكية، نزل قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾[٤].

---

(١) سورة النساء الآية (١٥).

(٢) سورة النور الآية (٢).

(٣) الحديث أخرجه الإمام مسلم (١٦٧٦) عن ابن مسعود ﷺ.

(٤) سورة الروم الآية (٢٩).

ثم جاءت الآية التالية في المدينة، وهي قوله تَعَالَىٰ: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾(١).

ثم جاءت الآية الثالثة لتحرم الربا المضاعف كمرحلة مؤقتة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾(٢).

ثم جاءت الآية الرابعة لتحرم الربا تحريما نهائيا قاطعا بجميع صوره وأشكاله إلي يوم القيامة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾(٣).

فهناك عدة آيات تدرجت مع المدعوين خطوة خطوة، لتصل في النهاية إلي التحريم التأبيدي للربا، فأوضحت الآية الأولى، أن الربا لا نجاة ولا بركة فيه، وقارنت بينه وبين الزكاة، التي يضاعف فيها الأجر والثواب من الله.

وجاءت الآية الثانية، لتبين أن الله حرم الربا على بني إسرائيل، لأنه ظلم، وهو أمر منهي عنه، فيزيد الفقير فقرا، والغني غنى، فكان هذا تمهيدا لتحريمه على المسلمين.

---

(١) سورة النساء الآيتان (١٦٠-١٦١).

(٢) سورة آل عمران الآية (١٣٠).

(٣) سورة البقرة الآيتان (٢٧٥-٢٧٦).

ثم جاءت الآية الثالثة، لتحرم الربا الفاحش المضاعف، لخطورته الشديدة على المجتمع.

وجاءت الآية الرابعة والأخيرة، لتحرم الربا بجميع صوره وأشكاله وأنواعه، وصحبت ذلك بالتهديد الشديد، وإعلان الحرب على المرابين من الله والرسول ﷺ.

التدرج في تحريم الخمر: لقد أنزل الله ﷻ في محكم التنزيل أربع آيات في بيان حكم الخمر، أحدها مكي، والباقي مدني، وها هي ذي بترتيب نزولها.

الآية الأولى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾[1].

الآية الثانية: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾[2].

الآية الثالثة: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾[3].

---

(١) سورة النحل الآية (٦٧).

(٢) سورة البقرة الآية (٢١٩).

(٣) سورة النساء الآية (٤٣).

الآية الرابعة والأخيرة: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾[1].

فلقد عالج القرآن الكريم مشكلة شرب الخمر في المجتمع الإسلامي من خلال هذه الآيات القرآنية السابقة، التي نزلت على مراحل متباعدة، إبَّان بناء المجتمع الإسلامي.

إن الإسلام بتشريعه الحكيم في أحكامه، استطاع أن يقضي على الخمر، وأن يعزلها عن دنيا المسلمين بآيات قليلة محكمة من كتاب الله ﷻ وقد وجدت هذه الآيات صداها في نفوس المسلمين، في وقت كان الناس قد أشربوا حب الخمر، وتمكنت من نفوسهم، واستولت على سويداء قلوبهم، فامتثل المسلمون طائعين وقالوا: قد انتهينا يا ربنا وأراقوا ما كان عندهم من خمر في طرقات المدينة، فنجح الإسلام أيما نجاح في القضاء على شرب الخمر في وقت قصير.

وأما عن حكمة التدرج في التحريم فقال القفال -رحمه الله-: (والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب، أن الله- تعالى- علم أن القوم قد كانوا ألفوا شرب الخمر، وكان انتفاعهم بذلك كثير، فعلم أنه لو منعهم دفعة واحدة لشق ذلك عليهم، فلا جرم إن استعمل في التحريم هذا التدريج وهذا الرفق)[2].

(١) سورة المائدة الآيتان (٩٠-٩١).

(٢) تفسير الرازي ٤٢/٦.

ومن مظاهر التميز في المنهج الإلهي، أنه قام على التدرج في التشريع، فلم يحرم الخمر دفعة واحدة؛ لأن الإسلام يبتعد عن منهج الطفرة والفجأة، كما أنه راعى نفسية الناس فلم يصطدم معها، وإنما أخذها بالحكمة، فالله حكيم عليم، يعلم دخائل النفوس وطبائعها، وما يصلحها وما يفسدها، والله ﷻ يقول ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾(١).

ومن أهم عوامل نجاح المنهج الإسلامي في معالجة شرب الخمور، أن الرسول ﷺ مهد لدعوته بتزكية الإيمان، ومجاهدة النفس، فلما استوثق من خلاصها من رعونتها، دعاها إلي ترك هذه الرذيلة فلبته طائعة، وهى موقنة أنه دعاها لما يحييها.

بينما القوانين البشرية قد عجزت في الغرب أمام سلطان الخمر، فاستسلم القانون لأهواء البشر، لأن سلطان الخمر على الناس كان قد تمكن منهم، وليس عندهم إيمان يدفعهم لمقاومة هذا التعلق، فانهزم سلطان القانون، واضطرت الحكومات العودة بالناس إلي حالتهم الأولى يعبون من الخمر كيفما يشاؤون.

من أجل ذلك كان التميز واضحا في تشريع الله ﷻ عن تشريع البشر القاصر، وذلك لأن طبيعة البشر فيها تباين واختلاف، وضعف ونقص وأهواء، فما يصلح من وجهة نظر بعض الأفراد، لا يصلح للآخرين، أما التشريع الإلهي الرباني فكامل: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾(٢).

(١) سورة الملك الآية (١٤).

(٢) سورة فصلت الآية (٤٢).

صالح لكل فرد، ولكل شعب، ولكل أمة، فهو صالح لكل زمان ومكان، بل يصلح جميع الأزمنة والأمكنة إلي قيام الساعة.

التدرج مطلوب في تطبيق التشريع فإذا سئل الفقيه أو الداعية عن حكم الشرع في شرب الخمر؟ فيقول بالحرمة الأبدية. إلا أنه يتدرج مع مدمن الخمر في العلاج حتى يستطيع أن يتخلى عن الخمر تماما، ويصل لمرحلة الشفاء.

❁❁❁

المطلب السادس: التدرج في طلب العلم.

كان الصحابة الكرام وهم يطلبون العلم، ويتعلمون من الرسول ﷺ يتبعون سنة التدرج في طلب العلم، إذ إن من طلب العلم جملة يفوته بالجملة، ومن ثم أصبح التدرج في طلب العلم هو أفضل وسيلة للتعليم.

والصحابة كانوا لا يتعلمون عشر آيات، فلا يتجاوزونها حتى يعملوا بما فيها، قال أبو عبد الرحمن السلمي–رحمه الله–: (حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب رسول الله ﷺ أنهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات، ولا يأخذون في العشر الأخرى حتى يتعلموا ما في هذه من العمل والعلم، فإنا علمنا العمل والعلم) (١).

وقال أبو عبد الرحمن السلمي–رحمه الله– أيضا: (إذا كنا نتعلم العشر من القرآن، لم نتعلم العشر التي بعدها حتى نتعلم حلالها وحرامها وأمرها ونهيها) (٢).

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٩٤١) عن أبي عبد الرحمن السلمي ﷺ.

(٢) المصنف، للحافظ عبد الرزاق الصنعاني ٣/٣٨٠ (٦٠٢٧) تحقيق/ حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي بيروت، ط/ الثانية ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

فهكذا كان أدب السلف الصالح في حفظ القرآن الكريم وفقه معانيه، وفهم مراميه، والعمل بما فيه، فجمعوا بين العلم والعمل، وبين النظري والتنفيذي.

لقد سلك السلف الصالح في طلب العلم منهجا يقوم على التدرج والبدء بالأهم ثم المهم، وذلك طبقا لقاعدة التدرج والأولويات في إتقان أساسيات العلوم، قبل الانتقال إلي غيرها، فكانوا يبدأون بحفظ كتاب الله ﷻ حفظا متقنا، بطريقة متأنية تجمع بين الحفظ والفهم، خاصة في سن الصغر.

روى الخطيب البغدادي عن الشافعي -رحمه الله- أنه قال: (حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين، وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر سنين) (١).

وروي عن المعمر بن عبد العزيز-رحمه الله-: (أنه بكى وهو غلام صغير، فأرسلت إليه أمه، وقالت: ما يبكيك؟ قال: ذكرت الموت، وكان يومئذ قد جمع القرآن، فبكت أمه حين بلغها ذلك) (٢).

وجاء في ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله- أنه لم يزل إبان صغره مستغرق الأوقات في الجد والاجتهاد، وختم القرآن صغيرا. (٣).

يقول الماوردي-رحمه الله-: (اعلم أن للعلوم أوائل تؤدي إلي أواخرها، ومداخل تفضي إلي حقائقها، فليبتدئ طالب العلم بأوائلها، لينتهي إلي أواخرها، وبمداخلها ليفضي إلي حقائقها، ولا يطلب الآخر قبل الأول، ولا الحقيقة قبل المقصد، فلا يدرك

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٦٣/٢. دار الكتب العلمية بيروت، ط/ الأولى ١٤١٧هـ.
(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي ١١٦/٥. مؤسسة الرسالة بيروت، ط/ الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م
(٣) الأعلام العلمية في مناقب ابن تيمية للحافظ البزار، تحقيق زهير الشاويش، صـ١٩، المكتب الإسلامي بيروت ط/الثانية ١٣٩٦هـ.

الآخر، ولا يعرف الحقيقة، لأن البناء من غير أسس لا يبني، والثمرة من غير غرس لا تجتنى) (١).

وقال ابن خلدون–رحمه الله–: (اعلم أن تلقين العلوم إنما يكون مفيدا إذا كان على التدرج شيئا فشيئا، وقليلا قليلا، يلقى عليه أولا مسائل من كل باب من الفن، هي أصول ذلك الباب، ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال، ويراعى في ذلك قوة عقله، واستعداده لقبول ما يرد عليه، حتى ينتهي إلي آخر الفن، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم، إلا أنها جزئية وضعيفة، وغايتها أنها هيأته لفهم الفن، وتحصيل مسائله. ثم يرجع إلي الفن ثانية، فيدفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلي أعلى منها، ويستوفي الشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما هنالك من الخلاف، ووجهه إلي أن ينتهي إلي آخر الفن، فتجود ملكته.

ثم يرجع به وقد شدا، فلا يترك عويصا ولا مبهما، ولا مغلقا إلا وضحه، وفتح له مقفله، فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته، هذا وجه التعليم المفيد، وهو كما رأيت، إنما يحصل في ثلاث تكرارات، وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك، بحسب ما يخلق له، ويتيسر عليه)(٢).

والتدرج في مجمله له فوائد كثيرة، فهو يسهل العلوم على طالبها، ويدفعه إلي الضبط والإتقان، وقد كثر كلام أهل العلم في ذلك. ذكر ابن عبد البر: عن يونس بن

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي صـ٥٥. دار الكتب العلمية بيروت ط/ الرابعة سنة ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م.

(٢) المقدمة لابن خلدون ٥٣١–٥٣٢.

يزيد قال: قال لي ابن شهاب: (يا يونس لا تكابر العلم فإن العلم أودية، فأيها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه، ولكن خذه مع الأيام والليالي، ولا تأخذ العلم جملة، فإن من رام أخذه جملة، ذهب عنه جملة، ولكن الشيء بعد الشيء، مع الليالي والأيام) (١).

وقال روينا عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: (العلم أكثر من أن يحاط به، فخذوا منه أحسنه). وقال الرباني: (هو الذي يربي الناس بصغار العلم، قبل كباره) (٢).

وقال الأصمعي-رحمه الله-: (سمعت أعرابيا يقول: إذا ثبتت الأصول في القلوب، نطقت الألسن بالفروع) (٣).

قال ابن عبد البر-رحمه الله-: (طلب العلم درجات، ومناقل ورتب، لا ينبغي تعدِّيها، ومن تعداها جملة فقد تعدى سبيل السلف رحمهم الله) (٤).

روى ابن عبد البر عن سفيان الثوري-رحمه الله- أنه قال: (أول العلم الاستماع، ثم الإنصات، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر) (٥).

قال الإمام ابن القيم-رحمه الله- في معرض حديثه عن تشبيه النبي ﷺ للعالم بالقمر في الحديث: **"وفضل العالم على العابد، كفضل القمر ليلة البدر، على سائر الكواكب"** (٦).

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، صـ ٤٣١. ط/ دار ابن حزم الرياض.

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، صـ ٣٣١.

(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، صـ ٣٢٠.

(٤) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، صـ ٥٢٦.

(٥) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، صـ ١٨٩.

(٦) الحديث أخرجه الإمام أبو داود (٣٦٤١) عن أبي أمامة الباهلي ﷺ.

فاستنبط منه تدرج العالم كما يتدرج القمر في منازله، وفيه التنبيه لأهل العلم على تربية الأمة كما يربى الوالد ولده، فيربونهم بالتدريج، والترقي من صغار العلم إلي كباره، وتحميلهم منه ما يطيقون، والعلم الذي يحصله صاحبه دفعة واحدة من غير تدرج، لا يبقى معه، بل يذهب مع الريح، لأن العلم ينمو نموا غير طبيعي، حيث لا توجد جذور راسخة تجعل العلم مستقرا وثابتاُ.

والتدرج في طلب العلم ونشره بين الناس من الأمور المهمة التي تفيد في إعداد الداعية، لأن التدرج فيه مرحلين، وفيه ترويض للنفوس، فالعلم مثل الغيث يتدرج شيئا فشيئا، والغيث تسبقه الغيوم ثم يهطل ويتتابع ويعظم، وكذلك طلب العلم بالنسبة للداعية، وهذا يتوافق مع الحديث النبوي: **" مثَلُ ما بَعَثَنِي اللهُ به من الهُدَى والعِلْمِ، كمَثَلِ الغيثِ الكثيرِ أصاب أرضًا، فكان منها نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأَنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكثيرَ، وكانت منها أجادِبُ، أَمْسَكَتِ الماءَ، فنفع اللهُ بها الناسَ، فشَرِبُوا وسَقَوْا وزرعوا، وأصابت منها طائفةً أخرى، إنما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلَا، فذلك مَثَلُ مَن فَقُهَ في دِينِ اللهِ، ونفعه ما بعثني اللهُ به فعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ من لم يَرْفَعْ بذلك رأسًا، ولم يَقْبَلْ هُدَي اللهِ الذي أُرْسِلْتُ به"**[1].

والحديث يفيد في عموم فائدة العلم، فالعلم بحر لا ساحل له، وتنوع الأرض يفيد في تنوع العلم بالنسبة للداعية، قال الإمام الماوردي–رحمه الله–: (لو كنا نطلب العلم

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٧٩) عن أبي موسى الأشعري ﷺ.

لنبلغ غايته، لكنا قد بدأنا بالعلم بالنقيصة، ولكنَّا نطلبه لننقص كل يوم من الجهل، ونزداد في كل يوم من العلم)[١].

وأول العلم حفظ القرآن الكريم، ثم يبدأ الطالب بعلم التوحيد، فإذا أتقنه انتقل إلي علم التفسير، ثم علم الحديث، ثم الفقه، وهكذا ويبدأ في كل علم بالكتب المبسطة، ثم يتسع شيئا فشيئا.

فيبدأ طالب العلم بدراسة القرآن الكريم من تجويد القرآن، وكيفية قراءته على الطريقة الصحيحة المثلي، مراعيا المخارج والصفات، والأحكام التفصيلية في علم التجويد.

وينتقل بعد ذلك في دراسة علم العقيدة الذي يعني بالإلهيات والنبوات والسمعيات، ويدرسها وفق فهم الصحابة وسلف الأمة الصالح، بعيدا عن التشبيه، والتعطيل، والتجسيم، والتمثيل للذات الإلهية في ضوء قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٢].

وينتقل طالب العلم بعد ذلك إلي دراسة علوم القرآن الكريم، علم أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمقيد والمطلق، والعام والخاص، وعلم التفسير بأنواعه وألوانه.

ثم تأتي تعلم السنة النبوية وعلومها، فهي من أعظم العلوم دراسة بعد كتاب الله، فيبدأ بحفظ الكتب المختصرة في متون الحديث النبوي، مثل الأربعين النووية، وجامع العلوم والحكم، ورياض الصالحين، ومتون كتب السنة الصحيحة ثم دراسة الشروح والحواشي، وهو في ذلك يأخذ العلوم من العلماء دون الاقتصار على الكتب فقط.

---

(١) أدب الدنيا والدين، علي بن محمد الماوردي، صـ ٤٣.

(٢) سورة الشورى الآية (١١).

ومن الجدير بالذكر أن يدرس كتابا أو رسالة في علم مصطلح الحديث، ليعرف درجة الحديث عند العلماء، وأقوال أهل العلم في الحكم، وكيفية الحكم على الحديث سندا ومتنا، حتى يتجنب الضعيف والموضوع في شواهده واستدلالاته.

وينتقل بعد ذلك إلي دراسة علم الفقه من كافة المذاهب، بما قام عليه الدليل الصحيح، مع عدم التقليد، والتقيد بمذهب يتعصب له، دون دليل أو حجة عليه.

ثم ينتقل إلي باقي العلوم الشرعية، واللغوية، والدعوية، والخطابية، والثقافية، فيدرس الأخلاق والنحو والصرف والدعوة والخطابة، والقضايا المعاصرة المستجدة، وقد فصل ذلك عدد من العلماء في كتب مستقلة. (١).

فلكي يستوعب الداعية العلوم الشرعية التي تؤهله للقيام بواجب الدعوة، لابد من التدرج والانتقال من حالة إلي حالة، حتى يصل إلي مرحلة النضوج والاستواء.

❁❁❁

المطلب السابع: التدرج في إعداد الدعاة.

فالله ﷻ حينما أعد نبيه محمدا ﷺ لتبليغ الرسالة، هيأه بعدة مراحل منها:

١-الإعداد الفكري والعقلي، فكان أول ما نزل من القرآن الكريم، ما يحمله على بناء الفكر والعقل، **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾(٢).

---

(١) يراجع لمزيد من التفصيل ثقافة الداعية، لعبد الله ناصح علوان، ط/ دار السلام القاهرة. وثقافة الداعية، د. يوسف القرضاوي، ط/ مكتبة وهبة القاهرة.

(٢) سورة العلق الآيات (١-٥).

٢-الإعداد الروحي والنفسي، فوجهه الله ﷻ نبيه محمداﷺ إلي تزكية النفس بالعبادة، وتربية الروح، بالذكر والاستغفار، وقراءة القرآن، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾[١].

٣-الإعداد الخلقي بالصبر الجميل عند صدود القوم، أو إيذائهم له، فالإصلاح والتغيير يحتاج إلي صبر ومصابرة، وتحمل المكاره قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾[٢].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾[٣]. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[٤].

٤-الأمر بالبلاغ الواضح المبين، الذي يقيم عليهم الحجة الدامغة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾[٥].

---

(١) سورة المزمل الآيات (١-٥).
(٢) سورة المدثر الآية (٧).
(٣) سورة المعارج الآية (٥).
(٤) سورة الأحقاف الآية (٣٥).
(٥) سورة المدثر الآيتان (١-٢).

وهذا الأمر بالبلاغ يحتاج إلي تدرج مع المدعو، فإذا كان حديث عهد بالإسلام فيبدأ معه الداعية بالأهم فالمهم، والأيسر فالأيسر، حتى يتم البلاغ الكامل الواضح المبين.

يقول الإمام ابن تيمية–رحمه الله–: (والحجة على العباد إنما تقوم بشيئين، بشرط التمكن من العلم بما أنزل الله، والقدرة على العمل به، وكذلك المجدد لدينه، المحي لسنته، لا يبلغ إلا ما أمكن عمله والعمل به، كما أن الداخل في الإسلام، لا يمكن حين دخوله أن يلقن جميع شرائعه، ويؤمر بها كلها... وكذلك التائب من الذنوب، والمتعلم، والمسترشد، لا يمكن في أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين، ويذكر له جميع العلم، فإنه لا يطيق ذلك، وإذا لم يطق لم يكن واجبا عليه في هذا الحال، وإذا لم يكن واجبا لم يكن للعالم والأمير أن يوجبه جميعه ابتداءً، بل يعفو عن الأمر والنهي، بما لا يمكن علمه، وعمله إلي وقت الإمكان) [١].

فالتدرج يبدأ بالأسس، ويرتقي إلي ما فوقها درجة درجة، إلي أن يصل إلي منتهاها. يقول أ.عبد الرحمن حبنكة الميداني: (إن أسلوب التدرج التعليمي والتطبيقي للإسلام، لا يقتضي تقيد شيء من أحكامه، ولكن الحكمة التربوية تقتضي عدم حمل الناس على الأخذ بالمهم مع حملهم على الأهم، أو قبل حملهم على الأهم، بل ينبغي الأخذ بأسلوب البناء التدريجي، بدا بالعقائد ومكرمات الأخلاق، وتدرجا حكيما إلي ما بعده بحسب الأولويات) [٢].

❁❁❁

(١) مجموعة الفتاوى ٢٠/٥٩-٦٠.

(٢) فقه الدعوة إلي الله، عبد الرحمن حبنكة الميداني ١/٣٤٦ ط/ دار القلم الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

المطلب الثامن: التدرج في التربية.

التدرج قاعدة أساسية في علاج مشكلات المجتمع فنبدأ بنفس البداية التي بدأ بها النبي ﷺ في تربية الصحابة وذلك بتثبيت الإيمان وغرس العقيدة في القلوب وفي النفوس.

إن تربية الأفراد والمجتمعات مهمة شاقة جدا، فتربية الرجال أشد من نقل الجبال، والتربية لا تكون كلاما فقط، وإنما هي معايشة، وإصلاح، وتغيير، وتهيئة للنفوس والقلوب والعقول.

والتدرج في التربية -خاصة في الصغر- له أثر كبير في النشء، استخدمه النبي ﷺ مع أطفال المسلمين حينما تدرج في تربيتهم على الإيمان والعمل ومن ذلك مافعله النبي ﷺ مع ابن عباس حيث يقول: **"كنتُ خلفَ رسولِ الله ﷺ يومًا قال يا غلامُ، إني أعلِّمُك كلماتٍ: احفَظِ اللهَ يحفَظْك، احفَظِ اللهَ تجِدْه تُجاهَك، إذا سألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعنْتَ فاستعِنْ بالله، واعلمْ أنَّ الأمةَ لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيءٍ، لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه اللهُ لك، وإنِ اجتمعوا على أن يضُرُّوك بشيءٍ لم يضُروك إلا بشيءٍ قد كتبه اللهُ عليك، رُفِعَتِ الأقلامُ وجَفَّتِ الصُّحُفَ"** (١).

وعن التدرج في تربية النشء جاء قول النبي ﷺ **"مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع"** (٢).

(١) الحديث أخرجه الإمام الترمذي (٢٥١٦) عن عبد الله بن عباس-رضي الله عنهما-.

(٢) الحديث أخرجه الإمام أبو داود (٤٩٥) عن عبد الله بن عمرو بن العاص-رضي الله عنهما-.

فالحديث يراعى حال الطفل الصغير قبل التمييز، أي قبل السابعة، وعند التمييز إذا بلغها ولم يصل، يؤدب على ذلك بالضرب، حتى يستقيم عوده على الطاعة والعبادة منذ الصغر.

يقول أ جمعة أمين–رحمه الله–: (فلابدَّ إذا من تغيير النفوس شيئا فشيئا، وإعدادها لتقبل أوضاع جديدة، وتهيئة النفوس التائهة لتقبل الحق، كما يهيأ الطفل للفطام بعد الرضاع، فالطفل الرضيع إذا منع مرة واحدة من الرضاع، ربما أصيب بضرر بالغ قد يهلكه، وإذا أخذ بالتدرج كان ذلك عونا له على الاعتماد على نفسه) (١).

❁❁❁

المطلب التاسع: التدرج في الإصلاح والتغيير.

حينما أسندت الخلافة الإسلامية إلي عمر بن عبد العزيزﷺ سنة ٩٩ هـ وقد وقعت قبله مظالم كثيرة، فأراد أن يصلح الأمور برد المظالم إلي أهلها، فاتخذ سنة التدرج في التطبيق، وصرح بذلك في قوله: (لو أقمت فيكم خمسين عاما، ما استكملت فيكم العدل، إني أريد الأمر وأخاف أن لا تحمله قلوبكم، فأخرج معه طمعا من الدنيا، فإن أنكرت قلوبكم هذا سكنت إلي هذا) (٢).

كان ولده عبد الملك–رحمه الله– يدفعه إلي إقامة الحق والعدل دفعا، دون النظر إلي طبيعة النفوس البشرية، وما عاشت وتربت عليه، في جمع الكنوز والأموال، دون تحرى الدقة في ذلك.

---

(١) الدعوة قواعد وأصول، أ.جمعة أمين، صـ١٨٠، دار الدعوة بالإسكندرية ط/ الثانية سنة ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٢٨.

بينما كان الخليفة يرى الأناة والتؤدة والتروي والتدرج، في الوصول إلي الحق، ورد المظالم إلي أهلها، والوقوف أمام كل من اغتصب شيئا من الأموال العامة أو الخاصة.

فهو يحتاج إلي وقت طويل، لكي يقيم العدل ويعيد الحقوق إلي أصحابها، ولقد دار حوار بينه وبين ولده عبد الملك، وكان شابا تقيا متحمسا، لرد المظالم سريعا في يوم وليلة، فقال لأبيه: (يا أبت مالك لا تنفذ الأمور؟ والله لا أبالي لو أن القدور غلت بي وبك في الحق). فيقول له أبوه ناصحا، عن حكمة ورشد في التغيير والإصلاح، متبعا سنة التدرج: (لا تعجل يا بي، فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين، وحرمها في الثالثة، وأنا أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة فيدعونه جملة، ويكون من ذلك فتنة) (١).

ثم يقول الولد لأبيه: (يا أمير المؤمنين، ما أنت قائل لربك غدا إذا سألك، قال: رأيت بدعة فلم تمتها، وسنة فلم تحيها؟ فيدعو له أبوه بخير، ويذكره بمنهج التدرج ويقول له: (رحمك الله، وجزاك من ولد خيرا، والله لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير يا بني، إن قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة عقدة، وعروة عروة، ومتى أريد مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم، لم آمن أن يفتقوا علي فتقا تكثر فيه الدماء، والله لزوال الدنيا أهون علي من أن لا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة، ويحي فيه سنة، حتى يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين) (٢).

---

(١) سير ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي صـ٢٣٦ دار البيت العتيق للنشر والتوزيع ط/ الأولى سنة ١٤٠٤هـ. وانظر الموافقات للشاطبي ٢/٩٤.

(٢) سير ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي صـ٢٣٥.

وفي حوار آخر مع ولده أيضا، يكشف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن منهجه الإصلاحي في التدرج فيقول: (يا بني إن نفسي مطيتي، إن لم أرفق بها لم تبلغني، إني إن اتبعت نفسي وأعواني لم يكن ذلك إلا قليلا، حتى أسقط ويسقطوا، وإني أحتسب في نومتي من الأجر مثل الذي أحتسب في يقظتي، وإن الله جل ثناؤه لو أراد أن ينزل القرآن جملة واحدة لأنزله، ولكنه أنزل الآية والآيتين، حتى استكمل في قلوبهم.

يا بني ما أنا فيه أمر هو أهم إلي أهل بيتك، هم أهل العدة والعدد، وقبلهم ما قبلهم، فلو جمعت ذلك في يوم واحد خشيت انتشاره علي، ولكني أنصف الرجل والرجلين، فيبلغ ذلك من وراءه، فيكون أنجح له، فإن يرد الله إتمام هذا الأمر أتمه، وإن تكن الأخرى فحسب عبد أن يعلم أنه يحب أن ينصف جميع رعيته) [1].

فيكشف هذا الحوار السابق، عن منهج أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في الإصلاح، بالتدرج في تطبيق الأحكام، ورد المظالم إلي أصحابها، وإقامة العدل بين الناس، وإحياء السنن المغيبة، وإماتة البدع التي أطلت برأسها، فهو يحذر الطفرة في العمل، والمفاجأة في التغيير، دون تهيئة النفوس لقبول الحق.

ومنهج التدرج الذي استخدمه استقاه من القرآن الكريم، حينما ذكر أن الله ذم الخمر في آيتين وحرمها في الثالثة، ومن ثم نجح في إقناع ولده، ونجح في تطبيق خطته، وحقق نتائج مبهرة في مدة خلافته القصيرة، التي لم تتجاوز عامين ونصف حتى لقب بخامس الخلفاء الراشدين.

---

(١) سير ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي صـ١٠٦.

والتدرج في التطبيق يعد من لوازم الحكمة في الدعوة، وقد عرفها ابن الجوزي– رحمه الله– فقال: (فعل ما ينبغي، في الوقت الذي ينبغي، وعلى الشكل الذي ينبغي) [١].

فالنبي ﷺ ترك هدم الكعبة وبناءها من جديد، وذلك دفعا للمفسدة التي قد تقع من بعض المسلمين، لأنهم حديثو عهد بالجاهلية، فالتغيير المباشر دفعة واحدة قد يكون منفرا لهم، ومفسدة لهم في دينهم، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

قال العز بن عبد السلام–رحمه الله–: (إذا اجتمعت مصالح ومفاسد، فإن أمكن تحصيل المصالح، ودرء المفاسد، فعلنا ذلك امتثالا لأمر الله ﷻ فيها؛ لقوله ﷻ: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴿١٦﴾ ﴾[٢] وإن تعذر الدرء والتحصيل فإن كانت المفسدة أعظم من المصلحة درأنا المفسدة، ولا نبالي بفوات المصلحة) [٣].

فالداعية يوازن بين المصالح والمفاسد ويدفع الضرر الأكثر بالأقل ضررا كما فعل النبي ﷺ في عدم هدم الكعبة وإعادة بنائها.

وما حصل المسلمون الأوائل الاستخلاف في الأرض والتمكين بعد الاستضعاف، إلا بالتدرج في التطبيق شيئا فشيئا.

ومن صور التدرج في التغيير والإصلاح حديث: **" مَن رأى مِنكُم مُنكرًا فليغيِّرهُ بيدِهِ، فإن لَم يَستَطِع فبِلسانِهِ، فإن لم يستَطِعْ فبقَلبِهِ. وذلِكَ أضعَفُ الإيمانِ"**[٤].

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ٤٤٩/٢.

(٢) سورة التغابن الآية (١٦).

(٣) قواعد الإحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام، صـ ٩٨. دار ابن حزم، بيروت ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

(٤) الحديث أخرجه الإمام مسلم (٤٩) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

فالحديث يدعو إلي التدرج في التغيير والإصلاح في إزالة المنكرات، فبدأ باليد، ثم اللسان، ثم القلب، فينتقل من مرحلة إلي غيرها، مراعيا ظروف الحالة التي يقوم على تغييرها وإصلاحها، مراعيا شروط التغيير، والذي يقوم به، وشروط المنكر المراد تغييره.

والدعاة اليوم في أشد الحاجة إلي فقه التدرج، لأنه يحتاج إلي فهم دقيق في تبليغ وتطبيق الأحكام، وإنزالها على واقع المدعوين، كما أن التغيير، والإصلاح، والتربية، وطلب العلم وتعليمه، أمور لا تتم بين يوم وليلة، أو بين عشية وضحاها، وإنما تحتاج إلي وقت طويل، وجهد شديد، وعمر مديد، وصبر ومصابرة.

وقد نجح التدرج في تحقيق الهدف المنشود إلي أقصى الدرجة، فأتى بثمار عجيبة، ونتائج مبهرة، قبلته النفوس الشاردة بالرضا والتسليم.

❁❁❁

المبحث الثالث

القاعدة الثالثة: مراعاة فقه البلاغ في العمل الدعوي.

مقدمة

الدعوة إلي الله ﷻ من أعظم الواجبات التي كلف الله بها عباده المؤمنين، بل إن الله ﷻ ربط خيرية الأمة في قيامها بهذا الواجب العظيم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[1].

والدعوة إلي الله ﷻ واجبة على كل مسلم على قدر علمه واستطاعته، وخير الدعاة من اتبع هدي النبي ﷺ في دعوة الناس، مراعيا اختيار أفضل أسلوب وأحسن وسيلة، حتى يمكن إيصال الدعوة بشكل صحيح ناجح.

(إن الإلمام بفقه الدعوة إلي الله قبل مباشرتها، من المحتمات على كل داعية، كي يدعو إلي الله على بصيرة، إذ بدون هذا الفقه، قد يضر الداعية ولا يفيد، وينفر ولا يرغب، ويفرق ولا يجمع) [2].

وإن فقه الدعوة يتطلب من الداعية الإعراض عن الشتائم، والتغافل عن الجهالات، ولا يقابل الإساءة بمثلها، وإنما يكون هدفه جذب القلوب إلي الدعوة،

---

(١) سورة آل عمران الآية (١١٠).

(٢) الدعوة قواعد وأصول، أ. جمعة أمين، صـ ٩٢ دار الدعوة بالإسكندرية، ط/ الرابعة ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م.

والتأثير فيها بالبشاشة والبشر، وطلاقة الوجه، ولين القول، والتواضع والترفع عن سفاسف الأمور.

❁❁❁

المطلب الأول: تعريف البلاغ لغة واصطلاحا.

كلمة البلاغ في اللغة: مأخوذة من مادة بلغ، التي تدل على الوصول إلي الشيء، وفيها معنى الإعلام.

جاء في لسان العرب: (بلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغا: وصل وانتهى، وأبلغه هو بلاغا، وبلغه تبليغا، وتبلغ بالشيء: وصل إلي مراده، والبلاغ ما بلغك، والبلاغ الكفاية. والبلاغ: هو ما يتبلغ به ويتوصل إلي الشيء المطلوب، وفي حديث الاستسقاء: (واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغا إلي حين) (١).

والإبلاغ: (الإيصال، وكذا التبليغ، والاسم منه البلاغ، يقال: بلغت القوم بلاغا، اسم يقوم مقام التبليغ) (٢).

والبلاغ هو التبليغ من أجل التذكير ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ ﴿٥٢﴾ ﴾(٣).

وفي التنزيل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴿٢٣﴾ ﴾(٤).

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة بلغ ٤١٩/٨. المفردات للراغب الأصفهاني صـ٦٠. والحديث أخرجه الإمام أبو داود (١١٧٣) عن أم المؤمنين عائشة ﵂.

(٢) مختار الصحاح للرازي صـ ٦٣٦٤ ط/ دار الكتاب العربي بيروت الأولى سنة ١٩٧٩م.

(٣) سورة إبراهيم الآية (٥٢).

(٤) سورة الجن الآية (٢٣).

والتبليغ اصطلاحا: (تبليغ الإسلام للناس، وتعليمه إياهم، وتطبيقه في واقع الحياة... والدعي: هو المبلغ للإسلام، والمعلم له، والساعي لتطبيقه) (١).

وكلمة البلاغ تعني: تبليغ الرسول ﷺ أو من يقوم مقامه من الدعاة الإسلام إلي المدعوين، على أحسن وجه، وأفضل صورة.

❁❁❁

المطلب الثاني: البلاغ في القرآن الكريم.

جاء التكليف القرآني من الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ بالبلاغ المبين في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ ﴿٦٧﴾﴾(٢). وقوله تعالى: ﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾(٣). وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾(٤).

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ﴿٤٨﴾﴾(٥). وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾(٦). وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾(٧).

---

(١) المدخل إلي علم الدعوة د/ محمد أبو الفتح البيانوني صـ٤٠.

(٢) سورة المائدة الآية (٦٧).

(٣) سورة آل عمران الآية (٢٠).

(٤) سورة المائدة الآية (٩٢).

(٥) سورة الشورى الآية (٤٨).

(٦) سورة الرعد الآية (٤٠).

(٧) سورة النور الآية (٥٤).

وهذا البلاغ السابق تكليف من الله ﷻ لنبيه، وللدعاة من بعده، كل على قدر علمه ووسعه وطاقته، ووصف الله البلاغ بالمبين، أي الواضح البين الذي لا غموض ولا لبس فيه.

وأمر الله ﷻ الأنبياء قبل محمد ﷺ بالبلاغ في آيات كثيرة، منها على لسان نوح عليه السلام قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[١]. وعلى لسان هود عليه السلام قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾[٢].

❁❁❁

المطلب الثالث: البلاغ في السنة النبوية.

ورد البلاغ في السنة النبوية المطهرة في أحاديث كثيرة، ففي خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع، في قوله ﷺ: **"ألا هل بلغت اللهم فاشهد"**[٣].

فالنبي ﷺ كان مكلفا بالبلاغ، والصحابة من بعده كان عليهم واجب البلاغ أيضا، وفي الحديث قال ﷺ: **" بلغوا عني ولو آيةً، وحدثوا عن بني إسرائيلَ ولا حرجَ، ومن كذبَ عليَّ متعمدًا فليتبوأْ مقعدَه من النارِ"**[٤].

وقوله ﷺ: **"ليبلغ الشاهد الغائب"**[٥].

---

(١) سورة الأعراف الآية (٦٢).

(٢) سورة الأعراف الآية (٦٨).

(٣) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٤٤٠٢) عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-.

(٤) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٣٤٦١) عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-.

(٥) الحديث أخرجه الإمام البخاري (١٠٥) عن أبى بكرة نفيع بن الحارث ﷺ.

وقوله ﷺ: **"نضر الله امرا سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه فرب حامل فقه إلي من هو أفقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه"**(١).

وفى إرساله ﷺ الصحابة إلي القرى والمدن ليبلغوهم الإسلام ويعلموهم تعاليمه، مثل إرساله مصعبا إلي المدينة، ومعاذا إلي اليمن، وأبا ذر إلي غفار، والطفيل بن عمرو الدوسي إلي دوس، فكل ذلك يدل على التطبيق العملي من النبي ﷺ بتكليف الصحابة بمهام تبليغ الدعوة إلي الله ﷻ.

والأمة المسلمة كلها مكلفة بالدعوة إلي الإسلام حتى تشهد على الأمم السابقة، وفي الحديث قال ﷺ: **"يجاء بنوح يوم القيامة، فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم يا رب، فتسأل أمته: هل بلغكم، فيقولون: ما جاءنا من نذير، فيقول: من شهودك، فيقول: محمد وأمته، فيجاء بكم فتشهدون، ثم قرأ رسول الله ﷺ:**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾**"**(٢).

❁❁❁

(١) الحديث أخرجه الإمام أبو داود (٣٦٦٠). عن زيد بن ثابت ﷺ.

(٢) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٧٣٤٩) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.
والآية من سورة البقرة (١٤٣).

المطلب الرابع: الترغيب في البلاغ.

أن المبلغ والداعي إلي الخير، ثوابه مضاعف، وأجره لا ينقطع حتى يوم القيامة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[١].

ولما قرأ الحسن البصري هذه الآية قال: (هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلي الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلي ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحا في إجابته، وقال: إنني من المسلمين، هذا خليفة الله) [٢]. وقال رسولُ الله ﷺ: **"من دَلَّ على خيرٍ فله مثلُ أجرِ فاعلِه..."** [٣].

والدعاة الصادقون هم الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه، ولا يخشون أحدا إلا الله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾[٤].

وجاء الترغيب من النبي ﷺ للصحابة والأمة من بعدهم، بأن دعا لمن يقوم بهذا الواجب بنضارة الوجه.

وفي الحديث قال ﷺ: **"نضر الله امرءًا سمع مقالتي فوعاها، فأداها كما سمعها، فرب مبلغ أوعى من سامع"**[٥].

---

(١) سورة فصلت الآية (٣٣).

(٢) تفسير ابن كثير ١٠١/٤.

(٣) الحديث أخرجه الإمام مسلم (١٨٩٣). عن عقبة بن عمرو بن ثعلبة أبي مسعود ﷺ.

(٤) سورة الأحزاب الآية (٣٩).

(٥) الحديث أخرجه الإمام أبو داود (٣٦٦٠). عن زيد بن حارثة ﷺ.

الدعاة إلي الله ثوابهم مستمر لا ينتهى، وأجورهم دائمة لا تنقطع، قال ﷺ: **"من دعا إلي هدى كان له من الأجر مثل ثواب من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا"**(١).

والبلاغ المبين سبيل الهداية والتوفيق من الله، فحينما أرسل النبي ﷺ عليا لفتح خيبر قال: **"لأُعْطِيَنَّ الرايةَ غدًا رجلًا يُفْتَحُ علَى يديهِ، يُحبُّ اللهَ ورسولهُ ويُحِبُّـهُ اللهُ ورسـولهُ. فباتَ الناسُ ليلتَهُم: أيُّهُم يُعْطَى، فغدَوْا كُلُّهُم يَرْجوهُ، فقال: أينَ عَلِيٌّ؟.**

فقيل: يشتكي عَيْنَيْهِ، فبصَقَ في عَيْنَيْهِ ودَعا لهُ، فبرَأَ كأنْ لم يكُن بـهِ وجَـعٌ، فأعْطـاهُ، فقال: أُقاتِلُهُم حتى يَكونوا مِثْلَنَا؟ فقال: انْفُذْ علَى رِسـلِكَ حتـى تنـزِلَ بسـاحَتِهِم، ثـم ادْعُهُم إلي الإسلامِ، وأخبِرْهُم بما يجبُ عليهِم، فو اللهِ لأنْ يهدِيَ اللهُ رجلًا بك، خيرٌ لـك مِن أنْ يكونَ لك حُمْرُ النَّعَمِ" (٢).

❁❁❁

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم (٢٦٧٤). عن أبى هريرة ﷺ.

(٢) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٣٠٠٩) عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ.

المطلب الخامس: الداعية مطالب بالبلاغ وليس الهداية.

كان النبي ﷺ يحمل هم المدعوين في عدم استجابتهم لدعوته، وكان يبذل أقصى جهده في سبيل هداية الآخرين للإسلام، وقبولهم له، إلي أن جاء عتاب الله لنبيه على همه الزائد، حينما لم يستجب قومه لدعوته، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾[١].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾[٢]. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾[٣].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ ﴿٢٧٢﴾ ﴾[٤].

لقد كان النبي ﷺ حريصا على إسلام عمه أبي طالب، الذي كفله بعد جده عبد المطلب، وكان يقوم على حمايته والدفاع عنه، وتحمل الأذى والمشاق من أجله، لكن الله ﷻ لم يكتب له الهداية والإسلام، فمات على الكفر، فأراد النبي ﷺ أن يقوم برد الجميل إليه، فكان يستغفر لعمه، في محاولة للتخفيف عنه يوم القيامة، فجاء التوجيه القرآني بحسم القضية في قوة ووضوح، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾[٥]. وقَالَ

(١) سورة الشعراء الآية (٣).
(٢) سورة الكهف الآية (٦).
(٣) سورة فاطر الآية (٨).
(٤) سورة البقرة الآية (٢٧٢).
(٥) سورة الآية التوبة (١١٣).

تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[1].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾[2].

فأعلم الله نبيه أن دورك هو البلاغ فقط، وأما الهداية والحساب فهذا على الله وحده.

ولقد دعا النبي ﷺ الناس في جميع الأماكن والأحوال، وجميع الأصناف، فدعا في المسجد، وفي الطريق، وفي السوق، وعلى رأس الجبل، وعند المقابر، وفي الحضر، وفي السفر، وعرض نفسه على القبائل داخل مكة وخارجها، وفي موسم الحج، وعند العقبة، ولم يترك مكانا يستطيع أن يصل إليه إلا ودعا فيه، وهو على يقين أن النتيجة والثمرة بيد الله ﷻ وحده، وأن دوره البلاغ المبين فقط.

والقرآن الكريم يبين عدم التلازم بين البلاغ والاستجابة، فالبلاغ مهمة الداعية، والاستجابة توفيق من الله ﷻ والداعية مطالب بمباشرة أسباب البلاغ المبين، وأما نتيجة عمله وجهده وبلاغه، فهي خارجة عن وظيفته، فهي موكولة إلي الله ﷻ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾[3].

(١) سورة القصص الآية (٥٦).
(٢) سورة الرعد الآية (٤٠).
(٣) سورة يوسف الآية (١١٠).

إن بعض الأنبياء بلغوا الدعوة إلي قومهم، ولم يؤمن بهم أحد على الإطلاق، وبعضهم آمن بهم العدد القليل رغم طول المدة، فهذا لا يعني أنه قصر في أداء مهمته، أو لم ينجح فيها، حينما نقيس نتائج الدعوة بمقياس الحياة المادية في دنيا البشر، فنوح عليه السلام مكث يدعوا قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، وكانت النتيجة آمن به عدد قليل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[1].

وفي سورة هود قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[2].

وفي الحديث قال ﷺ: (عُرِضَتْ عليَّ الأُمَمُ، رأيتُ النبيَّ ومَعهُ الرَّهْطُ، والنبيَّ ومعهُ الرجُلَ، والرَّجُلانِ، والنبيَّ وليسَ مَعهُ أحَدٌ)[3].

فإذا كان بعض الأنبياء وهم صفوة خلق الله، ويأتون يوم القيامة وليس وراءهم أتباع من البشر، فليس معنى ذلك أنهم فشلوا في رسالتهم، أو قصروا في واجبهم، وإنما هم قاموا بما عليهم من واجب وثمرة العمل ونتيجته إنما هي على الله ﷻ فالداعية مطالب بالدعوة وليس بالهداية.

❁❁❁

(١) سورة العنكبوت الآية (١٤).

(٢) سورة هود الآية (٤٠).

(٣) الحديث ذكره الألباني في صحيح الجامع من حديث طويل (٣٩٩٩) عن عبد الله بن عباس- رضي الله عنهما-.

المطلب السادس: أجر الداعية يقع بالبلاغ وليس بالاستجابة.

إن الذي أمر الداعية بالتبليغ وكلفه بهذه المهمة، هو الله ﷻ والذي يعطيه الأجر على ذلك إنما هو الله وحده، وهذا كرم من الله وتفضل منه.

فالداعية يعمل عند الله، فلا يطلب أجرا من سواه، سواء حقق الهدف بالاستجابة والهداية أم لا؟ لأنه مطالب بالبلاغ المبين فقط، وليس مطالبا بالنتائج والهداية والاستجابة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[1].

والقرآن الكريم حينما ذكر دعوة الأنبياء، ذكر أن أجورهم جميعا على الله ﷻ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[2]. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[3].

فوظيفة الدعاة بعد الرسل أنهم يبلغون عن الله ولا يطلبون نوالا من أحد إنما أجرهم على الله لذلك فالدعاة الصادقون هم الذين يبلغون الدعوة ولا يخشون أحدا من البشر قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾[4].

❁❁❁

(١) سورة القصص الآية (٥٦).
(٢) سورة الأنعام الآية (٩٠).
(٣) سورة هود الآية (٥١). وانظر سورة هود الآية (٢٩).
(٤) سورة الأحزاب الآية (٣٩).

المطلب السابع: الحكم على الأعمال لا على الأشخاص.

المتأمل في منهج النبي ﷺ في الدعوة، يجد أنه كان يركز على معالجة الخطأ، وتقويم العمل، ولا يتعرض للشخص بالتشهير والتجريح، أو الحكم عليه بالإيمان أو الكفر، فكان يستر الأشخاص، وفي الحديث: **"كان النبي ﷺ إذا بلغه عن الرجل الشيء، لم يقل: ما بَال فلان يقول، ولكن يقول: ما بَال أقوام يقولون كذا وكذا!"** (١).

وأسلوب الستر على الأشخاص والتعريض بالحدث دون ذكر فاعله، منهج وأدب إسلامي رفيع، وقاعدة من قواعد الدعوة التي تعلمها الصحابة من الرسول ﷺ وقد تكررت الوقائع كثيرا، وفي كل مرة لا يصرح النبي ﷺ باسم الفاعل، حتى لا يفضحه أمام الناس.

وهناك أمثلة كثيرة في السنة على هذا الموضوع نذكر طرفا منها، وأنها أصبحت تشكل منهجا في التعامل مع المخطئين والمخالفين.

وفي الحديث يقول أنس بن مالك ﷺ: "كان رسولُ اللهِ ﷺ يُصلِّي في رمضانَ، فجئتُ فقمتُ إلى جنبِه، وجاء رجلٌ آخرُ فقام أيضًا، حتى كنا رهطًا، فلما أحسَّ النبيُّ ﷺ أنا خلفَه، جعل يتجوَّز في الصلاةِ، ثم دخل رحلَه فصلى صلاةً لا يُصليها عندنا، قال: قلْنا له، حين أصبحْنا: أفطِنْتَ لنا الليلةَ؟ فقال: **"نعم، ذاك الذي حمَلني على الذي صنعتَ"**. قال: فأخذ يواصلُ رسولُ اللهِ ﷺ: وذاك في آخرِ الشهرِ، فأخذ رجالٌ من

(١) الحديث أخرجه الإمام أبو داود (٤٧٨٨) عن عائشة ﷺ.

أصحابِه يواصلون، فقال النبيُّ ﷺ: **"ما بالُ رجالٍ يواصلون! إنكم لستُم مِثلي، أما واللهِ! لو تمادَ لي الشهرُ لواصلتُ وِصالًا، يدعُ المُتعمِّقونَ تعمُّقَهم"**(١).

وفي قصة الثلاثة الذين جاءوا إلي بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته، وكأنهم تقالوها، فقالوا ما قالوا، يقول الحديث: "جاء ثلاثُ رهطٍ إلي بُيوتِ أزواجِ النبيِّ ﷺ يَسأَلونَ عن عبادةِ النبيِّ ﷺ فلما أُخبِروا كأنهم تَقالُّوها، فقالوا: أين نحن منَ النبيِّ ﷺ؟ قد غفَر اللهُ له ما تقدَّم من ذَنْبِه وما تأخَّر، قال أحدُهم: أما أنا فإني أُصلِّي الليلَ أبدًا، وقال آخَرُ: أنا أصومُ الدهرَ ولا أُفطِرُ، وقال آخَرُ: أنا أعتزِلُ النساءَ فلا أتزوَّجُ أبدًا، فجاء رسولُ الله ﷺ فقال: **"أنتمُ الذين قلتُم كذا وكذا؟ أما واللهِ إني لأخشاكم للهِ وأتقاكم له، لكني أصومُ وأُفطِرُ، وأُصلِّي وأرقُدُ، وأتزوَّجُ النساءَ، فمَن رغِب عن سُنَّتي فليس مني"**(٢).

فالرواية جاءت تقول جاء ثلاثة نفر أو ثلاثة رهط، وجاء التركيز على معالجة ما قالوا، وما أخذوه على أنفسهم من الشدة، ولم تركز الرواية على من هم؟ وما أسماؤهم؟ لأن الأشخاص ليست القضية الجوهرية، وإنما الحدث والفعل هم محور الحديث، وصلب الموضوع.

وفي حديث: **" مرَّ النبيُّ ﷺ بحائطٍ مِن حيطانِ المدينةِ، أو مكةَ، فسمِع صوتَ إنسانَينِ يُعَذَّبانِ في قبريهما، فقال النبيُّ ﷺ: يُعَذَّبانِ وما يُعَذَّبانِ في كبيرٍ. ثم قال: بلَى، كان أحدُهما لا يَستَتِرُ من بوْلِه، وكان الآخَرُ يمشي بالنَّميمَةِ. ثم دَعا بجَريدَةٍ، فكسَرَها**

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم (١١٠٤) عن أنس بن مالك ﷺ.

(٢) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٥٠٦٣) عن أنس بن مالك ﷺ.

كِسرَتَينِ، فوضَع على كُلِّ قَبرٍ منهما كِسرَةً، فقيل له: يا رسولَ اللهِ، لِمَ فعَلتَ هذا؟ قال: لَعلَّه أنْ يُخَفَّفَ عنهما ما لم تَيبَسا أو: إلى أن يَيبَسا"[١].

يقول ابن حجر: (لم يعرف اسم المقبورين ولا أحدهما، والظاهر أن ذلك كان على عمد من الرواة لقصد الستر عليهما، وهو عمل مستحسن ينبغي أن لا يبالغ في الفحص عن تسمية من وقع في حقه ما يذم به) [٢].

لم يذكر النبي ﷺ اسم الرجلين سترا لحالهما، وإنما أشار إلى ما وقعا فيه من أخطاء، محذرا من فعلهما، وعدم الوقوع فيها، حتى لا يقع أحد في نفس العقوبة، فمن أجل ذلك جاء التحذير النبوي الشريف.

❁❁❁

المطلب الثامن: الداعية مطالب بالمداراة وليس المداهنة.

المداراة معناها: (دفع الشر بالقول اللين، أو الأعراض عنه إذا خيف من شروره، والرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، والإنكار بلطف القول والفعل، وترك الإغلاظ عليه، حيث لا يظهر ما هو فيه، لا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك) [٣].

يقول بدر الدين العيني المدارة: (هي الرفق بالجاهل الذي يستتر بالمعاصي، واللطف به حتى يرده على ما هو عليه) [٤]. وأما المداهنة: (هي معاشرة الفساق

---

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٢١٦) عن ابن عباس-رضي الله عنهما-.
(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٢٢٠/١.
(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني بتصرف ٤٢٨/١٠.
(٤) عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني ١٧١/٢٢.

والاستئناس بهم، مع وجود بعض المنكرات، وتملك القدرة والاستطاعة على الإنكار) [١].

أي إظهار الرضا بما هو فيه من معصية وظلم وفسوق من غير إنكار عليه. والمداهنة حرام ومنهي عنها بنص القرآن الكريم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝٩ ﴾[٢].

والمداهنة لها صلة قوية بالموالاة، وترك المعاداة لله، ومداراة أهل الشر والفجور لا تقدح في إسلام وإيمان الداعية.

والنبي ﷺ كان يداري الفساق والفجار، وفي الحديث: "أن رجلا استأذن على النبي ﷺ فلما رآه قال: **"بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة"**.

فلما جلس تطلق النبي ﷺ في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت عائشة: يا رسول الله، حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا، ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه؟.

فقال رسول الله ﷺ: **"يا عائشة، متى عهدتني فحاشا، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره"**[٣].

وعنون البخاري في صحيحه بابا بعنوان: (المداراة مع الناس) [٤].

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني بتصرف ٤٢٨/١٠.
(٢) سورة القلم الآية (٩).
(٣) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٦٠٣٢) عن عائشة ﵂.
(٤) انظر فتح الباري عنوان حديث (٥٧٨٠).

وقال الإمام أحمد: (الناس محتاجون إلي مداراة ورفق، في الأمر بالمعروف بلا غلظة إلا رجل معلن بفسقه فلا حرمة له) [١].

والمداراة جائزة ما لم تؤد إلي ضرر بالغير، أو تخالف أصلا من أصول الدين، أو واجبا من واجباته، وفي استعمالها بعد عن الفحش والتفحش.

قال الإمام أحمد: (والناس يحتاجون إلي مداراة ورفعة في الأمر بالمعروف بلا غلظة إلا رجلا مباينا معلنا بالفسق والردى، فيجب عليك نهيه وإعلانه؛ لأنه يقال: ليس لفاسق حرمة، فهذا لا حرمة له) [٢].

قال ابن القيم: في الفرق بين المداراة والمداهنة (أن المداراة: التلطف بالإنسان لتستخرج منه الحق، أو ترده عن الباطل، والمداهنة: التلطف به لتقره على باطله، وتتركه على هواه) [٣]. والمداراة صفة مندوبة وممدوحة في الشرع، بينما المداهنة صفة مذمومة، وهي من الأمور المحرمة.

والمداهن يترك واجبا عظيما من واجبات الإسلام، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي يتسبب في غضب الله عليه ولعنه، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب صـ ٣٠٧.
(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأبي بكر الخلال، صـ ٤٧.
(٣) الروح لابن القيم صـ٢٨١.

يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ [(١)].

كما إنه يلتمس مرضاة الناس بسخط الله، وهذا يجلب عليه سخط الناس والله معا، كما جاء في الحديث "كتبَ معاويةُ بن أبي سفيان إلي عائشةَ أنِ اكتبي لي كتابًا توصيني فيهِ ولا تُكثِري، فَكتبت سلامٌ عليكَ، أمَّا بعدُ فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: منِ التمَسَ رِضا اللهِ بسخطِ النَّاسِ، كفاهُ اللهُ مَؤونةَ النَّاسِ، ومن التمسَ رضا النَّاسِ بسخطِ اللهِ، وَكلَه اللهُ إلي النَّاسِ، والسَّلامُ عليكَ...) [(٢)].

❁❁❁

المطلب التاسع: الداعية مطالب بالرفق واللين، لا الشدة والقسوة.

الرفق ضد العنف، وهو: (لين الجانب، ولطف الفعل، ويكون بالقول والفعل) [(٣)]. ومما يرادف الرفق: الرحمة، والشفقة، واللطف، والعطف.

وأما اللين: ضد الخشونة[(٤)]. وأيضا ضده الشدة، والقسوة، والجفاء.

والرفق اللين يعني: التلطف مع المدعو ومعاملته برفق وتودد، وحسن الإيناس، ومكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، ويعفو عن الزلات، ويصفح عن الجهالات، ويتسامح مع الجاهلين أو المعرضين.

---

(١) سورة المائدة الآيتان (٧٨-٧٩).

(٢) الحديث ذكره ابن حجر في مشكاة المصابيح ٤٨٠/٤ حديث حسن عن عائشة ﵂.

(٣) انظر غريب الحديث لأبي إسحاق الحربي تحقيق، د. سليمان العايد، ٣٥٤/٣ ط، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، أم القرى مكة، الأولى ١٤٠٥هـ.، وأساس البلاغة للزمخشري ١٧١، ط/ دار المعرفة بيروت ١٤٠٢هـ.

(٤) مختار الصحاح للرازي ٤٤٦، ط/ المركز العربي للثقافة والعلوم، بيروت لبنان بدون.

والرفق اللين من صفات الداعية الناجح، فبها يفتح القلوب المغلقة، ويستميل الخصوم المعاندين، فكم من قلب مغلق من إنسان معرض، استطاع الداعية أن يجذبه إلي قبول الدعوة بالرفق واللين، ولقد أرسل الله موسى عليه السلام وأخاه، إلي فرعون في جبروته وتألهه، وأوصاهما بالرفق واللين، فقال تعالى: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾[١].

واللين مصطلح قرآني، وأدب نبوي، استخدمه القرآن الكريم في وصف النبي محمد ﷺ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ

وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[٢].

فالنبي ﷺ كان لين الجانب، بحسن الخلق، وكثرة التحمل، وعدم التسرع في الغضب، أو استخدام العنف والشدة، مع المخالفين والمعارضين.

فالناس تقبل على الرفيق اللين السهل الرقيق، وينفرون من الغليظ الخشن، الذي يؤذي الناس بلسانه ويده، فاللين والرفق في الدعوة يكسر حدة العناد، والجدال، والخصام، والفجور.

---

(١) سورة طه الآية (٤٤).

(٢) سورة آل عمران الآية (١٥٩).

والرفق واللين من قواعد الدعوة إلي الله ﷻ لأنه من مناهج الأنبياء والمرسلين في الدعوة إلي الله ﷻ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[١].

قال ابن كثير: (من احتاج إلي المحاورة والجدال فليكن بالوجه الحسن، وبرفق ولين، وحسن خطاب) [٢].

ومن الرفق: الإعراض عن الجاهل، وتوطين النفس على تحمل الأذى والمكروه، بصبر واحتساب، والرفق يثاب عليه الإنسان، ولا تستخدم الشدة إلا في مواضعها، وبقدرها، وبحكمة بالنظر فيما يترتب عليها. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾[٣].

قال ابن كثير: (هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهي أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع ذلك أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين) [٤].

وقال أيضا: (إخراج الكلام مخرج العرض، ولم يخرجه مخرج الأمر والالتزام، وهو ألطف، ونظيره قول إبراهيم عليه السلام لضيفه المكرمين: ﴿ألا تأكلون﴾ ولم يقل كلوا)[٥].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾[١].

---

(١) سورة النحل الآية (١٢٥).
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٥٩١.
(٣) سورة النازعات الآية (١٨).
(٤) تفسير ابن كثير ٣/١٥٣.
(٥) تفسير ابن كثير ٣/١٥٣.

يقول القرطبي: (هذا وإن كان خطابا لنبيه ﷺ فهو تأديب لجميع خالقه) [٢].

والرفق المطلوب في الغالب الأعم، ما لم تنتهك حرمات الله ﷻ أو يقترف أحدهم ذنبا موجبا للعقوبة والحد، أو عاند أحدهم واستخف بتعاليم الإسلام، وجاهر بمخالفة الشرع الحكيم.

قال ابن حجر في قصة الأعرابي الذي بال في المسجد: (وفيه الرفق بالجاهل وتعليمه ما يلزمه، من غير تعنيف، إذا لم يكن منه عنادا) [٣].

قال ابن قدامة المقدسي، قال بعض السلف: (لا يأمر بالمعروف إلا رفيق فيما يأمر به، رفيق فيما ينهى عنه، حليم فيما يأمر به، حليم فيما ينهى عنه، فقيه فيما يأمر به، فقيه فيما ينهى عنه) [٤].

وقال سفيان الثوري: (لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا من كان فيه خصال ثلاث، رفيق بما يأمر، رفيق بما ينهى، عدل بما يأمر، عدل بما ينهى، عالم بما يأمر، عالم بما ينهى)[٥].

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٩٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٣٤٧/٧.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٣٥٥/١.

(٤) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي صـ ١٣٨، تحقيق زهير الشاويش، ط/ المكتب الإسلامي السابعة ١٤٠٦هـ.

(٥) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأبي بكر الخلال، صـ ٥٠، تحقيق الشيخ عبد القادر عطا، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة، الأولى ١٤٠٦هـ.

ولا شك أن الرفق إذا دخل في شيء يزينه ويحسنه، ويجعله موضع قبول وتسليم، وفي الحديث قول النبي ﷺ لعائشة ﵂: **"إنَّ الرِّفقَ لا يكونُ في شيءٍ إلَّا زانه، ولا يُنزعُ من شيءٍ إلَّا شانه"**(١).

وفي الحديث قال ﷺ: **"يا عائشةُ ارفُقي فإنَّ اللهَ إذا أراد بأهلِ بيتٍ خيرًا، أدخل عليهم الرِّفقَ"**(٢).

وفي الحديث قال ﷺ: **"إنَّ اللهَ رفيقٌ يحبُّ الرِّفقَ ويرضاهُ ويعينُ عليهِ ما لا يعينُ على العنفِ"**(٣).

وفي الحديث قال ﷺ: **"إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه"**(٤).

قال ابن حجر: (والمعنى أنه يتأتى معه من الأمور ما لا يتأتى مع ضده، وقيل: المراد يثيب عليه ما لا يثيب على غيره، والأول أوجه) (٥).

---

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم (٢٥٩٤) عن أم المؤمنين عائشة ﵂.

(٢) الحديث ذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٣٦١/٣ ورواته رواة الصحيح عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) الحديث أخرجه الإمام الهيثمي ٢١٦/٣ ورجاله رجال الصحيح. عن معدان والد خالد-رضي الله عنهما-.

(٤) الحديث أخرجه الإمام مسلم (٢٥٩٣) عن أم المؤمنين عائشة ﵂.

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٤٤٩/١٠.

ولأهمية الرفق في حياة الأمة المسلمة، دعا النبي للولاة الرفقاء بالرعية، الذين يحرصون على خدمة رعيتهم، تقربا إلي الله ﷻ وفي الحديث قوله ﷺ: **"اللهم! من وليَ من أمرِ أمتي شيئًا فشقَّ عليهم، فاشقق عليهِ. ومن ولىَ من أمرِ أمتي شيئًا فرفقَ بهم، فارفقْ به"** (١).

فالداعية ينزل الناس منازلهم، تأليفا لقلوبهم، وجلبا لخيرهم، ودفعا لشرهم، فيعطي

أصحاب المكانة الاجتماعية حقهم من التقدير والاحترام، حتى يزيل الحاجز النفسي- الذي يقف بينهم وبين الداعي أو الدعوة، كما فعل النبي ﷺ مع أبي سفيان ﷺ عند فتح مكة، فعندما أسلم أبو سفيان قال العباس يا رسول الله: إن أبا سفيان يحب الفخر، فاجعل له شيئا، فقال رسول الله ﷺ: نعم **"من دخل دار أبي سفيان فهو آمن"**(٢) وفرح أبو سفيان بذلك فرحا شديداً.

وعن عمرو بن تغلب قال: "أتى النبيَّ ﷺ مالٌ، فأعطى قومًا ومنَع آخَرينَ، فبلَغه أنهم عَتَبوا، فقال: **"إني أُعطي الرجلَ وأدَعُ الرجلَ، والذي أدَعُ أَحَبُّ إليَّ منَ الذي أُعطي، أُعطي أقوامًا لما في قلوبِهم منَ الجزَعِ والهلَعِ، وأكِلُ أقوامًا إلي ما جعَل اللهُ في قلوبِهم منَ الغِنى والخيرِ، منهم عمرُو بنُ تَغلِبَ"**. فقال عمرٌو: ما أُحِبُّ أنَّ لي بكلمةِ رسولِ اللهِ ﷺ حُمْرَ النَّعَمِ"(٣).

---

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم (١٨٢٨) عن أم المؤمنين عائشة ﵂.

(٢) الحديث أخرجه الإمام أبو داود (٣٠٢١) عن عبد الله بن عباس-رضي الله عنهما-.

(٣) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٧٥٣٥) عن عمرو بن تغلب ﷺ.

وفي البداية والنهاية، أن وائل بن حجر، أحد أقيال حضرموت، قدم على رسول الله ﷺ مسلما، وكان قد بشر به أصحابه قبل قدومه، وقال: يأتيكم بقية أبناء الملوك، فلما دخل عليه رحب به وأدناه من نفسه، وقرب مجلسه، وبسط له رداءه، وقال: **"اللهم بارك في وائل، وولده وولد ولده، واستعمله على الأقيال من حضرموت"**(١).

ومن صور ذلك أيضا ثناء النبي ﷺ على بعض المدعوين، وذلك حين "بعث رسولُ الله ﷺ رجلًا إلي حيٍّ من أحياءِ العربِ. فسبُّوه وضربوه. فجاء إلي رسولِ الله ﷺ فأخبره. فقال رسولُ الله ﷺ **"لو أنَّ أهلَ عُمانَ أتيتَ، ما سبُّوك ولا ضربوك"**(٢).

"خرج رجلٌ منا من ضاحيةٍ مهاجرًا يُقالُ له بيرحُ بنُ أسدٍ فقدم المدينةَ بعد وفاةِ رسولِ الله ﷺ بأيامٍ فرآه عمرُ فعلم أنه غريبٌ فقال مِمن أنتَ؟ فقال من أهلِ عمانَ فقال من أهلِ عمانَ قال نعم قال فأخذ بيدِه فأدخله على أبي بكرٍ فقال هذا من أهلِ الأرضِ التي سمعت رسولَ الله ﷺ يقولُ إني لأعلمُ أرضًا يُقالُ لها عمانُ ينضحُ بناحيتِها البحرُ لو أتاهم رسولِي ما رمَوه بسهمٍ ولا حجرٍ"(٣).

وقول رسول الله ﷺ: **"أتاكم أهلُ اليمنِ، هم أرقُّ أفئدةً وألينُ قلوبًا، الإيمانُ يَمانٌ والحكمةُ يمانيةٌ، والفخرُ والخُيَلاءُ في أصحابِ الإبلِ، والسَّكينةُ والوقارُ في أهلِ الغنمِ"**(٤).

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٤/٧١.

(٢) الحديث أخرجه الإمام مسلم (٢٥٤٤) عن أبي برزة الأسلمي ﷺ.

(٣) الحديث ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٥٥ وقال رجاله رجال الصحيح غير لمازة بن زياد وهو ثقة، عن عمر بن الخطاب ﷺ.

(٤) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٤٣٨٨) عن أبي هريرة ﷺ.

إن أفضل طريقة يصل بها الداعية إلي المدعوين هي الرفق واللين وحب الخير لهم، والبذل والعطاء، والجود والكرم، فطالما استعبد الإنسان إحسان.

❁❁❁

المطلب العاشر: الداعية مطالب بالتبشير والتيسير، لا التنفير والتعسير.

التبشير في اللغة: مأخوذ من البشارة والسرور، يقال: (بشر بالخير بشرا: فرح به، وسر بالشيء واستبشر به) [١].

واصطلاحا: (أسلوب يستعمل في الدعوة، لأن فيه تأثير في نفوس كثير من البشر، فإن الإنسان جلب على حب الخير، والرغبة في الحصول على محبوب) [٢].

والتيسير في اللغة يدور حول معنى اليسر، والسهولة، والخفة. فهو يعني (اليسر واللين والسهل، يقال: يسر الشيء، ويسر له الشيء: سهله وهونه، ومهده، وهيأه، وأعده، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾[٣].

يقول ابن فارس: يسر: الياء والسين والراء: أصلان يدل أحدهما على انفتاح الشيء وخفته والأخر على عضو من الأعضاء. فالأول اليسر: ضد العسر[٤].

قال الفيروز أبادى في القاموس المحيط: اليسر بالفتح محركة: اللين والانقياد. ويسر يسر وياسر: لاينة، واليسر محركة: السهل[٥].

---

(١) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة ٥٧/١.

(٢) الحكمة في الدعوة إلي الله سعيد القحطاني صـ ٤٦٨ ط/ الأولى سنة ١٤١٢ هـ سنة ١٩٩٢.

(٣) سورة القمر الآية (١٧).

(٤) مقاييس اللغة ١٥٥/٦.

(٥) القاموس المحيط مادة يسر صـ٤٩٩.

وهو: تطبيق الأحكام الشرعية بصورة معتدلة، كما جاءت في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ من غير تشدد يحرم الحلال، ولا تمييع يحلل الحرام.

واليسر: نقيض العسر وهو يعني السهل(١).

وهو يعني فعل العمل الذي ليس فيه ثقلا أو مشقة على النفس والجسم. وفي الحديث قال ﷺ: **"كل ميسر لما خلق له"**(٢).

فعلى الداعية أن يكون ميسرا وليس معسرا، ومبشرا وليس منفرا، والتيسير من مقاصد الشريعة الإسلامية التي جاءت لرفع الحرج عن الناس، وقامت الأدلة القرآنية على ذلك منها: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴿١٨٥﴾ ﴾(٣).

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾(٤).

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴿٧٨﴾ ﴾(٥). وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾(٦). وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة يسر.

(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة، د/ أحمد مختار عبد الحميد عمر ٢٥١٢/٣ ط/ عالم الكتب الأولى سنة ١٤٢٩هـ سنة ٢٠٠٧م. والحديث أخرجه الإمام البخاري(٧٥٥١) عن عمران بن الحصين ﷺ.

(٣) سورة البقرة الآية (١٨٥).

(٤) سورة المائدة الآية (٦).

(٥) سورة الحج الآية (٧٨).

(٦) سورة النساء الآية (٢٨).

وُسْعَهَآ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾[١]. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ ﴾[٢].

وفي الحديث قال ﷺ: **"يسِّروا ولا تُعسِّروا وبَشِّروا ولا تُنفِّروا"** [٣].

وفي الحديث قال ﷺ: **"إنما بعثتم ميسرين"** [٤].

وفي الحديث قال ﷺ: **"إنَّ هذا الدينَ يسرٌ، ولن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبهُ، فسدِّدوا وقارِبوا وأبشِروا ويسِّروا واستعينُوا بالغَدوةِ والروحةِ وشيءٍ من الدُّلجةِ"** [٥].

قال ابن حجر: (والمعنى لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب) [٦].

وقال ابن المنير: (في هذا الحديث عَلَمٌ مِن أعلام النُّبوَّة؛ فقد رأينا ورأى النَّاس قبلنا أنَّ كلَّ متنطِّعٍ في الدِّين ينقطع، وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة، فإنَّه مِن الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدِّي إلي الملَال أو المبالغة في التَّطوع المفضي إلي ترك الأفضل أو إخراج الفرض عن وقته، كمن بات يصلِّي اللَّيل كلَّه، ويُغَالِب النَّوم إلي أن

(١) سورة البقرة الآية (٢٨٦).

(٢) سورة الليل الآيات (٥- ٧).

(٣) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٦٩) عن أنس بن مالك-رضي الله عنهما-.

(٤) الحديث ذكره الألباني في صحيح النسائي (٥٠٤٩) عن أبي هريرة ﷺ.

(٥) الحديث ذكره المنذري في الترغيب والترهيب ١٤٧/١ إسناده حسن عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما-.

(٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٩٥/١.

غلبته عيناه في آخر اللَّيل، فنام عن صلاة الصُّبح في الجماعة، أو إلي أن خرج الوقت المختار، أو إلي أن طلعت الشَّمس فخرج وقت الفريضة) [١].

وفي الحديث قال ﷺ: **"إنَّ خيرَ دِينِكُمْ أيسَرُه، إنَّ خيرَ دِينِكُمْ أيسَرُه، ثلاثًا"**[٢].

وفي الحديث قال ﷺ: **" إنَّ اللهَّ يحبُّ أن تؤتَى رُخصُهُ، كما يحبُّ أن تؤتَى عزائمُهُ"**[٣].

قال ابن حجر: (قد يستفاد من هذا الإشارة إلي الأخذ بالرخصة الشرعية، فإن الأخذ بالعزيمة في موضع الرخصة تنطع) [٤].

فالداعية يحمل نفسه على العزيمة أو المشقة لكن لا يلزم الناس بذلك مدام هناك أراء أخرى ميسرة ولها أدلتها الصحيحة.

قال محمد بن صالح بن دينار التمار المدني: قلت للقاسم بن محمد: (إنا نسافر في الشتاء وفي رمضان فإن صمت فيه كان أهون عليّ من أن أقضيه في الحر، فقال: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴿١٨٥﴾ ﴾[٥]. ما كان أيسر عليك فافعل) [٦].

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٩٤/١.

(٢) الحديث ذكره الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٦٠) حديث حسن عن محجن بن الأدرع ﷺ.

(٣) الحديث ذكره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٠٦٠) عن عبد الله بن عباس-رضي الله عنهما-.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٩٤/١.

(٥) سورة البقرة الآية (١٨٥).

(٦) تفسير الطبري ٤٦٩/٣.

يقول الإمام الطبري في هذه الآية يعنى بذلك جل ثناؤه (لا يكلف الله نفسا فيتعبدها إلا بما يسعها فلا يضيق عليها ولا يجهدها) (١).

ويقول الإمام الشعبي: (إذا اختلف عليك أمران، فإن أيسرهما أقربهما إلي الحق، لقوله تعالى: (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) (٢).

وقال إبراهيم النخعي: (إذا تخالجك أمران فظن أن أحبهما إلي الله أيسرهما) (٣).

والنبي ﷺ كان من أكثر الناس تيسيرا، وفي الحديث: **"إن الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا، ولكن بعثني معلما ميسرا"** (٤).

ومن التيسير تكليف الناس بما يطيقونه وليس بما فوق الطاقة. يقول الإمام علي: (إن الفقيه حق الفقيه، من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يرخص لهم في معاصي الله، ولم يؤمنهم من عذاب الله) (٥).

وفي الحديث أيضا: **"ما خُيِّرَ رسولُ الله ﷺ بينَ أمرينِ إلا أخَذَ أيسَرَهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعدَ الناسِ منه، وما انتقمَ رسولُ الله ﷺ لنفْسِه إلا أن تُنتَهكَ حُرْمَةُ اللهِّ، فَيَنتَقِمَ للهِ بها"** (٦).

---

(١) تفسير القرطبي ١٥٣/٥.

(٢) تفسير القاسمي ٤٢٧/١.

(٣) الآثار لأبى يوسف ص١٩٦.

(٤) الحديث أخرجه الإمام مسلم (١٤٨٧) عن جابر بن عبد الله ﷺ.

(٥) تاريخ الخلفاء للسيوطي صـ ٢٠٩، وصفة الصفوة لابن الجوزي ٣٢٥/١.

(٦) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٣٥٦٠) عن عائشة ﷺ.

قال ابن عبد البر: (في هذا الحديث دليل على أن المرء ينبغي له ترك ما عسر عليه من أمور الدنيا والآخرة، وترك الإلحاح فيه إذا لم يضطر إليه، والميل إلي اليسر- أبدا، فإن اليسر في الأمور كلها أحب إلي الله وإلى الرسول ﷺ)[١].

قال ابن أبى شيبة حدثنا أبو أسامة عن مسعر قال اخرج إلي معن بن عبد الرحمن كتابا وحلف بالله أن خط أبيه فإذا فيه قال عبد الله يعنى ابن مسعود (والله الذي لا إله غيره ما رأيت أحدا كان أشد على المتنطعين من رسول الله ﷺ ولا رأيت بعده أحدا أشد خوفا عليهم من أبى بكر، وإنى لأظن عمر ﷺ كان أشد أهل الأرض خوفا عليهم)[٢].

يقول عبد الله ابن مسعود ﷺ للصحابة: (إياكم والتنطع وإياكم والتعمق وعليكم بالعتيق) [٣].

عن عبدِ الله بنِ عباسٍ ﷺ أَنَّهُ قال، لمؤذِّنِه في يومٍ مطيرٍ: (إذا قلتَ: أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ أشهدُ أنَّ محمدًا رسولُ الله، فلا تقل: حيَّ على الصلاةِ. قل: صلُّوا في بيوتِكم. قال فكأنَّ الناسَ استنكَرُوا ذاك. فقال: أتعجبون من ذا؟ قد فعل ذا من هو خيرٌ مني. إنَّ الجمعةَ عزْمَةٌ. وإني كرهتُ أن أُحرجكم، فتمْشُوا في الطينِ والدَّحْضِ) [٤].

هذا عبد الله بن عمر ﷺ سئل عن الجبن الذي تصنعه المجوس: قال: ما وجدته في سوق المسلمين اشتريته ولم أسأل عنه. وذكر عند عمر بن الخطاب ﷺ الجبن وقيل: أنه يوضع فيه أنافح الميتة فقال: سموا الله وكلوا. قال الإمام أحمد أصح حديث فيه هذا الحديث يعنى جبن المجوس. [٥].

---

(١) التمهيد لابن عبد البر ١٤٦/٨.

(٢) مصنف عبد الرازق ٣٩٣/١١.

(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي صـ ٢٧٠-٢٧١.

(٤) الحديث أخرجه الإمام مسلم (٦٩٩) عن ابن عباس-رضي الله عنهما-.

(٥) جامع العلوم والحكم صـ ٢٦٩.

وقال معمر وسفيان الثوري: (إنما العلم الرخصة من ثقة، فأما التشديد فيحسنه كل أحد)[١].

والخلاصة أن التيسير أمر مطلوب من الشارع الحكيم، يرفع الحرج والمشقة، ويأتي باليسر والرفق والسماحة، وهو سمة رفيعة وعلامة بارزة من علامات الدين الإسلامي.

❁❁❁

(١) جامع بيان العلم وفضله صـ٢٨٥.

المبحث الرابع

القاعدة الرابعة: مراعاة فقه الاختلاف.

مقدمة

المسلمون في حاجة إلي فن الاختلاف وأدبه وأخلاقياته، والإسلام يتسع للخلافات التي لا تهدد وحده الأمة، خاصة في القضايا الثانوية والأمور الفرعية، والاختلاف ظاهرة إيجابية وطبيعية، إذا لم يتجاوز الآداب المتعلقة بذلك.

فمن مزاياه أنه يقدم الحلول المتعددة ليختار الإنسان منها الحل المناسب، كما أنه يفتح المجال أمام الآراء التي يمكن أن يحتملها الدليل عند الاستدلال به، بالإضافة إلي أنه يؤدي إلي إعمال الذهن، ورياضة العقل، وتنمية التفكير.

والاختلاف الناتج عن اختلاف وجهات النظر، والحكم على الأمور، أمر فطري طبيعي، لأن ذلك مرده إلي الفروق الفردية بين الأفراد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾[1].

فمثل هذا الاختلاف ظاهرة صحية، تفيد العقل في تنقيح الآراء، والاطلاع على وجهات النظر المتعددة، والنظرة العامة للأمور من جميع زواياها.

فالاختلاف في المسائل الفرعية مثلا، لا سيما التي تتعلق بالمباح والمستحب والمكروه، والتي تتعدد فيها النصوص والأدلة، أو يكون الدليل فيها ظنيا في دلالته على الحكم، فليس ذلك مشكلة، إنما المشكلة أن يغيب أدب الخلاف وضوابطه بين المسلمين إذا اختلفوا في قضية من القضايا، وأن تضيق صدورهم بآراء الآخرين واجتهاداتهم،

(١) سورة هود الآية (١١٨).

وأن يؤثر ذلك على علاقة الود والرحمة التي تجمع بين المسلمين جميعا وقد قال تعالى في وصف أصحاب رسولنا ﷺ ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾[١].

رغم أنهم اختلفوا في كثير من القضايا، وما منعهم ذلك من الرحمة والود، والحب والصفاء، وسلامة الصدر والإيثار.

❁❁❁

المطلب الأول: تعريف الاختلاف لغة واصطلاحا.

جاء في المصباح المنير: (خالفته مخالفة وخلافا، وتخالف القوم واختلفوا: إذا ذهب كل واحد منهم خلاف ما ذهب إليه الآخر، وهو ضد الاتفاق، ويراد به مطلق المغايرة في القول والرأي، أو الحالة، أو الهيئة، أو الموقف) [٢].

جاء في لسان العرب: (الخلاف المضادة، وقد خالفه مخالفة وخلافا، وخالفه إلي الشيء عصاه إليه، أو قصده بعد ما نهاه عنه، وفي التنزيل قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴿٨٨﴾﴾[٣].

وتخالف الأقران إذا اختلفا ولم يتفقا، وكل ما لم يتساوى فقد تخالف واختلف، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴿١٤١﴾﴾[٤].

---

(١) سورة الفتح الآية (٢٩).

(٢) المصباح المنير صـ٦٩.

(٣) سورة هود الآية (٨٨).

(٤) سورة الأنعام الآية (١٤١).

أي في حال اختلاف أكله، ويقال لكل شيئين اختلفا هما خلفان، وخلفتان، أحدهما: طويل، والآخر قصير) [١].

الخلاف والاختلاف في اللغة: ضد الاتفاق، وهو أعم من الضد، قال الراغب: (والاختلاف والمخالفة أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر في حاله أو قوله) والخلاف: أعم من الضد، لأن كل ضدين مختلفان، وليس كل مختلفتين ضدين. فمثلا: السواد والبياض ضدان ومختلفان، أما الحمرة والخضرة فمختلفان وليسا ضدين، والخلاف أعم من الضدية، لأنه يحمل معنى الضدية، ومعنى المغايرة مع عدم الضدية) [٢].

إذا فمعنى الخلاف والاختلاف هو المضادة والمعارضة وعدم المماثلة، وهذا المعنى هو الذي جاء في نصوص القرآن الكريم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: (ولفظ الاختلاف في القرآن يراد به التضاد والتعارض، لا يراد به مجرد عدم التماثل، كما هو اصطلاح كثير من النظار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[٣] وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾[٤] وقوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ﴾[٥]) [٦].

---

(١) لسان العرب لابن منظور، مادة خلف ٩/٩٠-٩١.
(٢) مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهاني، صـ ١٥٦.
(٣) سورة النساء الآية (٨٢).
(٤) سورة الذاريات الآيات (٨-٩).
(٥) سورة البقرة الآية (٢٥٣).
(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٣/١٩-٢٠.

ويستفاد مما سبق أن الخلاف يعني عدم الموافقة بين شيئين أو أشياء، ويدور معناه حول التضاد والتعارض.

والعلاقة بين الخلاف والاختلاف أنهما من الألفاظ المتقاربة المترادفة، وسياق الحديث هو الذي يبين المقبول من المردود.

وعليه فيكون الخلاف والاختلاف في الاصطلاح: (منازعة تجرى بين المتعارضين، لتحقيق حق، أو لإبطال باطل) (١).

ويمكن القول بأن الخلاف والاختلاف يراد به مطلق المغايرة في القول، أو الرأي.

والمسائل الخلافية في الأحكام الشرعية هي: (المسائل الفقهية التي لم يتفق عليها من يعتد بخلافه من العلماء) (٢).

وفقه الخلاف يعنى: القواعد التي يلتزم بها عند تباين الرأي، واختلاف وجهات النظر.

والاختلاف المذموم هو الذي يؤدي إلي العداوة والبغضاء والشحناء، والتعصب بين الطرفين، يسبب اختلاف الآراء، وقد يترتب على ذلك بعض المفاسد من التكفير والتفسيق وغير ذلك.

❁❁❁

(١) لسان العرب لابن منظور ١٨١/٤.

(٢) معجم لغة الفقهاء صـ١٩٨.

المطلب الثاني: أهمية الاتحاد في القرآن الكريم والسنة النبوية.

إن وحدة الأمة الإسلامية وجمع كلمتها، ولم شعثها، أمر واجب على المسلمين جميعا، ولن تكون الوحدة إلا بتوحد الأمة في مصادر تشريعها المتفق عليها (القرآن والسنة والإجماع) وتوحدها في أصول الإسلام وأركانه وعباداته وأخلاقه، وهى الأصول التي اتفق عليها علماء الأمة ولا يعذر بالجهل بها.

وليس هناك دين في الوجود يحرص كل الحرص على أن يكون أبناؤه متوحدين مترابطين مثل الإسلام، فقد دعا الإسلام إلي الاتحاد لأنه يقوى الضعفاء، ويزيد الأقوياء قوة على قوتهم.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[1].

وقال ﷺ: **"المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا"**[2].

فالاتحاد يعصم الأمة من التفرق والتشاحن والهلاك، ويحفظ الطاقات، ويرهب الأعداء، و قد قال ﷺ: **"الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد"**[3].

❁❁❁

(١) سورة آل عمران الآية (١٠٣).

(٢) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٢٣١٤) عن أبي موسى الأشعري عبدالله بن قيس ﷺ.

(٣) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك ١٩٧/١عن عمر بن الخطاب ﷺ.

المطلب الثالث: كلمة الاختلاف في القرآن الكريم والسنة النبوية.

ووردت كلمة الاختلاف في القرآن الكريم في آيات كثيرة، منها قوله:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾[١]. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾[٢].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾[٣].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ ﴾[٤].

الاختلاف سنة من سنن الله ﷻ في الكون والمجتمع فهو ﷻ لم يخلق البشر جميعا على شكل واحد، أو لون واحد، أو لسان واحد، أو طبع واحد، أو فهم واحد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾[٥].

فالناس بطبيعتهم مختلفون في العلم والفهم، والخلق والتجارب، والمصلحة والمزاج، فإذا أردت أن توحدهم في كل شيء وتصنع منهم نسخة مكررة، فهذا مستحيل.

---

(١) سورة يونس الآية (٩٣).
(٢) سورة هود الآية (١١٨).
(٣) سورة مريم الآية (٣٧).
(٤) سورة الذاريات الآية (٨).
(٥) سورة الروم الآية (٢٢).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾[١].

ولو انتقلنا من الآيات الإنسانية إلي الآيات الكونية لوجدنا أن الاختلاف في الكون أمر طبيعي، بل إنه مظهر من مظاهر الجمال، حينما تتعدد الألوان، وتتباين الأشكال، فيكون الجمال بعينه قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٢].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾[٣].

وإذا كان الاختلاف طبيعة في البشر والكون، فلماذا لا نتعلم فن الاختلاف، ولماذا لا نتعلم كيف نتفاهم؟ وكيف نستقبل الآراء المخالفة بسعة صدر، وسلامة قلب، وهدوء نفس؟ ونبقى بعد ذلك إخوة متحابين.

فلقد اختلف الصحابة في عصر النبي ﷺ في أرائهم تجاه بعض القضايا المهمة، واختلفوا بعد عصر النبوة أيضا، ومع ذلك ما منعهم هذا الاختلاف من الاعتراف

(١) سورة هود الآيتان (١١٨-١١٩).
(٢) سورة آل عمران الآية (١٩٠).
(٣) سورة فاطر الآيتان (٢٦-٢٧).

بمكانة الرجال وإنصافهم من أنفسهم، وإنزالهم مكانتهم وإعطائهم حقوقهم، وشهد القرآن الكريم لهم جميعا بأنهم من أهل الجنة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾[1].

فليكن شعارنا التعارف والتآلف، لا التباغض والتخالف، فالهدف من رسالة الإسلام أن يتعارف الناس فيما بينهم وإن اختلفوا في بعض الأمور قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾[2].

الموقف الصعب:

والذي يبقى هكذا صعبا إلي قيام الساعة هو استحالة جمع المسلمين جميعا على رأى واحد في كل مسائل العلم الفرعية، وذلك لأن الصحابة تفرقوا في الأمصار، وأفتى كل منهم برأي، وانتشرت المذاهب الإسلامية في طول البلاد وعرضها، وكل مذهب فيه من المسائل التي قامت على اجتهاد، واختلفت فيها الآراء.

وهناك من آيات القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة ما هو ظني الدلالة تختلف العقول في تحديد المراد فقامت على الاجتهاد فاختلفت حولها الآراء، وهناك من المسائل ما قام الحكم فيها على دليل ضعيف بأن يكون الحديث ضعيفا أو موضوعا أو لم يصله الحديث الصحيح ووصل إلي غيره، فاختلف الحكم.

لهذا كله ولغيره يصعب جمع الناس على رأى واحد في كل مسائل العلم الفرعية، وهذا إمام المدينة المنورة الإمام مالك حينما كتب الموطأ طلب منه الخليفة أن ينسخه

---

(١) سورة الحديد الآية (١٠).

(٢) سورة الحجرات الآية (١٣).

ويوزعه على الأمصار؛ ليجمع المسلمين على ما فيه من أحكام فقهية فرفض الإمام مالك وقال: "إن الصحابة تفرقوا في البلاد، وأفتى كل واحد منهم برأي، ولو جمعت الناس على رأى واحد لكان فتنة لهم"(١).

وقال: "إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه"(٢).

وقال الإمام أبو حنيفة: " رأينا صواب يحتمل الخطأ، ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب"(٣).

فهو لا يحتكر الصواب لنفسه وإنما يفتح الباب أمام آراء الآخرين والأقوال المأثورة عن الأئمة الأعلام في الفقه والحديث كثيرة كلها تبين أن كل واحد منهم ما تعصب لرأيه وادعى له العصمة، أو سفه رأى غيره ونال منه وإنما قال الإمام مالك رحمه الله وهو واقف أمام قبر النبيﷺ: "كل يؤخذ منه ويرد إلا صاحب هذا القبر يقصد خاتم النبيين ﷺ"(٤).

والإمام الشافعي يبحث عن السنة النبوية في المسألة، فإن لم يجد فيجتهد، ورأيه صواب يحتمل الخطأ، فإذا ظهر حديث عن النبي ﷺ صحيح في المسألة فيعمل بالحديث قولا واحدا ويترك قوله.

---

(١) قواعد التحديث للقاسمي صـ٣٥٢.
(٢) قواعد التحديث للقاسمي صـ٣٥٢.
(٣) الأحكام لابن حزم ٦/٢٤٤.
(٤) كشف الخفاء للعجلوني ٢/١٥٥.

قال رحمه الله: (كل ما قلت وكان عن النبي ﷺ خلاف قولي مما يصح، فحديث النبي ﷺ أولى، ولا تقلدوني) (١).

ويقول أيضا: (وأما أن نخالف حديثا عن رسول الله ﷺ ثابتا عنه، فأرجو أن لا يؤخذ ذلك علينا إن شاء الله) (٢).

فالكمال لله وحده، والعصمة لرسل الله -صلوات الله عليهم- أجمعين والنقص من صفات البشر، والعفو من شيم الرجال، والتراحم من صفات المؤمنين الصادقين.

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين-رحمه الله- عن الخلاف: (إن من نعمة الله ﷻ على هذه الأمة، أن الخلاف بينها لم يكن في أصول دينها، ومصادره الأصلية، وإنما كان الخلاف في أشياء لا تمس وحدة المسلمين الحقيقية، وهو أمر لابد أن يكون) (٣).

الاختلاف المذموم.

لقد اختلف الصحابة الكرام، وسلف الأمة، ولم يكن هذا الاختلاف سببا للتفرق والتمزق، لأن قلوبهم اتسعت للمخالف في الرأي.

وإذا أدى الاختلاف إلي تفرق وتمزق، فهذا نذير خطر شديد، لأن القرآن حذر من ذلك تحذيرا شديدا. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ١٥٩ ﴾ (٤).

---

(١) آداب الشافعي للرازي صـ ٦٨.

(٢) الرسالة للشافعي صـ ٢١٩.

(٣) الخلاف بين العلماء أسبابه وموقفنا منه، محمد بن صالح العثيمين صـ٣، ط/ مؤسسة ابن العثيمين.

(٤) سورة الأنعام الآية (١٥٩).

ومن الخلاف المذموم المنهي عنه ما جاء في الحديث: **"كان رسولُ الله ﷺ يتخلَّلُ الصفَّ من ناحيةٍ إلي ناحيةٍ يمسح صدورَنا ومناكبَنا ويقول لا تختلِفوا فتختلفَ قلوبُكم، وكان يقول إنَّ اللهَ وملائكتَه يصلونَ على الصفوفِ الأُوَلِ"**(١).

وفي الحديث قال ﷺ: **"دعوني ما تركتُكم، إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالُهم واختلافُهم على أنبيائِهم، فإذا نهيتُكم عن شيءٍ فاجتنبوه، وإذا أمرتُكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم"**(٢).

وفي الحديث قال ﷺ: **"اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فيه فقوموا"**(٣). وقال ابن مسعود: (الخلاف شر) (٤).

والمقصود بالخلاف هنا، الخلاف في الأصول، حيث إنه بدعة وضلال، وشر محض، لا خير فيه، وليس المقصود الاختلاف في الفروع، الذي لا غنى عنه في مسائل الفقه والشريعة.

إن أهل الكتاب لم يؤتوا من قبل قلة العلم والمعرفة، وإنما أوتوا من قبل البغي والاختلاف، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾(٥).

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أبو داود (٦٦٤) عن البراء بن عازب ﷺ.

(٢) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٧٢٨٨) عن أبى هريرة ﷺ.

(٣) الحديث أخرجه الإمام مسلم (٢٦٦٧) عن جندب بن عبد الله ﷺ.

(٤) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة صـ٢٢ والعواصم من القواصم لابن العربي صـ٧٨.

(٥) سورة آل عمران الآية (١٩).

فالفرقة والبغي، من العلل والأمراض التي تهدد قوة الأمة واستقامتها على الطريق، لقد فرقت بعض الفرق الإسلامية بين المسلمين والتعامل معهم، لدرجة أن وصلوا إلي تكفير السواد الأعظم من المسلمين، وما ورد في ذلك قصة واصل ابن عطاء[١].

فالمشرك أصبح آمنا على نفسه أمام بعض الفرق الإسلامية، التي ترى الحق معها وحدها دون غيرها من باقي أفراد الأمة.

وإذا كان الله ﷻ أمرنا بالاجتماع والائتلاف، ونهانا عن التفرق والاختلاف، لأنه كان سببا في هلاك الأمم السابقة، فيجب على علماء المسلمين أن يضعوا الوسائل والأساليب، التي تمنع من وقوع الاختلاف المذموم، والتي تدفع بالناس إلى الخصومة والبغضاء، وما يورث من الكراهية والعداوة، وقد يؤل الأمر إلى الاقتتال.

وإذا كان النبي ﷺ أيضا حذر الأمة من التفرق الذي جاء في الحديث: (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة...) .

فمن الواضح أن الخلاف هنا لا يستغرق الأمة كلها، وإنما بعضها بدليل الحديث الآخر: (ولن تزال طائفة من أمتي قائمة على الحق...).

(١) الكامل في اللغة والأدب للمبرد ١٢٢/٢.

قال ابن مسعودﷺ: **(سمعت رجلا قرأ آية سمعت النبي ﷺ يقرأ خلافها، فأخذت بيده فانطلقت به إلى النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فعرفت في وجهه الكراهية، فقال كلاكما محسن ولا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا)** (١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: (نهى النبي ﷺ عن الاختلاف الذي فيه جحد كل واحد من المختلفين ما مع الآخر من الحق، لأن كلا القارئين كان محسنا فيما قرأه، وعلل ذلك بقوله: بأن من كان قبلنا اختلفوا فهلكوا) (٢).

ويقول في موضع آخر: (واعلم أن أكثر الاختلاف بين الأمة الذي يُورِّث الأهواء تجده من هذا الضرب، وهو أن يكون كل واحد من المختلفين مصيباً فيما أثبته أو في بعضه، مخطئا في نفي ما عليه الآخر، كما أن القارئين كل منهما كان مصيباً في القراءة بالحرف الذي علمه، مخطئاً في نفي حرف غيره، فإنَّ أكثر الجهل إنما يقع في النفي الذي هو الجحود والتكذيب، لا في الإثبات، لأن إحاطة الإنسان بما يثبته أيسر من إحاطته بما ينفيه) (٣).

والاختلاف المذموم الذي يؤدي إلى الفرقة والضعف، يذهب هيبة الأمة ويجعلها مطمعا للأعداء، ولقمة سائغة في الاستيلاء على مقدساتها ومدخراتها دون أن يتصدى لهم أحد من المسلمين.

---

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٢٤١٠) عن ابن مسعود ﷺ.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية صـ٣٥.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية صـ١/١٢٣-١٢٥.

وقد يتحول الاختلاف المذهبي إلى اختلاف مذموم، اذا غلب على صاحبه التعصب الأعمى للمذهب أو الإمام أو لرأيه.

يقول د. عبد الكريم زيدان: (وإذا كانت أقوال المذاهب الاسلامية المعتبرة صائغة الاتباع على أساس أنها مظنة الصواب، وموصلة إلى حكم الله، وأن هذه المظنه شائعة بين المذاهب الإسلامية المعتبرة، وليست حكرا على مذهب معين، فلا يجوز لمقلد أحد هذه المذاهب أن يحتكر لمذهبه كل الصواب في جميع أقواله، ويقرر الخطأ في كل قول يخالف مذهبه، فهذا لم يقله أي مذهب من المذاهب، ولم ينسبه لنفسه، ولم يحتكره لاجتهاده، فكيف يدعيه مقلده) [1].

والاختلاف في الفروع أمر ضروري يتماشى مع طبيعة الدعوة الإسلامية، ورسالة الأمة الخاتمة، قال الإمام ابن القيم-رحمه الله-: (ووقوع الاختلاف بين الناس أمر ضروري لابدَ منه، لتفاوت إرادتهم وأفهامهم، وقوى إدراكهم، ولكن المذموم بغي بعضهم على بعض وعدوانه، وإلا إذا كان الاختلاف على وجه لا يؤدي إلى التباين والتحزب، وكل من المختلفين قصده طاعة الله ورسوله ﷺ لم يضر ذلك الاختلاف، فإنه أمر لابد منه في النشأة الإنسانية، ولكن إذا كان الأصل واحدا والغاية المطلوبة واحدة، والطريق المسلوكة واحدة، لم يكن يقع اختلاف، وإن وقع كان اختلافا لا يضر كما تقدم من اختلاف الصحابة فإن الأصل الذي بنو عليه واحدا وهو كتاب الله وسنة

(١) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية د/ عبد الكريم زيدان صـ١٤٧ ط مؤسسة الرسالة ط/ الثالثة سنة ١٤١٩ هـ سنة ١٩٩٨م.

رسوله ﷺ والقصد واحد وهو طاعة الله ورسوله ﷺ والطريق واحد وهو النظر في أدلة القرآن والسنة، وتقديمهما على كل قول، ورأي، وقياس، وذوق وسياسة) [١].

❁❁❁

المطلب الرابع: أسباب الاختلاف.

هناك عدة أسباب كثيرة ومتنوعة تقف خلف الاختلاف بين الناس منها ما هو خلقي ومنها ما هو فكرى[٢]. **ويمكن الإشارة إلي الأسباب الخلقية إجمالا فيما يأتي:**

١-**الجهل**: فالناس أحباب لما ألفوا أعداء لما جهلوا، فجهل بعض الناس بحكم ما يجعلهم يرفضونه دون الوقوف على دليله أو صحته. والقرآن يطلب من المخالفين له الدليل على صحة ما يعتقدون، لأنه قائم على العلم والموضوعية والإنصاف، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾[٣]. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[٤].

٢-**اتباع الهوى**: القرآن الكريم لم يذكر الهوى إلا في موضع الذم، لأنه يبعد صاحبه عن الحقيقة والإنصاف والموضوعية والحق، قال صاحب الظلال: (فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر، إنما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصير عليها، مهما تبين له وجه الحق في غيرها، وإنما هو وضع الذات في كفه، والحق في كفة،

---

(١) الصواعق المرسلة لابن القيم ٥١٩/٢.

(٢) انظر الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم د/ يوسف القرضاوي صـ١٥-١٦ ط/ دار الوفاء الرابعة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.
وانظر من أجل حوار لا يفسد للود قضية د/ محمود محمد عمارة صـ٩-١٠. ط/ مكتبة الإيمان بالمنصورة الأولى ١٤٢٦هـ٢٠٠٢م.

(٣) سورة الأنعام الآية (١٤٨).

(٤) سورة النمل الآية (٦٤).

وترجيح الذات على الحق ابتداءً) [١]. قال الشهرستاني: (واعلم أن أول شبهة وقعت في الخليقة شبهة إبليس -لعنه الله- ومظهرها استبداده بالرأي في مقابلة النص، واختياره الهوى في معارضته الأمر، واستكباره بالمادة التي خلق منها وهي النار على مادة خلق آدم عليه السلام وهي الطين) [٢].

٣-التقاليد الموروثة: فبعض العقول ترفض الحق لتقيدها بمواريث الآباء والأجداد السابقين قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾[٣].

٤-**الجحود والحسد**: إن بعض الناس يرفضون الحق الصريح بسبب الكبر الداخلي والحسد القلبي الذي يأكل قلبه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[٤]. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[٥].

٥-**التعصب للرأي ولأقوال الأشخاص والمذاهب**: فيجعله لا يرى إلا رأيه ورأى مشايخه ومذهبه ويرفض ما عدا ذلك دون حوار أو مناقشة، وحبك الشيء يعمى ويصم.

---

(١) في ظلال القرآن، أ سيد قطب صـ ١٥٢٨.

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ٩/١، ط/ دار المعرفة، بيروت.

(٣) سورة البقرة الآية (١٧٠).

(٤) سورة الأنعام الآية (٣٣).

(٥) سورة النمل الآية (١٤).

٦-**حب الزعامة أو الصدارة أو المنصب**: هذه الشهوات إذا تغلبت على إنسان جعلته يرفض آراء الآخرين حفاظا على مكانته، أو على منصبه، ولو أنه كان خارج هذه القيود لكان له رأى آخر، وكيف للمقيد أن يتصرف تصرف الأحرار.

٧-**سوء الظن بالآخرين أو التصور المسبق**: فحينما يكون هناك تصور مسبق على شخص ما، مبنيا على سوء الظن، فمن ثم يرفض الطرف الآخر كل ما يصدر عنه، حتى ولو كان الحق المبين، القائم على الأدلة الصحيحة الموثقة، التي تقود الباحث المنصف إلي الإذعان والقبول.

وأما أبرز الأسباب الفكرية فيمكن حصرها فيما يأتي:

١-**الاختلاف في وجهات النظر في فروع الشريعة**، بسبب توافر المعلومات عند البعض وغيابها عند البعض الآخر، وتفاوت العقول في فهم النص، حسب تعدد المشارب والمدارس، واختلاف البيئات والأعراف، ونماذج هذا الاختلاف كثيرة في كتب الفقه المقارن، في أبواب الطهارة، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والمعاملات.

أقول ومثل هذه المسائل يستحيل الوصول إلي رأى واحد في كل المسائل الخلافية، ومن أراد أن يفعل ذلك فإنما يريد أن يلغى الألوان من الكون، فلا يرى إلا لونا واحدا، وذلك هو عمى الألوان الذي يحرم صاحبه أن يستمتع بالحياة على حقيقتها، وصاحب عمى الألوان يمنعه القانون من قيادة السيارة، فكيف بقيادة الناس إلي طريق الله ﷻ.

وذكر الشيخ ابن العثيمين –رحمه الله– سبعة أسباب لهذا الخلاف:

١- أن يكون الدليل لم يبلغ هذا المخالف الذي أخطأ في حكمه.

٢- أن يكون الحديث قد بلغ الرجل ولكنه لم يثق بناقله، ورأى أنه مخالف لما هو أقوى منه، فأخذ بما يراه أقوى منه.

٣- أن يكون الحديث قد بلغه ولكنه نسيه، وجل من لا ينسى.

٤- أن يكون بلغة وفهم منه خلاف المراد.

٥- أن يكون قد بلغه الحديث لكنه منسوخ ولم يعلم بالناسخ، فيكون الحديث صحيحا والمراد منه مفهوما ولكنه منسوخ، والعالم لا يعلم بنسخه، فحينئذ له العذر، لأن الأصل عدم النسخ حتى يعلم بالناسخ.

٦- أن يعتقد أنه معارض بما هو أقوى منه من نص أو إجماع. بمعنى أنه يصل الدليل إلي المستدل، ولكنه يرى أنه معارض بما هو أقوى منه من نص، أو إجماع، وهذا كثير في خلاف الأئمة. وما أكثر ما نسمع من ينقل الإجماع، ولكنه عند التأمل لا يكون إجماعا.

٧- أن يأخذ العالم بحديث ضعيف، أو يستدل استدلالا ضعيفا[١].

فالخلاف ليس مشكلة، إنما المشكلة أن يغيب عنا أدب الخلاف، وتنشأ بيننا المعارك في غير ميدان الحرب، فتستهلك الطاقات، وتبدد الجهود، ثم نمضى- في طريق التفرق ولا نعود، فهل إلي خروج من سبيل؟ نعم إنه ضوابط الاختلاف في الإسلام وآدابه.

❁❁❁

(١) الخلاف بين العلماء أسبابه وموقفنا منه، محمد بن صالح العثيمين، مؤسسة بن عثيمين.

المطلب الخامس: أدب الاختلاف في الإسلام.

إذا كان الاختلاف أمرا طبيعيا في البشر جميعا؛ لأنه يتوافق مع طبيعة النفوس البشرية، فهذا أمر عادي ليست فيه مشكلة، لكن الناس يحتاجون إلي أدب الخلاف حتى يتعايش بعضهم مع بعض، خاصة بين العلماء وطلبة العلم الشرعي.

وهذه الأسس الأخلاقية والمبادئ السامية إنما ترسخ أدب الاختلاف في نفوس أبناء المجتمع المسلم لتستمر معاني الأخوة الإسلامية سائدة بين المسلمين.

ومن هذه الآداب ما يأتي(١):

١-**التجرد من الهوى**: إن حب الذات واتباع هوى النفس يعمى الإنسان ويصم آذانه عن سماع الحق أو رؤيته وقبوله، فليكن طلبنا للحق والصواب مجردا من حظ النفس، ومن الريا، ولنكن عبيدا لله لا عبيدا للذات، فحيثما يوضع الإنسان في أي مكان يعمل، طالما أن غايته مرضاة الله ﷻ سواء كان إماما أو مأموما، في المقدمة أو المؤخرة.

وفي الحديث قال ﷺ: **"تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، إن أعطى رضي وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، أو كان في الساقة كان في الساقة"**(٢).

---

(١) يراجع في ذلك الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم د/ يوسف القرضاوي باب الدعائم الأخلاقية لفقه الاختلاف صـ١٩٣-٢٥٣.

(٢) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٢٨٨٧) عن أبي هريرة ﷺ.

فلننصف أنفسنا بتجردها للحق وحده، وبحثها عن الصواب، والنزول عليه ما دمنا نبغي في النهاية مرضاة الله ﷻ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[١].

قال الشافعي: (ما ناظرت أحدا إلا أحببت أن يظهر الله الحق على يده، دون حرص مني على مغالبته) [٢].

وقال أبو حامد الغزالي: (يطلب من العلماء عند بحث مسألة أمورا: أن يكون كل طرف من طرفي المناظرة كناشد ضالة، لا يفرق أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعارضه، فهو يرى رفيقه معينا ومساعدا في الوصول للحق لا خصما، فلذلك يشكره إذا نبهه لموضع الخطأ وأظهر له الحق، كما لو سلك طريقا خطأ في طلب ضالته، فنبهه صاحبه إلي أن ضالته سلكت الطريق الآخر، فإنه يسرّ به ويشكره) [٣].

٢-**التحرر من التعصب بجميع صوره وأشكاله**: إن صور التعصب كثيرة فهناك من يتعصب لشخص، أو إمام، أو مذهب، وهناك من يتعصب لطائفة، أو هيئة اجتماعية، وهناك من يتعصب لإقليم، أو مدينة، أو مدرسة، أو ثقافة، فعند الحوار والخلاف إذا بقى هذا التعصب في النفوس قائما فلن نصل إلا إلي التفرق المذموم المنهي عنه، والأصل في الحوار والخلاف التحرر من كل شيء، ومع هذا يدور الإنسان مع الدليل الصحيح حيثما دار، وإن كان على خلاف مذهبه أو مدرسته، فليكن هدفنا طاعة

(١) سورة الأنعام الآيتان (١٦٢-١٦٣).
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٩/١٠.
(٣) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ٤٣/١-٤٤.

الله ورسوله بالأدلة الصحيحة من القرآن والسنة، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾[1].

ومن الكلمات المأثورة عن الأئمة القدماء، ما قاله الإمام الشافعي-رحمه الله-: (والله لا أبالى أن يظهر الحق على لساني أو على لسان خصمي) [2].

فهو يبحث عن الحق سواءً كان معه أو مع خصمه، بل إنه يتهم رأيه باحتمال أن يكون خطأ، وهذا من الإنصاف الذي لا مثيل له بين الناس الآن.

وقد رجح الإمام القاضي أبو بكر ابن العربي مذهب الأحناف، في القول بوجوب الزكاة في كل ما أخرجت الأرض، وضعف مذهبه الذي كان ينتمي إليه، وهو المذهب المالكي وذلك لأنه أبصر الحق والدليل القوى في مذهب الأحناف في تلك المسألة، وذلك من الإنصاف الذي تحرر صاحبه من التعصب لمذهبه أو مذهب شيخه، والأمثلة كثيرة... فلننظر إلي القول ودليله لا إلي قائله، وأن نتحلى بالشجاعة في نقد الذات، والاعتراف بالخطأ، وطلب النصح والتقويم، والثناء على المخالف إذا أحسن وأجاد.

٣-إحسان الظن بالآخرين: إن الظن الحسن يحرر الإنسان من الحكم على آراء الآخرين فلا يسمع لهم، أو يضعهم دائما في موطن الاتهام. والظن الذي لم يقم على دليل أو برهان فهو ظن سيء، حذر منه الإسلام؛ لأنه يضع الناس في موضع التهم دون سند أو برهان يعتمد عليه، وقد يبنى على الظن أحكاما جائرة تظلم الناس، وتوغر الصدور،

---

(١) سورة النور الآية (٥٤).

(٢) فتح القدير، للشوكاني ٣/٩٠.

وتنشئ العداوة والبغضاء، قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾[١].

فإذا كان للمخالف رأى له عدة أوجه، كلها شر ووجه واحد يحتمل الخير فيه، فيحمل هذا على ذلك، إلي أن يقر المحالف بما يقصد برأيه هو، والإقرار سيد الأدلة. يقول الإمام ابن القيم في مدارج السالكين (ولا توجب هذه الزلة من شيخ الإسلام إهدار محاسنه، وإساءة الظن به، فمحله من العلم والإمامة والمعرفة والتقدم في طريق السلوك، المحل الذي لا يجهل، وكل أحد فمأخوذ من قوله ومتروك إلا المعصوم- صلوات الله وسلامه عليه-والكامل من عد خطؤه) [٢].

٤-**عدم تجريح الآخرين**: ومن أدب الخلاف بين العاملين في حقل الدعوة الإسلامية عدم تجريح بعضهم لبعض عند اختلافهم في رأى أو مسألة، لأن المخطئ الذي أقيم دليل قوى على خطئه مجتهد لم يتعمد الخطأ، والنبي ﷺ يقول: **"من اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ له أجر"**[٣]. فيحمد له حسن اجتهاده، ويغفر له خطأه خاصة أنه غير مقصود أو متعمد.

٥-**البعد عن الجدل والمراء**: إن الجدل والمراء يورث الضغينة والبغضاء، ولذلك حذر الإسلام من الجدل والمراء أيما تحذير، خاصة إذا كان يقوم على غير علم أو هدى،

---

(١) سورة الحجرات الآية (١٢).

(٢) مدارج السالكين ١٩٦/١.

(٣) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٧٣٥٢) عن عمرو بن العاص ﷺ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٩ ﴾[١].

والجدال بالباطل صفة من صفات أهل الكفر، الذين يحاولون أن يخلطوا المفاهيم، ويلبسوا الحق بالباطل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ۝٥٦ ﴾[٢]. وفي سنن أبى داود عن أبى أمامة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **"أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا"**[٣].

إن الشخص الذي تعود على المراء والجدال يرى نفسه دائما على صواب، والآخرين على باطل، بل إنه يحاول أن يلزم الآخرين برأيه بأية وسيلة، وفي الحديث ﷺ: **" إن أبغض الرجال إلي الله الألد الخصم"**[٤]. والألد الخصم هو شديد الخصومة.

فالخلاف إذا دخل فيه الجدل والمراء أفسده، وحوله من خلاف علمي إلي خصومة شخصية، ودفاع عن الذات، وتلك آفة الآفات.

٦-**الحوار بالتي هي أحسن**: الحوار أدب إسلامي قرآني، شريطة أن يكون بأحسن الطرق وأفضلها وأمثلها، وأن يكون بأرق التعبيرات وألطفها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝١٢٥ ﴾[٥].

---

(١) سورة الحج الآيتان (٨-٩).
(٢) سورة الكهف الآية (٥٦).
(٣) الحديث أخرجه الإمام أبو داود في الأدب (٤٨٠٠) عن أبى أمامة الباهلي ﷺ.
(٤) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٧١٨٨)عن عائشة -رضي الله عنها-.
(٥) سورة النحل الآية (١٢٥).

وهذا يتطلب التركيز على نقاط الاتفاق والالتقاء، حتى تتم الاستمالة في مواطن الخلاف، وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة في تعامله مع أهل الكتاب أو المشركين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾[1].

وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ١٣٩﴾[2].

فالداعية يحاور بالخلق الأبيض لا بالسلاح الأبيض، فهو في ميدان علم ودين، لا في ميدان قتال وسلاح، وكما قيل: (اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية)

فالحوار بالكلمة الهادئة والصوت المنخفض، والجدال بالحسنى، واستخدام الموضوعية، يقرب القلوب، ويحل المشكلات، ويفض المنازعات.

فلا نرفض رأيا سلفا، ولا نحجر على فكرة، ولا نسفه آراء الآخرين، وليكن الحوار بالتي هي أحسن، كما حكى القرآن الكريم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾[3].

٧- **اختيار الألفاظ الحسنة**، وحفظ اللسان من تجريح الآخرين، أو التطاول عليهم، خاصة أنه توجيه قرآني نبوي قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ٨٣﴾[4].

---

(١) سورة العنكبوت الآية (٤٦).
(٢) سورة البقرة الآية (٣٩١).
(٣) سورة النحل الآية (١٢٥).
(٤) سورة البقرة الآية (٣٨).

وقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾[١].

وقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾[٢].

وفي الحديث: **" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت"**[٣].

وقال أبو الدرداء: (لولا ثلاث ما أحببت البقاء، ساعة ظمأ الهواجر، والسجود في الليل، ومجالسة أقوام ينتقون جيد الكلام كما ينتقى أطايب الثمر) [٤].

فلا ينبغي للإنسان أن ينسى نفسه عند الخلاف مع الآخرين، ويتلفظ باللفظ الجارح انتقاما للنفس، ودفعا لحرج المخالفة، وتعصبا لرأيه الشخصي، وإنما لابدَّ أن يتذكر أن الذي لا يحبه الطرف الآخر، هو أيضا لا يحبه لنفسه، وما لا يرضاه لنفسه لا يرضاه للآخرين.

قال ابن حزم: (أسلاف الخوارج كانوا أعرابا قرؤوا القرآن قبل أن يفقهوا في السنن الثابتة عن رسول الله ﷺ ولم يكن فيهم أحد من الفقهاء، لا من أصحاب ابن مسعود، ولا أصحاب عمر، ولا أصحاب علي، ولا أصحاب عائشة، ولا أصحاب أبي، موسى، ولا أصحاب معاذ بن جبل، ولا أصحاب أبي الدرداء، ولا أصحاب سلمان، ولا

---

(١) سورة الإسراء الآية (٥٣).

(٢) سورة الحج الآية (٢٤).

(٣) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٦٤٧٥) عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) سير أعلام النبلاء ٣٤٩/٢.

أصحاب زيد، وابن عباس، وابن عمر، ﷺ ولهذا تجدهم يكفر بعضهم بعضا عند أقل نازلة تنزل بهم من دقائق الفتيا وصغارها، فظهر ضعف القوم وقوة جهلهم) [١].

٨- مراعاة ضوابط الاختلاف في الإسلام: بمعنى أن يكون الخلاف محل اعتبار ممن هو أهل له، وأن يكون الخلاف واقعيا وليس محض افتراض، وأن لا يترتب على الخلاف مفسدة أكبر من مصلحته.

والعلماء وضعوا عدة شروط للإنكار، منعا للخلاف الناتج عن التغيير، منها، التحقق من كونه منكرا في الشريعة، أي محل اتفاق عند العلماء، بأن هذا العمل متفق على حرمته في حق مرتكبه.

قال الإمام أبو حامد الغزالي في شروط الحسبة: (أن يكون كونه منكرا معلوما بغير اجتهاد، فكل ما هو محل الاجتهاد فلا حسبة فيه) [٢].

❁❁❁

(١) الفصل في الأهواء والملل والنحل: ٤/١٢١.

(٢) الاحياء ١٢/٢٨٦.

المطلب السادس: عدم الإنكار في المسائل الخلافية والاجتهادية[١]

لا شك أن الاختلاف طبيعة فطرية مركوزة في داخل الناس وسلوكهم، ومن الخلاف ما هو محمود وصاحبه مأجور، ومنه ما هو مذموم وصاحبه مخطئ وغير معذور، والخلاف المذموم ما كان في الأصول والأركان والفرائض، وأما الاختلاف المحمود وهو اختلاف التنوع المبني على الاجتهاد.

لقد اختلف الصحابة في بعض الأمور، ومع ذلك سرعان ما حسم موضوع الخلاف، بالنقاش والحوار، والنزول على الصواب، مثل: اختلافهم في وفاة الرسول ﷺ وفي موضوع دفنه، وكيفية القبر، وفي شأن من يخلفه من بعده، وكذلك في قتال مانعي الزكاة.

والاختلاف المبنى على الاجتهاد لا غضاضة فيه مثل: اختلاف الصحابة مع عمرو بن العاص رضي الله عنه يقول: "احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقت أن اغتسلت أن أهلك، فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟ فأخبرته بالذي ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾[٢]. **فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئا**"[٣].

---

(١) للتوسع في هذا الموضوع يراجع ضوابط الاختلاف في ميزان السنة، د عبد الله شعبان صـ ٧٧-١١٨ ط/ دار الحديث القاهرة ط/ الاولي ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

(٢) سورة النساء الآية (٢٩).

(٣) الحديث أخرجه الإمام أبو داود (٣٣٤) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

وفي الحديث قال النبيُّ ﷺ لنا لَمَّا رجَع منَ الأحْزابِ: **"لا يُصلِّينَّ أحدٌ منكمُ العصرَ إلَّا في بَني قُرَيْظةَ، فأدرَكَتهمُ الصَّلاةُ في أثناءِ الطَّريقِ، فقالَ منهم قائلونَ: لم يُرِدْ منَّا رسولُ اللهِ ﷺ إلَّا تَعجيلَ المسيرِ، ولم يُرِدْ منَّا تأخيرَ الصَّلاةِ عَن وقتِها، فصلَّوا الصَّلاةَ لوقتِها في الطَّريقِ. وأخَّر آخرونَ منهمُ صلاة العصرَ، فصلَّوها في بَني قُرَيْظةَ بعدَ الغُروبِ، ولم يُعنِّف رسولُ اللهِ ﷺ أحدًا منَ الفَريقينِ"**(١).

قال ابن حجر-رحمه الله-: (وقد استدل به الجمهور على عدم تأثيم من اجتهد؛ لأنه ﷺ لم يعنف أحدا من الطائفتين، فلو كان هناك إثم لعنف من أثم) (٢).

فاختلاف الصحابة بعضهم مع بعض في فهم النص، دون وقوع أي شجار، أو خصام، وأن كل فريق بما يراه صوابا من وجهة نظره، دون أن ينكر على الآخر اجتهاده في فهم النص. كما أن النبي ﷺ لم يخطئ أحد الفريقين، لأن كلا منهما اجتهد في فهم النص، وكان يبحث عن الحق والصواب.

في عصر النبي ﷺ: (أن رَجُلين تَيَمما وصَلَّيَا، ثم وجدا ماءً في الوقتِ، فتوضأ أحدُهما، وأعاد لصلاتِهِ ما كان في الوقتِ، ولم يُعِدِ الآخَرُ، فسألا النبيَّ ﷺ؟ فقال للذي لم يُعِدْ: أَصَبْتَ السنةَ، وأَجْزَأَتْكَ صلاتُك. وقال للآخَرِ: أَمَّا أنت، فلك مِثلُ سَهْمِ جَمْعٍ)(٣).

---

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٤١١٩) عن عبد الله بن عمر-رضي الله عنهما-.
وانظر أحمد شاكر في عمدة التفاسير ١/٥٦٦.
(٢) فتح الباري ٧/٤١٠.
(٣) الحديث أخرجه الألباني في صحيح النسائي (٤٣١). عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

فكلاهما اجتهد فالذي لم يعد صلاته قال له النبي ﷺ أصبت السنة، وأجزأتك صلاتك فهذا يكفيه، وقال الذي أعاد الصلاة لك سهم من الخير بسبب صلاتك مرتين. فهذا خلاف قائم على الاجتهاد، وهو غير مذموم، بدليل أن النبي ﷺ لم يخطئ الشخص الآخر الذي لم يصب السنة، بل بشره بأن له سهما من الخير.

يقول سفيان الثوري-رحمه الله-: (لا تقولوا اختلف العلماء في كذا، وقولوا وسع العلماء على الأمة بكذا) (١).

قال عمر بن عبد العزيز-رحمه الله-: (ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا، لأنه لو كان قولا واحدا لكان الناس في ضيق، وأنهم أئمة يُقتدى بهم، فلو أخذ رجل بقول هذا ورجل بقول هذا، كان في سعة) (٢).

قال يحي بن سعيد-رحمه الله-: (اختلاف أهل العلم توسعه، وما برح المفتون يختلفون، فيحلل هذا، ويحرم هذا، فلا يصيب هذا على هذا، ولا هذا على هذا) (٣).

قال ابن عابدين-رحمه الله-: (الاختلاف بين المجتهدين في الفروع -لا مطلق الاختلاف- من آثار الرحمة فإن اختلافهم توسعة للناس، قال مهما كان الاختلاف أكثر كانت الرحمة أوفر) (٤).

---

(١) الميزان الكبرى ١/٢٥.

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٢/٨٠.

(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٢/٨٠.

(٤) الاختلاف في العمل الإسلامي الأسباب والآثار، ناصر بن سليمان العمر صـ٢٣.

روى أبو النعيم بسنده عن سفيان الثوري قوله: (إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي اختلف فيه وأنت ترى غيره فلا تنهه) [١].

قال شيخ الإسلام-رحمه الله-: (النزاع في الأحكام قد يكون رحمة إذا لم يفض إلي شر عظيم من خفاء الحكم. والحق في نفس الأمر واحد، وقد يكون خفاؤه على المكلف -لما في ظهوره من الشدة عليه- من رحمة الله به، فيكون من باب: (لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم).

وهكذا ما يوجد في الأسواق من الطعام والثياب قد يكون في نفس الأمر مغصوبا، فإذا لم يعلم الإنسان بذلك كان كله حلالا لا شيء عليه فيه، بخلاف ما إذا علم. فخفاء العلم بما يوجب الشدة قد يكون رحمة، كما أن خفاء العلم بما يوجب الرخصة قد يكون عقوبة، كما أن رفع الشك قد يكون رحمة وقد يكون عقوبة. والرخصة رحمة. وقد يكون مكروه النفس أنفع كما في الجهاد)[٢].

وقال القاسم بن محمد: (لقد نفع الله باختلاف أصحاب النبي ﷺ في أعمالهم، لا يعمل العامل بعمل رجل منهم إلا رأى أنه في سعة، ورأى أن خيرا منه قد عمله، وقال لقد وسع الله على الناس باختلاف أصحاب محمد ﷺ أي ذلك أخذت به لم يكن في نفسك منه شيء) [٣].

فالاختلاف وقع من الصحابة والتابعين، ورأوا أن فيه توسعة على الأمة.

---

(١) حلية الأولياء ٣٦٨/٦.

(٢) الموسوعة الفقهية بتصرف ٢٩٥/٢-٢٩٦.

(٣) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر ٨٠/٢.

قال الشاطبي: (ومعنى هذا أنهم فتحوا بابا من الاجتهاد، وجواز الاختلاف فيه، لأنهم لو لم يفتحوه لكان المجتهدون في ضيق، فوسع الله على الأمة بوجود الخلاف الفرعي فيهم فكان فتح باب للأمة للدخول في هذه الرحمة) (١).

والتوسعة هنا ترفع الحرج على الناس، فبأي أراء الأئمة أخذت فأنت على صواب، واجتهاد الأئمة قائم على دليل معتبر.

قال إسماعيل بن إسحاق القاضي: (إنما التوسعة في اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ توسعة اجتهاد ورأي، واختلافهم يدل على أنهم اجتهدوا فاختلفوا) (٢). فالعيب ليس في الاختلاف، وإنما العيب الحقيقي في اختلاف الناس حول مسائل الاختلاف.

والإثم مرفوع عن كل مجتهد ولو أخطأ، لأن الخطأ وارد بطبيعة الإنسان، كما أنه اجتهد قدر الوسع والاستطاعة. وفي الحديث يقول ﷺ: **"إذا حكم الحاكمُ فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجرٌ"** (٣).

قال شيخ الإسلام: (لا إثم على من اجتهد وإن أخطأ) (٤).

وقال الآمدي: (وأتفق أهل الحق من المسلمين على أن الإثم محطوط عن المجتهدين في الأحكام الشرعية) (٥).

---

(١) الاعتصام للشاطبي ١٧٠/٢.

(٢) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر ٨٢/٢.

(٣) الحديث أخرجه الألباني في صحيح النسائي (٥٣٩٦) عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٢٣/١٩.

(٥) الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي ٢٤٤/٤.

والاختلاف واقع في الفروع وليس في الأصول، وواقع في الجزئيات وليس في الكليات، حيث يتعذر الاتفاق بين العلماء في جميع الفروع والجزئيات.

قال الشاطبي-رحمه الله-: (فإن الله -تعالى- حكم بحكمته أن تكون فروع هذه الملة قابلة للأنظار، ومجالا للظنون، وقد ثبت عند النظار، أن النظريات لا يمكن الاتفاق فيها عادة، فالظنيات عريقة في أماكن الاختلاف، لكن في الفروع دون الأصول، وفي الجزئيات دون الكليات، فلذلك لا يضر هذا الاختلاف) (١).

وسئل القاسم بن محمد -رحمه الله-: عن القراءة خلف الإمام فيما لم يجهر، قال: (إن قرأت فلك في رجال من أصحاب رسول الله ﷺ أسوة) (٢).

قال ابن تيمية-رحمه الله-: (ليس للفقيه أن يحمل الناس على مذهبه، وكان بعض العلماء يقول: (إجماعهم حجة قاطعة، واختلافهم رحمة واسعة) (٣).

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: عمن يقلد بعض العلماء في مسائل الاجتهاد أو عمل بأحد القولين، فقال: (مسائل الاجتهاد من عمل فيها بقول بعض العلماء لم ينكر عليه، وإذا كان يظهر له أحد القولين عمل، وإلا قلد بعض العلماء الذين يعتمد عليهم في بيان أرجح القولين) (٤).

ولقي سيدنا عمر رجلا فقال له: (ما صنعت -أي في مسألة كانت معروضة للفصل فيها- فقال الرجل: قضى علي وزيد بكذا، فقال عمر: لو كنت أنا لقضيت

---

(١) الاعتصام، للشاطبي ١٦٨/٢.

(٢) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر ٨٠/٢.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٨٠١/٣٠.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢٠٧/٢.

بكذا، قال الرجل: ما يمنعك والأمر إليك، قال: لو كنت أردك إلي كتاب الله أو إلي سنة نبيه ﷺ لفعلت، ولكني أردك إلي رأي، والرأي مشترك) (١).

يقول الإمام أبو حنيفة: (هذا الذي نحن فيه رأي، لا نجبر أحدا عليه، ولا نقول يجب على أحد قبوله بكراهية فمن كان عنده شيء أحسن منه فليأت به) (٢).

قال يحيى بن سعيد: (ما برح أولو الفتوى يفتون فيحل هذا، ويحرم هذا، فلا يرى المحرم أن المحلل هلك لتحليله، ولا يرى المحل أن المحرم هلك لتحريمه) (٣).

فإلزام الناس برأي واحد في جميع المسائل الاجتهادية والمختلف فيها، لم يقل به أحد من سلف الأئمة على الإطلاق، بل المأثور عنهم على خلافه.

وأئمة المذاهب المشهورة رفضوا حمل الناس على آرائهم واجتهاداتهم وفتواهم.

ومن ثم إنكار المنكر يكون في المسائل المجمع عليها، والتي ليست من مسائل الاجتهاد والاختلاف، قال النووي: (وأما المختلف فيه فلا إنكار فيه، لأن على أحد المذهبين كل مجتهد ومصيب، وهذا هو المختار عند كثير من المحققين أو أكثرهم، وعلى المذهب الآخر فالمصيب واحد، والمخطئ غير معين لنا، والإثم مرفوع عنه) (٤).

قال السيوطي: (لا ينكر المختلف فيه، وإنما ينكر المتفق عليه) (٥).

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٦٥/١.

(٢) الانتقاء لابن عبد البر صـ ١٤٠.

(٣) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر ٨٠/٢.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ٢٣/٢.

(٥) الأشباه والنظائر للسيوطي صـ ١٥٨.

وقال سفيان الثوري-رحمه الله-: (وإذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي اختلف فيه وأنت ترى غيره فلا تنهه) [١].

وقال الخطيب البغدادي-رحمه الله-: (ما اختلف فيه الفقهاء، فلا أنهى أحدا من إخواني أن يأخذ به)[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-: (مسائل الاجتهاد من عمل فيها بقول بعض العلماء، لم ينكر عليه، ولم يهجر، ومن عمل بأحد القولين، لم ينكر عليه) [٣].

وعند النقد في الخلاف، ينبغي أن يوجه النقد إلي الفعل الخاطئ، دون التعرض للشخص المخطئ، ففي قصة الثلاثة الذين أتوا إلي بيوت أزواج النبي ﷺ كما جاء في الحديث: "جاء ثلاثُ رهطٍ إلي بُيوتِ أزواجِ النبيِّ ﷺ يَسأَلونَ عن عبادةِ النبيِّ ﷺ فلما أُخبِروا كأنهم تَقالُّوها، فقالوا: أين نحن منَ النبيِّ ﷺ؟ قد غفَر اللهُ له ما تقدَّم من ذَنْبِه وما تأخَّر، قال أحدُهم: أما أنا فإني أُصلِّي الليلَ أبدًا، وقال آخَرُ: أنا أصومُ الدهرَ ولا أُفطِرُ، وقال آخَرُ: أنا أعتزِلُ النساءَ فلا أتزوَّجُ أبدًا، فجاء رسولُ الله ﷺ فقال: أنتمُ الذين قلتُم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصومُ وأُفطِرُ، وأُصلِّي وأرقُدُ، وأتزوَّجُ النساءَ، فمَن رغِب عن سُنَّتي فليس مني"[٤].

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم ٣٦٨/٦، مطبعة السعادة ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

(٢) كتاب الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي، صـ ٦٩/٢، نشر، دار إحياء السنة النبوية، مكة المكرمة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٠٧/٢٠.

(٤) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٥٠٦٣) عن أنس بن مالك ﷺ.

فالنبي ﷺ تعرض لفعلهم الذين خالفوا فيه هديه، ولم يتعرض لأشخاص بالتجريح أو النقد، حفظا على حسن العلاقة بين أفراد المجتمع، مع تصويب الخطأ، إذ الهدف التصحيح والتقويم، لا التشهير والتفضيح، وذم العمل الخاطئ والمخالف، وليس صاحب العمل الذي اقترفه ووقع فيه.

ومعروف أن الخلاف بين الأفراد يحل بالتعاون والتقارب والحوار، والتماس الأعذار، ولا يحل بالتطاول والتشهير، والخصومة والنيل من الآخرين.

والواقع المعاصر يحتاج إلي تضافر الجهود الدعوية، لتحقيق أهداف الدعوة، فلا يمكن أن تحقق الدعوة ثمرتها، والدعاة يعيشون بمعزل بعضهم عن بعض، أو في خلاف دائم ومستمر، أو يعيشون في عزلة عن المدعوين.

فإذا كانت المسألة من المسائل الاجتهادية، التي تتعدد فيها الآراء، وتختلف فيها أحكام الفقهاء، فلا يجوز الإنكار على المخالف فيها، لعدم وجود نص قطعي الدلالة يحسم المسألة، ولأنها ليست من المسائل المجمع عليها، وليسع الجميع فيها ما وسع الصحابة والسلف الصالح-رضوان الله عليهم-.

وهذا هو نهج علماء الأمة من السلف في القرون الخيرية في الإسلام، كانوا يختلفون في المسألة الواحدة إلي عدة آراء، ولا يجرح بعضهم بعضا، أو يسفه بعضهم بعضا، بل يلتمس له العذر.

❁❁❁

المبحث الخامس

القاعدة الخامسة: مراعاة أحوال المدعوين.

مقدمة

القيام بواجب الدعوة إلي الله ﷻ يتطلب من الدعاة معرفة حال المدعوين، وطبائعهم، وجنسياتهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، ومستوياتهم العلمية، ومشكلاتهم الاجتماعية، والبيئة التي يعيشون فيها، وعلى قدر معرفة هذه الظروف تكون لغة الخطاب، التي تتناسب مع عقولهم، ومستوياتهم، فدعوة العالم ليس كدعوة الجاهل، والمدني ليس كالأعرابي، والملأ ليس كأفراد الناس، وأهل الكتاب ليسوا كالمشركين أو الملاحدة، وهكذا.

كما أن طبيعة المرحلة تختلف فيها أيضا لغة الخطاب وموضوعه، فمثلا خطابات النبي ﷺ في مكة، تختلف عنها في المدينة، ففي مكة كانت تقوم على الدعوة إلي التوحيد، والإيمان بالرسالة والرسول ﷺ واليوم الآخر، وفي المدينة كانت خطاباته تقوم على تشريع الأحكام جملة وتفصيلا، ومن ثم مراعاة أحوال المخاطبين، يعد من قواعد الدعوة وفقهها، حتى تؤتي أكلها، وتحقق ثمرتها، وتصل إلي مبتغاها، على أتم وجه، وأحسن صورة.

يقول د محمود عمارة: (إن الدعوة إلي الله ينبغي أن تعرض على نحو يوائم طبائع الناس، وباللغة التي يفهمونها، على لسان رجل منهم، يخاطبهم بما يلامس أفئدتهم، ويوافق أغراضهم، لتحقيق الغاية من وجودهم) [١].

وكل صنف من المدعوين، له ما يناسبه من الوسائل والأساليب، التي تتفق مع طبيعته الدعوية، حتى يقبلوا ما يوجه إليهم من نصح وتوجيه وإرشاد، وهذا يتطلب من الداعية مهارة عالية في اختيار الوسيلة، التي تناسب نفسية المدعوين وطبيعتهم.

❁❁❁

المطلب الأول: التعريف بمراعاة أحوال المدعوين.

كلمة مراعاة في اللغة تعني: المراقبة، والملاحظة، والتأمل، (يقال راعى الأمر: إذا نظر إلي أين يصير، وراعاه: لاحظه من مراعاة الحقوق) [٢].

وفي المعجم الوسيط:(مراعاة الأمر: حفظه وراقبه، وأخذ بعين الاعتبار) [٣].

والمراعاة: (مراعاة الإنسان للأمر، مراقبته إلي ماذا يصير، وماذا منه يكون، ويسمى كل سائس لنفسه أو لغيره راعيا) [٤].

فكلمة مراعاة، فيها معنى النظر والمراقبة والتأمل، وكذلك الأمر بالنسبة للدعاة، فهم ينظرون في أحوال المدعوين، للنظر في أفضل الطرق في التعامل معهم.

---

(١) نحو أسلوب أمثل للدعوة الإسلامية، د. محمود محمد عمارة، صـ٢٧٣ دار التراث العربي القاهرة، ط/ الثانية ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

(٢) نحو أسلوب أمثل للدعوة الإسلامية، د. محمود محمد عمارة، صـ ٢٧٣ دار التراث العربي القاهرة، ط/ الثانية ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

(٣) المعجم الوسيط ٢٥٣.

(٤) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني صـ ١٩٨.

والمقصود بالحال: الحالة التي عليها المدعو من الصفات الشخصية والأحوال المحيطة به.

والمدعو: (هو الإنسان المخاطب بدعوة الإسلام، أي الإنسان البالغ العاقل، ذكرا أو أنثى، مهما كان جنسه، ولونه، وبلده، ومهنته، إلي غير ذلك من الفروق بين البشر) (١).

والخلاصة أن مراعاة أحوال المدعوين تعني: مراقبة وملاحظة هيئة المدعو، وظروفه المحيطة به، ومخاطبته بما يلائمه، حسب مقتضى حالته.

❁❁❁

المطلب الثاني: تقسيم المدعوين في القرآن الكريم.

المدعون أصناف وأشكال شتى، بعضهم يقع في دائرة الإسلام، وبعضهم يعيش خارج تلك الدائرة، والتعامل مع كل صنف يختلف حسب قربه أو بعده عن مركز الدائرة.

وتقسيم القرآن الكريم للمدعوين في خطابه معهم، ومخاطبة كل فريق منهم بما يتناسب مع حالته، يدل دلالة واضحة على أن هناك قواعد ضابطة للتعامل معهم.

فالقرآن الكريم قسم المدعوين إلي عدة أقسام؛ حتى يحدد كيفية التعامل مع كل قسم حسب معتقده وظروفه وحالته، ومن أقسام المدعوين ما يأتي:

---

(١) أصول الدعوة، د. عبد الكريم زيدان، صـ ٣٥٨، مكتبة دار الوفاء المنصورة، ط/ السادسة ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

وأصناف المدعوين وكيفية دعوتهم د/ محمود بن أحمد الرحيلي صـ٤٥.

١- كفار أو مشركون، وهم الذين يتخذون مع الله معبودات أخرى مثل مشركي قريش. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾[١].

٢- وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾[٢].

٣- الدهريون أو الملاحدة، وهم الشيوعيون حاليا، الذين ينكرون وجود الله بالجملة، وكذا النبوات، واليوم الآخر، وينسبون كل شيء إلي الطبيعة، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤﴾[٣].

٤- وهناك المنافقون وهم الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۘ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١﴾[٤].

٥- وهناك خطاب الملوك والأمراء، ففي أواخر السنة السادسة حين رجع رسول الله ﷺ من الحديبية كتب إلي الملوك يدعوهم إلي الإسلام.

---

(١) سورة البقرة الآيتان (٦-٧).
(٢) سورة آل عمران الآية (٧٥).
(٣) سورة الجاثية الآية (٢٤).
(٤) سورة المنافقون الآية (١).

٦- وهناك المسلم العاصي الذي يقترف الذنوب والمعاصي، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾[١].

٧- وهناك المسلم الطائع، وهم المتقون الذين عناهم القرآن الكريم في آيات كثيرة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾[٢].

وهذا التقسيم من القرآن الكريم ليبين للداعية أن كل قسم له ما يناسبه من الخطاب الدعوى، ليتعلم الدعاة مراعاة أحوال المدعوين، وكيفية التعامل مع كل صنف منهم على هدى وبصيرة ونور.

❁❁❁

المطلب الثالث: مراعاة أحوال المدعوين في السنة النبوية.

وجاءت في السنة النبوية نماذج كثيرة، وصور متعددة، لمراعاة النبي ﷺ لأحوال المدعوين من المسلمين حين يخاطبهم، أو يعظهم، أو يعلمهم، فأحيانا ترى السؤال واحدا، وتتعدد الإجابات وتختلف، مراعاة لأحوال السائلين، وهذا له شواهد كثيرة في السنة النبوية.

من ذلك حديث أنَّ رجلًا قال للنبيِّ ﷺ أَوصِني، قال:" (**لا تَغضَبْ**). فردَّد مِرارًا، قال: (**لا تَغضَبْ**)"[٣].

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٣٥).

(٢) سورة البقرة الآية (٣).

(٣) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٦١١٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وابن مسعود يقول: سألتُ رسولَ الله ﷺ قُلْت: يا رسولَ الله، أيُّ العملِ أفضَلُ؟ قال: **"الصلاةُ علَى ميقاتِها. قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: ثم بِرُّ الوالِدَينِ. قُلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ. فسكتُّ عن رسولِ اللهِ ﷺ ولو استَزَدتُهُ لزادَني"**(١).

وقال: **"أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله"**(٢)

وقال رجلٌ يا رسولَ الله ما الإسلامُ قال **أن يسلَمَ لله قلبُك وأن يسلَمَ المسلمون من لسانِك ويدِك قال فأيُّ الإسلامِ أفضلُ قال الإيمانُ قال وما الإيمانُ قال أن تُؤمنَ بالله وملائكتِه وكتبِه ورسلِه والبعثِ بعد الموتِ قال فأيُّ الإيمانِ أفضلُ قال الهجرةُ قال وما الهجرةُ قال أن تهجُرَ السُّوءَ قال فأيُّ الهجرةِ أفضلُ قال الجهادُ قال وما الجهادُ قال أن تُقاتلَ الكفَّارَ إذا لقِيتَهم قال فأيُّ الجهادِ أفضلُ قال من عقَر جوادَه وأُهرِيق دمُه قال رسولُ الله ﷺ ثمَّ عملان هما أفضلُ الأعمالِ إلَّا من عمِل عملًا بمثلِها حجَّةٌ مبرورةٌ أو عمرةٌ مبرورةٌ"**(٣).

وسُئل النبي ﷺ فقيل: أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ فقال ﷺ **الإسلامُ فقال: أيُّ الإسلامِ أفضلُ فقال ﷺ: الإيمانُ** (٤).

---

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٢٧٨٢) عن ابن مسعود ﷺ.

(٢) الحديث أخرجه الإمام أبو داود (٤٥٩٩) عن أبي ذر ﷺ.

(٣) الحديث ذكر الإمام المنذري في الترغيب والترهيب ١٦٦/٢ عن عمرو بن عبسة ﷺ.

(٤) الحديث أخرجه الإمام العراقي في تخريج الإحياء ١٦١/١ إسناده صحيح عن عمرو بن عبسة ﷺ.

وسأل رجل النبيَّ ﷺ أيُّ الإسلامِ خيرٌ؟ قال: **تُطعِمُ الطعامَ، وتَقرَأُ السلامَ، على من عَرَفتَ، وعلى من لم تَعرِفْ.** (١).

فالاختلاف في الجواب مراعاة من النبي ﷺ للحالة الخاصة بالسائل، فهو يعلم مواطن الضعف والقصور عنده، فيقدم لكل حالة ما يحقق مصلحتها، ومن ثم كانت إجاباته مختلفة.

❁❁❁

المطلب الرابع: تنوع الخطاب الدعوي مع المدعوين.

الداعية مثل الطبيب الذي يعالج أمراض الناس، فهو يحتاج إلي حكمة عالية في تشخيص المرض، وتقديم العلاج المناسب، والجرعة المناسبة، ومن ثم جاء التوجيه النبوي في مراعاة أحوال المدعوين عند التعامل معهم: **(حدثوا الناس بما يعرفون)** (٢).

وحديث معاذ بن جبل أن النبيَّ ﷺ ومُعاذٌ رَديفُهُ علَى الرَّحْلِ، قال: **"يا مُعاذَ بنَ جبلٍ. قال: لَبَّيْكَ يا رسولَ الله وسعدَيكَ، قال: يا مُعاذُ. قال: لَبَّيْكَ يا رسولَ الله وسعدَيكَ، ثلاثا، قال: ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسولُ الله، صدقًا من قَلْبِهِ إلا حرمهُ اللهُ على النارِ. قال: يا رسولَ الله، أفلا أُخبِرُ به الناسِ فَيَسْتَبْشِروا؟ قال: إذًا يَتَّكِلُوا. وأخبرَ بها مُعاذٌ عِندَ موته تأثُّمًا"**(٣).

---

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٢٨) عن عبد الله بن عمرو-رضي الله عنهما-.

(٢) الحديث أخرجه الإمام البخاري (١٢٧) عن عامر بن واثلة الطفيل ﷺ.

(٣) الحديث أخرجه الإمام البخاري (١٢٨) عن انس بن مالك ﷺ.

فالداعية مطالب بأن يخاطب كل قوم بما يفهمون، وبما يتناسب مع عقولهم ومستواهم الثقافي، فعن أبي هريرة ﷺ قال: "حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم"[١]

يقول ابن حجر: (والمقصود بالوعاء الآخر، هو أحاديث الفتن، وأحاديث أشراط الساعة، أو الأحاديث التي فيها يتبين أسامي أمراء السوء وأحوالهم وذمهم) [٢].

عنون الإمام البخاري لحديث عَلِيٌّ: (حَدِّثوا الناسَ، بما يَعْرِفونَ أتُحِبُّونَ أنْ يُكَذَّبَ، اللهُ وَرَسولُهُ)[٣].

بقوله: (باب من خص بالعلم قوما دون قوم، كراهية ألا يفهموا).

فالناس متفاوتون في معارفهم ومداركهم وثقافتهم وأفكارهم وطبائعهم وتصوراتهم وأخلاقهم، وهذا يتطلب من الداعية أن يراعي كل ما سبق، عند التعامل مع المدعوين، فقد خاطب القرآن الكريم كل صنف بما يتناسب مع معتقداته، وما يتلاءم مع ظروفه.

ومراتب استخدام الوسائل مع المدعوين تكون كالآتي:

(١- إن المستجيب الذكي، القابل للحق، الذي لا يعانده ولا يأباه، وهذا يبين له الحق علما وعملا واعتقادا، فيقبله ويعمل به.

---

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري (١٢٠) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٢١٦/١-٢١٧.

(٣) ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٣٦٩٣) حسن عن على بن أبى طالب ﷺ.

٢- القابل للحق المعترف به، لكن عنده نوع غفلة وتأخر، وله أهواء وشهوات تصده عن اتباع الحق، فهذا يدعى بالموعظة الحسنة المشتملة على الترغيب في الحق والترهيب من الباطل.

٣- المعاند الجاحد، فهذا يجادل بالتي هي أحسن) [١].

والحكمة وضع الشيء في موضعه، بلا زيادة أو نقصان، واستخدام الوسيلة التي تناسب مع كل فرد من المدعوين، حتى نحقق غايتها وتؤتي ثمرتها.

ويتطلب من الداعية نحو المدعو التعرف على هذه الأمور:

البيئة التي يعيش فيها المدعو.

أن يتعرف على أفكاره واتجاهاته وميوله الفكرية.

أن يتعرف على ظروفه الاجتماعية وأثر البيئة في شخصيته.

أن يتعرف على مستواه العلمي والثقافي.

أن يتعرف جيدا على لغته التي يتكلم بها، حتى يفهم عليه حديثه، والله تعالى يقول: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤ ﴾ [٢].

قال ابن كثير: (وهذا من لطف الله بخلقه، أن يرسل إليهم رسلا منهم بلغاتهم، ليفهموا عنهم ما يريدون، وما أرسلوا به إليهم) [٣].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ٢/٤٤-٤٥، ١٥/٢٤٣، ١٩/١٦٤، ومفتاح دار السعادة لابن القيم ١/١٩٤.

(٢) سورة إبراهيم الآية (٤).

(٣) تفسير ابن كثير ٤/٤٧٧.

١ - كما أن القرآن الكريم خاطب المشركين بما يتناسب مع معتقداتهم في الشرك والتعدد، وهم يعتقدون في توحيد الربوبية، وينكرون توحيد الألوهية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[١].

فأقام عليهم الحجة الدامغة، حيث إنه من مقتضيات توحيد الألوهية، لأن الخالق والرب هو الجدير بالعبادة وطلب العون والمساعدة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾[٢].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[٣].

المشركون ليسوا أصحاب كتب الإلهية، وعقائدهم موروثة عن الآباء والأجداد، وهي تقوم على إشراك آلهة متنوعة ومتعددة مع الله ﷻ.

ورغم أن ذلك ترفضه الفطرة السليمة، والعقول السوية، والبصائر النافذة، وهؤلاء توجه إليهم الدعوة بالنظر في كون الله وملكوته، والنظر في النفس، والخلق والتكوين، والموت والحياة، ويدعون للتفكير العقلي المجرد، فرادى وجماعات، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾[٤].

---

(١) سورة العنكبوت الآية (٦١).
(٢) سورة الأعراف الآية (١٩٤).
(٣) سورة النحل الآية (٢٠-٢١).
(٤) سورة سبأ الآية (٤٦).

٢-وخاطب القرآن الكريم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بتنبيههم إلي ما يجدونه عندهم في كتبهم، من صفة النبي ﷺ الخاتم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[1].

كما أن القرآن أرشدهم إلي أن دعوة محمد موافقة إلي الأصول التي جاء بها موسى وعيسى -عليهما السلام- فليست دعوته بدعا من الدعوات، ولا رسالته مختلقة من عند نفسه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾[2].

وبالرغم من أنهم قاموا بالتحريف والتبديل والتغيير، اتخذ القرآن معهم طريقة خاصة في التعامل معهم، حيث لم يسوي بينهم جميعا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٥٧).

(٢) سورة الشورى الآية (١٣).

(٣) سورة آل عمران الآيتان (١١٣-١١٥).

والقرآن الكريم خاطب أهل الكتاب بما يتناسب مع معتقداتهم، حيث أقروا بتوحيد الربوبية، وآمنوا ببعض الأنبياء السابقين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[1].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ ﴾[2].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾[3].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾[4].

إن أهل الكتاب يدعون إلي التوحيد الخالص النقي، بإفراد الله ﷻ بالربوبية والألوهية، ونفي الولد والزوجة والشريك عن الله ﷻ وذلك بأحسن الطرق في

---

(1) سورة العمران الآية (٦٤).
(2) سورة النساء الآية (١٧١).
(3) سورة المائدة الآية (٧٥).
(4) سورة المائدة الآية (٦٨).

الخطاب والحوار، وأن هناك نقاطا مشتركة تقرب المسافة بينهم وبين المسلمين من أجل التعايش، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ ﴾[1].

فيدعون إلي تحكيم المنزل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٨ ﴾[2].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ١٨٧ ﴾[3].

ويدعون إلي الإيمان بنبي الإسلام وخاتم المرسلين: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦ ﴾[4].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧ ﴾[5].

([1]) سورة العنكبوت الآية (٤٦).

([2]) سورة المائدة الآية (٦٨).

([3]) سورة آل عمران الآية (١٨٧).

([4]) سورة الصف الآية (٦).

([5]) سورة الأعراف الآية (١٥٧).

فالقرآن أمرهم باتباع ما يعتقدونه من إيمان بالكتب المنزلة عليهم، خاصة ما سلم من التحريف منها، ولو فعلوا ذلك لساقهم إلي الإيمان بالقرآن الكريم، وبنبوة محمد ﷺ.

وفي السنة النبوية جاء خطاب النبي ﷺ لليهود، بوجوب التزامهم بأحكام التوراة الصحيحة، التي سلمت من التحريف، وذلك حينما أتى إليه بزان منهم، كما في الحديث: (**مُرَّ على النبيِّ ﷺ بيهوديٍّ محمَّمًا مجلودًا، فدعاهم ﷺ فقال: (هكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم؟)**.

قالوا: نعم. فدعا رجلًا من علمائهم. فقال: **"أنشدك بالله الذي أنزلَ التوراةَ على موسى أهكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابِكُم؟"** قال: لا. ولولا أنك نشدْتَنِي بهذا لم أُخْبِرْكَ. نجدُه الرجمَ. ولكنَّهُ كثُرَ في أشرافِنا. فكنا، إذا أخذنا الشريفِ تركناهُ. وإذا أخذنا الضعيفَ أقمنا عليهِ الحدَّ. قلنا: تعالوا فلنجتمعْ على شيءٍ نُقيمُه على الشريفِ والوضيعِ. فجعلنا التحميمَ والجلْدَ مكانَ الرجمِ.

فقال رسولُ الله ﷺ **"اللهم! إني أولُ من أحيا أمركَ إذا أماتوهُ"**. فأمرَ بهِ فرُجِمَ. فأنزل اللهُ ﷻ: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ). إلي قولِه: (إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ) [٥/ المائدة/ ٤١] يقول: ائتوا محمدًا ﷺ. فإن أمركم بالتحميمِ والجلدِ فخذوهُ. وإن أفتاكم بالرجمِ فاحذروا. فأنزل اللهُ تعالى: (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) [٥/ المائدة/ ٤٤]. (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ

الظَّالِمُونَ) [٥/ المائدة/ ٤٥]. (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) [٥/ المائدة/ ٤٧]. في الكفارِ كلَّها. وفي روايةٍ: نحوَه. إلي قولِه: فأمر بهِ النبيُّ ﷺ فرُجِمَ)[١].

وخاطب نصارى نجران بنبذ عبادة الأشخاص، وعبادة الله وحده، وقد كتب إليهم كتابا بذلك، جاء فيه: (فإني أدعوكم إلي عبادة الله، من عبادة العباد، وأدعوكم إلي ولاية الله، من ولاية العباد)[٢].

٣-وخاطب الدهرين الذين أنكروا وجود الله بالكليلة، وينضم إليهم الشيوعيون في العصر الحديث، بإثبات وجود الخالق ﷻ مثل قوله تَعَالَىٰ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[٣]. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾[٤].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[٥].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾[٦].

فالقرآن خاطبهم بإثبات وجود الله ﷻ من خلال النظر في الآيات الكونية والإنسانية، والتفكر في المخلوقات لمعرفة الخالق ﷻ.

---

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم (١٧٠٠) عن البراء بن عازب ﷺ.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢١٥، ٢٢٥.
(٣) سورة الطور الآية (٣٥).
(٤) سورة لقمان الآية (١١).
(٥) سورة الروم الآية (٢٠).
(٦) سورة البقرة الآية (٢٥٨).

٤-وخاطب المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، فيظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، وهؤلاء يعاملون معاملة المسلمين في الظاهر، مع الحذر والاحتراس منهم، فهم لا يثبتون على حالة واحدة، فهم يتظاهرون بالإيمان مع المؤمنين إن انتصروا، وهم على المؤمنين إن هزموا أو غُلِبوا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾[1].

وهؤلاء يوعظون بالتخويف من عواقب الأمور في الدنيا والآخرة، وينصحون بالتوبة والإنابة والرجوع إلي الله، وترك النفاق وأعماله.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾[2]. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾[3].

وإذا لم يستجيبوا للنصح والتوجيه، يستخدم معهم أسلوب التهديد والوعيد، بالكشف عن أعمالهم ومخططاتهم، وتحذير الناس من شرهم وفكرهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّئِن

([1]) سورة النساء الآية (١٤١).

([2]) سورة النساء الآيتان (١٤٦-١٤٧).

([3]) سورة النساء الآية (٦٣).

لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ ﴾[1].

والنفاق لا يظهر إلا إذا كان المجتمع المسلم في قوة وتمكين، وتكون له دولة مهابة الجانب، قوية الساعد، ذات بأس شديد.

٥-وخاطب الرسول ﷺ إلي الملوك والأمراء، وقام بدعوتهم للإسلام، واختلفت كتبه ورسائله بعضها عن بعض، وذلك حسب اختلاف ديانتهم ومعتقداتهم، إلي غير ذلك.

فعن عائشة قالت: "أمرنا رسول الله أن ننزل الناس منازلهم، مع ما نطق به القرآن من قوله تعالى: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾"[2].

فخاطب النبي ﷺ النجاشي حاكم الحبشة وهرقل وهما من أهل الكتاب، بخطاب يختلف عما خاطب به كسرى المجوسي من عبدة الأوثان، فراعى مقتضى حال كل واحد منهم، ومن ثم اختلف الخطاب في أسلوبه ومضمونه.

كتابه ﷺ إلي النجاشي ملك الحبشة: وقد أرسل إليه الرسول ﷺ عمرو بن أمية الضمري حاملا كتابه إليه يقول فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلي النجاشي ملك الحبشة. فإني أحمد الله تعالى إليك، الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلي مريم البتول الطيبة الحصينة، حملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده،

---

(١) سورة الأحزاب الآية (٦٠).

(٢) الحديث أخرجه الحاكم في معرفة علوم الحديث (٩٦) عن عائشة ﵂. والآية من سورة يوسف (٧٦).

وإني أدعوك إلي الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله وإني أدعوك وجنودك إلي الله ﷻ وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى...).

وبعث النجاشي بكتاب إلي رسول الله ﷺ هذا نصه: (بسم الله الرحمن الرحيم. إلي محمد رسول الله ﷺ من النجاشي أصحمة. سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته. الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت، إنه كما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد عرفنا ابن عمك (جعفر بن أبى طالب) وأصحابك، فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا، وقد بايعتك، وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين)[1].

وكانت نتيجة هذا الكتاب أن أسلم النجاشي، وشهد شهادة الحق، بعدما تبين له موقف الإسلام المنصف من عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته، وقد لمس فيه النبي ﷺ جانب الإنصاف من قبل حينما أمر الصحابة بالهجرة إلي الحبشة، وقال لهم اذهبوا إلي الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، فأكرم وفادة المهاجرين من الصحابة، ورفض أن يسلمهم إلي قريش، فكان موقفه عظيما تجاه الإسلام والمسلمين.

وكتب النبي ﷺ إلي الملوك والأمراء بما يتناسب مع مكانتهم الاجتماعية، وصنع لنفسه خاتما ينقش به الكتب، وقد قيل له: إنهم لا يقرءون كتابا إلا وعليه خاتم، فاتخذ النبي ﷺ خاتما من فضة، نقشه: محمد رسول الله ﷺ وكان هذا النقش ثلاثة أسطر: محمد

([1]) خاتم النبيين، للشيخ محمد أبو زهرة المجلد الثاني، ٣/٩٧٧-٩٧٩ دار الفكر العربي. ط/ الأولى سنة ١٩٧٢م.

سطر، ورسول سطر، والله سطر، هـكذا. واختار من أصحابه رسلا لهم معرفة وخبرة، وأرسلهم إلي الملوك.

كتابه ﷺ إلي هرقل عظيم الروم: أرسل النبي ﷺ دحية بن خليفة الكلبي ﷺ حاملا كتابه ﷺ إلي هرقل قيصر الروم وهذا نصه: (بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلي هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[1].

وكان هرقل قد أرسل في طلب بعض تجار قريش الذين كانوا بالشام حينئذٍ وفيهم أبو سفيان - قبل إسلامه- فسأله هرقل عن صفة النبي ﷺ وأحواله فأجابه أبو سفيان... ثم قال هرقل: (... فإن كان ما تقوله حقا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت قدميه...)[2].

وأما كتاب النبي ﷺ إلى كسرى ملك فارس فقال فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلي كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدي، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله،

---

(١) انظر الرحيق المختوم في كتبه ﷺ إلي الملوك والرؤساء، والآية من سورة آل عمران(٦٤).

(٢) انظر الحديث مطولا أخرجه الإمام البخاري (٢٩٤٠) عن أبي سفيان بن حرب ﷺ.

وأدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلي الناس كافة، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك.

ولم تكن هذه الكتب هي التي أرسلها ﷺ فحسب، بل هناك كتب كثيرة دونتها كتب السنة والسير والتاريخ. وقد أوردت هذه النماذج لتدل على المقصود والمطلوب، ولم استقص باقي الكتب خشية الإطالة.

٦-كما أن القرآن الكريم خاطب عصاة المسلمين بما يتناسب مع إيمانهم الذي في قلوبهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[1].

وأحيانا يخاطبهم بالترغيب وعدم اليأس والقنوط من رحمة الله، وسرعة العودة إليه ﷻ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾[2]. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾[3].

([1]) سورة الحديد الآية (١٦).

([2]) سورة الزمر الآية (٥٣).

([3]) سورة التحريم الآية (٨).

وأحيانا يخاطبهم بالترهيب والوعيد الشديد، مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾[1].

وتارة أخرى يجمع بين الترغيب والترهيب في آية واحدة، مثل قوله تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾[2]. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾[3]. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾[4].

المسلم العاصي يستخدم معه أسلوب الوعظ بالتخويف والتذكير من عقاب الله وبطشه في الدنيا والآخرة. وعامة أهل الإسلام يقعون تحت هذا التقسيم القرآني، في توصيف المسلمين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾[5].

٧- وأما المسلم الطائع فخاطبه القرآن الكريم بأن طلب منه المداومة على الطاعة والاستقامة على طريق الإيمان حتى الممات، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ

---

(١) سورة البقرة الآيتان (٢٧٨-٢٧٩).
(٢) سورة الحجر الآيتان (٤٩ – ٥٠).
(٣) سورة غافر الآية (٣).
(٤) سورة الفرقان الآية (٧٦).
(٥) سورة فاطر الآية (٣٢).

ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَٰٓؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ [1].

❁❁❁

المطلب الخامس: صور من مراعاة الرسول ﷺ لحال المدعوين.

١-مراعاة الرسول ﷺ لحال المدعو، مثلما فعل مع سيد الأحابيش، الجليس بن علقمة، حيث راعى طبيعته في تعظيم الهدى، تقول الرواية في السيرة وبعثوا للرسول أيضا الحليس بن علقمة وكان يومئذ سيد الأحابيش فلما رآه الرسول قال إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه، فلما رأي الهدي يسيل عليه من عرض الوادي -جانبه- رجع إلي قريش دون أن يصل إلي الرسول إعظاما لما رأى فقال لهم ذلك فقالوا له: اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك.

فغضب الحليس عند ذلك وقال: يا معشر قريش والله ما علي هذا خلفناكم ولا على هذا عاقدناكم، أيصد عن بيت الله من جاء معظما له، والذي نفس الحليس بيده لتخلن

([1]) سورة فصلت الآيات (٣٠-٣٦).

بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد، فقالوا له: مه كف عنا يا حليس، حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به[١].

٢-كذلك مراعاة الرسول ﷺ لحال الأعرابي الذي بال في المسجد، فقد قال أبو هُرَيرَةَ: قام أعرابيٌّ فبال في المسجدِ، فتَناوَلَه الناسُ، فقال لهمُ النبيُّ ﷺ: **دَعُوه وهَريقوا على بَولِه سَجْلًا من ماءٍ، أو ذَنُوبًا من ماءٍ، فإنما بُعِثتُم مُيَسِّرينَ، ولم تُبعَثُوا مُعَسِّرينَ** [٢].

٣-كذلك مراعاة الرسول ﷺ لحال معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه حيث يقول: "بينا أنا أُصلِّي معَ رسولِ الله ﷺ. إذ عطَس رجلٌ منَ القومِ. فقلتُ: يرحمُك اللهُ! فرَماني القومُ بأبصارِهم. فقلتُ: واثُكلَ أُمِّياه! ما شأنُكم؟ تَنظُرونَ إليَّ. فجعَلوا يَضرِبونَ بأيديهم على أفخاذِهم. فلما رأيتُهم يُصَمِّتونَني. لكني سكَتُّ. فلما صلَّى رسولُ الله ﷺ. فبِأبي هو وأمِّي! ما رأيتُ مُعَلِّمًا قبلَه ولا بعدَه أحسنَ تَعليمًا منه. فو الله! ما كهَرَني ولا ضرَبَني ولا شتَمَني..."[٣].

ومع الرفق بمعاوية لطبيعة مستواه العلمي، كان يغضب إذا انتهكت حرمة من حرمات الله، وفي الحديث: "أنَّ قريشًا أهمَّهم شأنُ المرأةِ المَخزومِيَّةِ التي سرقَتْ، فقالوا: ومَن يُكَلِّمُ فيها رسولَ الله ﷺ؟ فقالوا: ومَن يَجتَرِئُ عليه إلا أسامةُ بنُ زيدٍ، حِبُّ رسولِ الله ﷺ فكلَّمه أسامةُ، فقال رسولُ الله ﷺ: أتَشفَعُ في حَدٍّ من حُدودِ الله؟. ثم قام فاختَطَب ثم قال: **"إنما أَهلَك الذين قبلَكم، أنهم كانوا إذا سرَق فيهمُ الشريفُ ترَكوه،**

---

(١) الرحيق المختوم صفي الرحمن المباركفوري في صلح الحديبية.

(٢) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٢٢٠) عن أبى هريرة رضي الله عنه.

(٣) الحديث أخرجه الإمام مسلم (٥٣٧) عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

وإذا سرَق فيهمُ الضعيفُ أقاموا عليه الحَدَّ، وايمُ اللهِ لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمدٍ سَرقَتْ لقطَعتُ يدَها" (١).

٤-كذلك مراعاة الرسول ﷺ لحال أبي ذر، قلتُ: يا رسولَ اللهِ! ألا تستعملُني؟ قال: فضرب بيدِه على منكبي. ثم قال **"يا أبا ذرٍّ! إنك ضعيفٌ، وإنها أمانةٌ، وإنها يومَ القيامةِ، خزيٌ وندامةٌ، إلا من أخذها بحقِّها، وأدَّى الذي عليهِ فيها"** (٢).

٥-وعن ميمون بن أبي شبيب، أن عائشة ﵂ مرَّ بها سائل فأعطته كسرة، ومرَّ بها رجل عليه ثياب هيئة فأقعدته فأكل، فقيل لها في ذلك، فقالت: قال رسول الله ﷺ: **"أنزلوا الناس منازلهم"** (٣).

قال أيوب السختياني: (لا تحدثوا الناس بما لا يعلمون فتضروهم) (٤).

وقال وهب بن منبه: (ينبغي للعالم أن يكون بمنزلة الطباخ الحاذق يعمل لكل قوم ما يشتهون من الطعام) (٥).

يقول د. أحمد المورعي: (ليس كل ما يقال يعلم، وليس كل ما يقال لشخص يقال لغيره، وليس كل ما يقال في بيئة، يصلح أن يقال في غيرهم) (٦).

---

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٣٤٧٥) عن عائشة ﵂.

(٢) الحديث أخرجه الإمام مسلم(٨٢٥) عن أبي ذر ﵁.

(٣) الحديث أخرجه الإمام أبو داود (٤٨٢٤) فيه ميمون بن أبي شبيب لم يدرك عائشة والحديث منقطع عن عائشة ﵂.

(٤) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي ١٠٩/٢.

(٥) المصدر السابق ١١٠/٢.

(٦) الحكمة والموعظة الحسنة وأثرهما في الدعوة إلي الله، د. أحمد المورعي صـ ٢١١، دار الأندلس الخضراء، جدة، الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

فيتعرف الداعية على خصائص الناس وأذواقهم، قال الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله-: (فالداعية إلي الله -تعالى- هو هذا الرجل الحصيف الذي يشخص العلة التي أمامه، ويهيئ لها أسباب الشفاء المناسب من كتاب الله -تعالى- وسنة رسوله ﷺ وآثار السلف الصالح -عليهم رضوان الله تعالى- وبذلك يجيء نصحه للمريض، رحمة تذهب عناءه، ونورا يهديه السبيل)[١].

وكان ابن مسعود يراعى أحوال المدعوين من الإقبال والإدبار، فيقول: (إن للقلوب شهوة وإقبالا، وفترة وإدبارا، فخذوها عند شهوتها وإقبالها، وذروها عند فترتها وإدبارها)[٢].وكان يذكرهم كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم؟ قال: "أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم، وإني أتخولكم بالموعظة، كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها، مخافة السآمة علينا".[٣].

والنفس البشرية من طبيعتها أنها تصاب بالملل والسآمة من طول المجالسة، والحديث في الموعظة التعليمية، ومع الملل ينصرف الذهن عن الاستماع ويتسرب النوم إلي العيون، ومن ثم يحتاج المدعون إلي التخول بالموعظة، كما كان يفعل النبي ﷺ وابن مسعود رضي الله عنه.

---

(١) مع الله، محمد الغزالي، صـ ١٨٥، ط/ المكتبة الإسلامية، القاهرة ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

(٢) حلية الأولياء، لأبي نعيم ١/١٣٤.

(٣) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٧٠) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وكان الحسن البصري ﷺ: (يخص بعض طلبته بالحديث، في معاني الزهد والنسك، وعلوم الباطن التي قد تلتبس على غيرهم، ولا تدركها فهومهم، فكان لا يتكلم فيها إلا في منزله معهم)[١].

وبين شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أهمية مخاطبة كل إنسان بما يلائمه، فقال: (الناس ثلاثة أقسام، إما أن يعترف بالحق ويتبعه، فهذا صاحب الحكمة، وإما أن يعترف به، لكن لا يعمل به، فهذا يوعظ حتى يعمل، وإما أن لا يعترف به، فهذا يجادل بالتي هي أحسن، لأن الجدال فيه مظنة ولا غضاب فإذا كان بالتي هي أحسن حصلت منفعته بغاية الإمكان)[٢].

قال الإمام أبو حامد الغزالي -رحمه الله-: (ومن مهام المعلم، أن يقتصر على قدر فهمه، فلا يلقى إليه مالا يبلغه عقله فينفره، أو يخبط عليه عقله، ولذلك قيل كيل لكل عبد بمعيار عقله، وزن له بميزان فهمه، حتى تسلم منه وينتفع بك، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار)[٣].

وقال ابن القيم-رحمه الله-: (فلابد من مخاطبة أهل الزمان باصطلاحهم، إذ لا قوة لهم للتشمير إلي تلقى السلوك من السلف الأول وكلماتهم وهديهم، ولو برز لهم هديهم وحالهم أنكروه، فهؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف، وعن عمق علومهم، وقلة تكلفهم)[٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي ٥٧٩/٤.
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ٤٥/٢.
(٣) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ٥٨/١.
(٤) مدارج السالكين لابن القيم ١٥٩/١.

يقول الشاطبي: (وعلى هذا النحو مر السلف الصالح في بث الشريعة للمؤالف والمخالف، ومن نظر في استدلالهم على إثبات أحكام التكليفين، على أنهم قصدوا أيسر الطرق وأقربها إلي عقول الطالبين، لكن من غير ترتيب متكلف، ولا نظم مؤلف، بل كانوا يرمون بالكلام على عواهنه، ولا يبالون كيف وقع ترتيبه، إذا كان قريب الأخذ سهل الملتمس)[1].

❁❁❁

(1) الموافقات، للشاطبي ٥٩/١.

المبحث السادس

القاعدة السادسة: مراعاة فقه السنن الإلهية.

مقدمة

السنن الإلهية في القرآن، تشكل قاعدة من قواعد الدعوة الإسلامية، فينبغي للدعاة والمصلحين مراعاة هذه السنة عند التعامل مع الغير، فهي أعظم قانون يمكن الرجوع إليه عند كل من ينشد الحق والحقيقة، والنجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، وهي سنة إلهية ثابتة وعامة وواقعة لا محالة، لأنها من لدن عالم الغيب والشهادة، وهي تكشف عن استشراف المستقبل في ضوء الماضي والحاضر.

ودراسة فقه السنة الإلهية كقاعدة من قواعد الدعوة إلي الله يكشف أن لله ﷻ سننا وقوانين في الكون في مختلف المجالات، ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ولا تتحول، يشترك فيها جميع البشر والأمم، لا تتقيد بدين أو ملة، من أخذ بهذه السنن حقق نتائج جيدة في الحياة وعمارة الكون، ومن تخلف عنها أو اصطدام معها فإن سنن الله غلابة، وستكون نهايته كنهاية السابقين من الهلاك والدمار في الدنيا، غير ما ينتظره من العذاب الأخروي، إذا لم يكن من أهل الإيمان والتوحيد.

ودارسة السنن الإلهية تحتاج إلي تدبر وفهم جيد لتعلقها بالقرآن والسنة، وهي تعني قياس الشيء بنظيره، وله شواهد كثيرة في القرآن الكريم.

لقد بين الله ﷻ للإنسان في القرآن الكريم السنن الإلهية، والقوانين الربانية الثابتة والمطردة، التي تسير عليها البشرية، لتبتعد عن النكبات، وتتجنب الويلات، وهي لا تعرف المحاباة ولا المجاملة، ولا تتخلف عن السير وفق حكمة إلهية سامية.

❁❁❁

المطلب الأول: تعريف السنن لغة واصطلاحا.

السنن جمع سنة وهي: (الطريقة والسيرة، حميدة كانت أو ذميمة)[١]. والسنن لغة: (مأخوذة من سن، ولها أصل واحد مطرد، وهو جريان الشيء واطراده في سهولة ويسر)[٢]. ومنه قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ ﴾[٣]. وقال شمر: (السنة في الأصل سنة الطريق، وهو طريق سنه أوائل الناس، فصار مسلكا لمن بعدهم)[٤].

والسنة في الاصطلاح: (ما سنة الله في الأمم ومن وقائعه)[٥].

والسنن أيضا: (هي قوانين الله -تعالى- الجارية في الكون، وفي البشر أفردا وجماعات وأمما، وفق نظام ثابت لا يتغير)[٦].

---

(١) انظر المصباح المنير للفيومي.

(٢) لسان العرب لابن منظور ٢٢٠/١٣.

(٣) سورة الفتح الآية (٢٣).

(٤) تاج العروس للزبيدي ٢٣١/٣٥ ولسان العرب لابن منظور ٢٢٦/١٣.

(٥) فتح القدير للشوكاني ٢٨/٢ دار الكتب العملية بيروت سنة ٢٠٠٣م.

(٦) مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي محمد رشيد رضا نموذجا/ حازم زكريا محي الدين صـ ١١٤- ١١٥. دار النوادر ط/ الاولى ١٤٢٨هـ ٢٠٠٨م.

والسنة فيها معني العادة الثابتة المطردة، فيتضمن أن يفعل بالثاني ما فعل بالأول إذا سار على خطوه، واتبع طريقه، ولذلك طلب الله ﷻ من المسلمين الاعتبار بقصص السابقين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ (١).

والسنن كما يعرفها أ/ سيد قطب: (النواميس التي تحكم حياة البشر، وفق مشيئة الله الطليقة، وإن وقع منها في الماضي ما يقع في الحاضر، إذا أصبحت حال الحاضرين مثل حال السابقين) (٢).

وعرفها شريف الخطيب بقوله: (منهج الله -تعالى- في تسيير هذا الكون، وعمارته وحكمه، وعادة الله في سير الحياة الإنسانية، وعادته في إثابة الطائعين، وعقاب المخالفين، طبق قضائه الأزلي، على مقتضى حكمته وعدله) (٣).

ومن هذا التعريف يتضح أن تسيير الله للكون وفق منهج إلهي وضحه الله ﷻ في قانون هام، فيه التماثل في النتائج، إذا اتحدت المقدمات، وهي كثيرة ومتنوعة، مبثوثة في القرآن الكريم، والسنة النبوية، حتى إنها لتشكل قاعدة دعوية عامة من قواعد الدعوة الإسلامية.

❁❁❁

(١) سورة يوسف الآية (١١١).
(٢) في ظلال القرآن ١/٤٨٠.
(٣) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية شريف الخطيب صـ ٢٧ مكتبة الرشد للنشر والتوزيع الرياض ط/ الأولى سنة ٢٠٠٤م.

المطلب الثاني: أهمية معرفة السنن الإلهية.

إن قانون السنن الإلهية ينبغي أن يعتني به المسلمون، ويعطوه حقه من الاهتمام والجدية والدراسة، فتكون السنن كاشفة لطريق الحياة المستقيمة، التي تؤدي إلي عمارة الكون، وإقامة الخلافة في الأرض، والإفادة منها في الجانب الإيجابي دون الصدام معها. ومعرفة هذه السنن والسير عليها تكسب المسلم الطمأنينة والسكينة، لأنه يعتبر هذه السنن تجارب صالحة تمنعه من الوقوع فيما وقع فيه غيره من المخالفة والعناد.

يقول أ/ سيد قطب: (إن هنالك سننا ثابتة لهذا الكون؛ يملك الإنسان أن يعرف منها القدر اللازم له، حسب طاقته وحسب حاجته، للقيام بالخلافة في هذه الأرض، وقد أودعه الله القدرة على معرفة هذا القدر من السنن الكونية؛ وعلى تسخير قوى الكون، وفق هذه السنن للنهوض بالخلافة، وتعمير الأرض، وترقية الحياة، والانتفاع بأقواتها وأرزاقها وطاقاته)[1].

وأكثر ما يرد في القرآن الكريم عن السنن الإلهية، يساق في صورة قصة موحية، تتحدث عن الأمم السابقة، كيف بدأت وظهرت، وأصبح لها قوة وشوكة، ثم انتهت بالسقوط والهلاك؟ وكيف عاملهم الله ﷻ وفق قانون السنن الإلهية، بعد أن أقام عليهم الحجة، وأعطاهم فرصة للإصلاح والتغيير، ففسدوا وأفسدوا؟ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾[2].

---

(1) في ظلال القرآن ٣/٦٧.

(2) سورة الإسراء الآية (١٦).

وقَالَ تعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾[1].

يقول أ/ سيد قطب: (وهذه الإشارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم. فالأمة التي يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله في صورة من صورة فيجد من ينهض لدفعة هي أمم ناجية. لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير، فأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون ويفسد فيها المفسدون. فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد أو يكون فيها من يستنكر ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد. فإن سنة الله تحق عليها إما بإهلاك الاستئصال وإما بهلاك الانحلال والاختلال)[2].

فهذا القصص القرآني فيه تشابه كبير بين أمم كثيرة، قامت وازدهرت ثم انهارت لما خالفت السنن الإلهية، كما يقال: (ما أشبه الليلة بالبارحة) وكما يقال: (والتاريخ يعيد نفسه). والله ﷻ يقول: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾[3].

---

(1) سورة سبأ الآيات (١٥-١٧).

(2) في ظلال القرآن ٢٧٣/٤.

(3) سورة العمران الآية (١٤٠).

والقرآن الكريم أشار إلي تشابه المواقف في الأقوال والأعمال والمقدمات والنتائج والأفكار والتصورات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[1]. و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[2].

وتاريخ السنن الإلهية يقصد به تاريخ البشرية كلها، منذ عصر آدم مرورا بنزول القرآن الكريم، إلي عصرنا الحاضر، إلي قيام الساعة، فيشمل جميع الأمم والأديان والملل والنحل والمذاهب والأفكار التي على وجه الأرض.

قال عمر بن الخطاب: (إنما تنقضي عُري الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية)[3].

وحذر النبي ﷺ الأمة من أن تسلك سبل غير المسلمين من اليهود والنصارى فقال: **"لتتبعُنَّ سَنَنَ من كان قبلَكم، شبرًا بشبرٍ وذراعًا بذراعٍ، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضبٍّ تبعتُمُوهم). قلنا: يا رسولَ الله، اليهودُ والنصارى؟ قال: فمَنْ"**[4].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾[5].

([1]) سورة البقرة الآية (١١٨).

([2]) سورة الذاريات الآيتان (٥٢– ٥٣).

([3]) مدراج السالكين لابن القيم ٣٥١/١. ومفتاح دار السعادة لابن القيم ٢٩٥/١.

([4]) الحديث أخرجه الإمام البخاري (٧٣٢٠) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

([5]) سورة آل عمران الآية (١٣٧).

وقال تعالى على لسان شعيب: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾[1].

وقال تعالى على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ ﴾[2].

يقول أ/ سيد قطب: (إن موكب الدعوة إلي الله موغل في القدم، ضارب في شعاب الزمن، ماض في الطريق اللاحب، ماض في الخط الواصب. مستقيم الخطى، ثابت الأقدام. يعترض طريقه المجرمون من كل قبيل، ويقاومه التابعون من الضالين والمتبوعون، ويصيب الأذى من يصيب من الدعاة، وتسيل الدماء وتتمزق الأشلاء . والموكب في طريقه لا ينحني ولا ينثني ولا ينكص ولا يحيد. والعاقبة هي العاقبة، مهما طال الزمن ومهما طال الطريق.. إن نصر الله دائما في نهاية الطريق: (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ، فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا، وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللهِّ، وَلَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ) كلمات يقولها الله ﷻ لرسوله ﷺ كلمات للذكرى، وللتسرية وللمواساة، والتأسية. وهي ترسم للدعاة إلي الله من بعد رسول الله ﷺ طريقهم واضحا، ودورهم محددا، كما ترسم لهم متاعب الطريق وعقباته، ثم ما ينتظرهم بعد ذلك كله في نهاية الطريق. إنها تعلمهم أن سنة الله في الدعوات واحدة. كما أنها كذلك وحدة. وحدة لا تتجزأ.. دعوة تتلقاها الكثرة بالتكذيب، وتتلقى

---

(1) سورة هود الآية (٨٩).

(2) سورة غافر الآيتان (٣٠– ٣١).

أصحابها بالأذى.. وصبر من الدعاة على التكذيب وصبر كذلك على الأذى. وسنة تجري بالنصر في النهاية.. ولكنها تجيء في موعدها. لا يعجلها عن هذا الموعد أن الدعاة الأبرياء الطيبين المخلصين يتلقون الأذى والتكذيب، ولا أن المجرمين الضالين والمضلين يقدرون على أذى المخلصين)[١].

❁❁❁

المطلب الثالث: خصائص السنن الإلهية.

١- **إنها سنن إلهية:** فهي عند من الله ﷻ وضعها لنا في كتابه، لنيسر عليها، ونقيد مما فيها من تعاليم وقوانين، فكونها من عند الله يكتب لها القبول والرضا، والتسليم والعصمة، وعدم التناقض والاختلاف فهي تنزيل من حكيم حميد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾[٢].

٢- **إنها سنن ثابتة:** فالسنن الإلهية لا تتبدل ولا تتغير ولا تتحول، لأن الله تعالى قال ذلك في كتابه الكريم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[٣]. و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾[٤].

فإذا كانت السنن الإلهية ثابتة، فيمكن القياس على نتائجها بالنظر في مقدماتها، وكلمة لن في الآية تفيد التأبيد، أي ثبات هذه السنن الإلهية.

---

(١) في ظلال القرآن ٢/١٠٧٧-١٠٧٨.
(٢) سورة الفرقان الآية (٢).
(٣) سورة الأحزاب الآية (٦٢).
(٤) سورة فاطر الآية (٤٣).

والمعنى كما يقول الطاهر بن عاشور: (لن تجد لسنة الله مع الذين خلو من قبل، ولا مع الحاضرين، ولا مع الآتيين تبديلا)[١].

ويقول صاحب الظلال: (وهكذا يربط نصرهم وهزيمة الكفار بسننه الكونية الثابتة، التي لا تتبدل، فأية سكينة، وأية ثقة، وأي تثبيت يجده أولئك المؤمنون أنفسهم، وهم يسمعون من الله أن نصرهم وهزيمة أعدائهم، سنة من سنن الله الجارية في هذا الوجود، وهي سنة دائمة لا تتبدل)[٢].

فإذا كانت سنة نزول النصر على المؤمنين ثابتة لا تتغير، فكذلك معاقبة الله المجرمين والمفسدين والعاصين لأوامره سنة ثابتة لا تتغير، والعبرة بخاتمة الطرفين.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن الله -تعالى- لا يفرق بين المتماثلين، كما أنه ﷻ لا يساوي بين المتناقضين)[٣].

٣- **إنها سنن حتمية الوقوع**: فالسنن الإلهية متحققة لا محالة، لأنها جزء من قانون الله وقضاؤه، وهو ﷻ القائل: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٤]. وهذه القوانين في السنن الإلهية وعد من الله ﷻ ووعده نافذ لا محالة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦﴾[٥].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣٢٦/١١ مؤسسة التاريخ العربي بيروت لبنان ط/ الأولى سنة ٢٠٠م.

(٢) في ظلال القرآن ٤٨١/٦.

(٣) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٠٧/٤.

(٤) سورة يس الآية (٨٢).

(٥) سورة الروم الآية (٦).

فالجزاء على العمل سنة ماضية لا يتخلف عنها أحد، ولولا حتمية وقوعها ما اعتبر الناس ولا اتعظوا بالسنن الإلهية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾[1].

يقول الطاهر بن عاشور: (فلو أن قوما غير مسلمين عملوا في سيرتهم وشؤون رعيتهم بمثل ما أمر الله به المسلمين من الصالحات بحيث لم يعوزهم إلا الإيمان بالله ورسوله لاجتنوا من سيرتهم صورا تشبه الحقائق التي يجتنيها المسلمون لأن تلك الأعمال صارت أسبابا وسننا تترتب عليها آثارها التي جعلها الله سننا وقوانين عمرانية سوى أنهم لسوء معاملتهم ربهم بجحوده أو بالإشراك به أو بعدم تصديق رسوله يكونون بمنأى عن كفالته وتأييده إياهم ودفع العوادي عنهم، بل يكلهم إلي أعمالهم وجهودهم على حسب المعتاد. ألا ترى أن القادة الأوروبيين بعد أن اقتبسوا من الإسلام قوانينه ونظامه بما مارسوه من شؤون المسلمين في خلال الحروب الصليبية ثم بما اكتسبوه من ممارسة كتب التاريخ الإسلامي والفقه الإسلامي والسيرة النبوية قد نظموا ممالكهم على قواعد العدل والإحسان والمواساة وكراهة البغي والعدوان فعظمت دولهم واستقامت أمورهم)[2].

---

(1) سورة الحشر الآية (٢).

(2) التحرير والتنوير ٢٣/١٠.

٤- **إنها سنن عامة**: فالسنن الإلهية عامة للمسلم وغير المسلم، فمن يعمل شيئا من الخير، فلابد أن يحصد خيره، ومن يعمل شيئا من الشر، فلا يستثنى من العقوبة، لأنها عامة للناس كلهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾[1].

يقول أ/ سيد قطب: (إن ميزان الثواب والعقاب ليس موكولا إلي الأماني. إنه يرجع إلي أصل ثابت، وسنة لا تتخلف، وقانون لا يحابي. قانون تستوي أمامه الأمم- فليس أحد يمت إلي الله ﷻ بنسب ولا صهر-وليس أحد تخرق له القاعدة، وتخالف من أجله السنة، ويعطل لحسابه القانون. إن صاحب السوء مجزى بالسوء؛ وصاحب الحسنة مجزى بالحسنة. ولا محاباة في هذا ولا مماراة)[2].

ومما يدل على عمومية السنن الإلهية أن من ينظر في تاريخ الأمم السابقة يجد أن هذه السنة انطبعت على أية أمة أخذت بها، فالمسلمون حين يتنكبون الطريق، تجد أن ما يصيبهم هو ما يصيب غيرهم من الأمم غير المسلمة، مثل غزوة أحد، تخلف النصر بسبب مخالفة بعض الصحابة تعليمات القائد، فسنة الله هنا عامة.

يقول ابن تيمية: (إن الله –تعالى- ينصر الدولة العادلة، ولو كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة، ولو كانت مسلمة، فالباغي يصرع في الدنيا، وإن كان مغفورا له مرحوما في الآخرة، وذلك لأن العدل هو أساس كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها عند الله –تعالى- من خلاق)[3].

---

(١) سورة النساء الآية (١٢٣).

(٢) في ظلال القرآن ٢/٢٤٣.

(٣) فتاوى ابن تيمية ٢٨/٦٢-٦٣.

يقول أ/ سيد قطب: (وللكون والحياة والأحياء سنن ماضية لا تتخلف ولا تحابي. فمن اتبع هذه السنن أفلح وفاز، ومن حاد عنها ضل وخسر. الناس في هذا كلهم سواء. وكلهم مرجعهم إلي الله. وليس هنالك من شفعاء ولا شركاء. وكلهم آتيه يوم القيامة فردا. ولكل نفس ما عملت. ولا يظلم ربك أحدا)[١].

٥- **إنها سنن واقعية**: لأنها تتعامل مع حقائق موضوعية، لامع خيالات أو أوهام، فهي تقدم الهداية لم يطلبها، وتقدم الرشاد لمن يبحث عن الصراط المستقيم.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣﴾[٢].

❁❁❁

(١) في ظلال القرآن ١٧١/٤.

(٢) سورة الشورى الآيتان (٥٢-٥٣).

المطلب الرابع: نماذج للسنن الإلهية من قصص القرآن الكريم.

١- سنة الله في الأسباب والمسببات من خلال قصة ذي القرنين.

سنة الله في الأسباب والمسببات سنة إلهية ثابتة، تقوم عليها غيرها من السنن بصورة مباشرة، أو غير مباشرة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾[1].

ومعنى آتيناه مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا، أي أعطاه الله ﷻ من الأسباب ما يستطيع أن يفتح البلاد وأن ينتصر على الخصوم، وأن يجوب البلاد شرقا وغربا.

والآية تتحدث مباشرة عن ذي القرنين ذلك الحاكم الصالح، الذي حكم الأرض بشرع الله ﷻ حتى ملك المشرق والمغرب، والسبب الرئيسي في ذلك هو أنه أخذ بالسنن الإلهية، وفق الأسباب والنواميس الإلهية، وبذل كل ما في وسعه من أجل تسخير الأسباب والكون، حسب منهج الله ﷻ لإقامة العدل في الكون.

يقول أ/ سيّد قطب (النموذج الطيب للحاكم الصالح.. يمكنه الله في الأرض، وييسر له الأسباب، فيجتاح الأرض شرقا وغربا، ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادي، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق، ولا يسخر أهلها في أغراضه وأطماعه، إنما ينشر العدل في كل مكان يحل به، ويساعد المتخلفين، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل، ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التعمير والإصلاح، ودفع

([1]) سورة الكهف الآيات (٨٣-٨٥).

العدوان وإحقاق الحق.. ثم يرجع كل خير يحققه الله على يديه إلي رحمة الله وفضل الله، ولا ينسى وهو في إبان سطوته قدرة الله وجبروته، وأنه راجع إلي الله)[١].

أن ذي القرنين وظف كل شيء أعطاه الله إياه في خدمة هدفه وغايته، فكان يأخذ بكل شيء يوصله إلي غايته وهدفه من الأسباب المشروعة وفق سنن الله الإلهية، فحقق الهدف والغاية.

فملك الأرض مشارقها ومغاربها، وقام بتعبيد الناس لله ﷻ وحده بنشر التوحيد، وأقام ميزان العدل في الأرض، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾[٢].

فلا بد أن يدرك المسلم أن الأخذ بالأسباب سبب رئيسي لحصول الفور والنجاح وسبب للنهوض والنصر والتمكين. وأن قانون السببية يعني أن الأخذ بالسبب يؤدي إلي الوصول للنتيجة إذا تحققت الشروط، وانتفت الموانع.

فما عناصر التمكين التي يجب أن يمتلكها المسلم حتى يتحرَّر وينتصرَ على عدوّه ويظهرَ عليه؟! إنها أسباب النصر والتمكين وهي.

الأخلاق الفاضلة، والقوّة المادية، والعلمية الممكنة، والتوكّل على الله، قوّة الحكم والسلطة والسلطان، وقوّة الوسائل والأدوات اللازمة لحماية حكم الله في الأرض،

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٨١.

(٢) سورة الكهف الآيات (٨٧ – ٨٩).

وقوّة العلم والانفتاح على الكون، واستخراج ما يمكن بالعلوم المختلفة، كل هذا يستطيع أن يدعّمَ به الإنسانُ المسلمُ سلطةَ المنهج الربّانيّ في الأرض.

لقد تمنى الإمام محمد عبده على العقل المسلم أن يستخرج من القرآن علما جديدا، هو علم الاجتماع الديني، الذي يستخلص سنن التقدم والتخلف، والنهوض والانحطاط، والقوة والضعف في الأمم والحضارات والدعوات وذلك حتى يكون هذا العلم دليل عمل للأمة في محاولاتها النهوض والتقدم والانعتاق، وفي التدافع بينها وبين الأعداء والخصوم، يقول الأستاذ الإمام: (إن إرشاد الله إيانا إن له في خلقه سننا، يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علما من العلوم المدونة، لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي ارشد إليها القرآن بالإجمال، وبينها العلماء بالتفصيل، عملا بإرشاده، كالتوحيد، وأصول الفقه. والعلم بسنن الله –تعالى– من أهم العلوم وانفعها، والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم، إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها. إن لله في الأمم والأكوان سننا لا تتبدل، وهي التي تسمى الشرائع، أو النواميس، أو القوانين، ونظام المجتمعات البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل، وعلى من يطلب السعادة في المجتمع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد إليه أعماله، فإن غفل عن ذلك غافل، فلا ينتظر إلا الشقاء، وان ارتفع في الصالحين نسبه او اتصل بالمقربين سببه. فمهما بحث الناظر وفكر وكشف وقرر أتى لنا بأحكام تلك السنن، فهو يجري مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه، ولا

تنفر منه وليس من الممكن لمسلم أن يذهب إلي ارتفاع ما بين حوادث الكون من الترتيب في السببية والمسببية إلا إذا كفر بدينه قبل أن يكفر بعقله)[١].

❁❁❁

٢-سنة الله في الابتلاء والتمكين من خلال قصة يوسف عليه السلام.

١-الابتلاء قبل التمكين:

من سنن الله ﷻ في الدعوات الابتلاء قبل التمكين، وهذه من سنن الله ﷻ الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[٢].

سأل رجل الشافعي فقال: (يا أبا عبد الله أيما أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلي فقال الشافعي: لا يمكن حتى يبتلي فإن الله ابتلي نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فلما صبروا مكنهم فلا يظن أحد أنه يخلص من الألم البتة وهذا أصل عظيم فينبغي للعاقل أن يعرفه وهذا يحصل لكل أحد)[٣].

ويوسف عليه السلام واحد من هؤلاء الدعاة السابقين، تعرض لفتنة عاصفة في أمر دينه، حيث أغرته امرأة العزيز بما تملك من زينة وجمال قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[٤].

---

(١) تفسير المنار للشيخ رشيد رضا ١٣٩/٤.

(٢) سورة الفتح الآية (٢٣).

(٣) الفوائد لابن القيم ٢٠٨.

(٤) سورة يوسف الآية (٢٣).

لقد حفظه الله ﷻ من الوقوع في الحرام والفاحشة، رغم أنه شاب في عنفوان الشباب، والعزيزة الجنسية عمياء لا ترى، صماء لا تسمع، بكماء لا تتكلم، تلح على صاحبها أن يجد مصرفا لها، ورغم أنه بعيد عن أعين البشر، إلا أنه اعتصم بالله فعصمه (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) [١] وسبب العصمة (إنه من عبادنا المخلصين) [٢] فمن عرف الله في الرخاء عرفه الله في الشدة.

لقد اختار يوسف عليه السلام فتنة الدنيا على فتنة الدين، فقبل أن يدخل السجن مظلوما على أن يخسر جزءً من دينه بوقوعه في الحرام والفاحشة.

لقد مر يوسف عليه السلام بالابتلاء الشديد ونجح فيه فكانت الثمرة التمكين في الأرض، سئل الامام الشافعى رضي الله عنه: أيمكن للرجل أم يبتلى؟ قال: لا يمكن للرجل حتى يبتلى.

ولقد كان الابتلاء شديدا، فدخل السجن مظلوما بتهمة لم يرتكبها، وقبل ذلك بنفس راضية مسلمة، وأوكل أمره إلي الله ﷻ لأنه لا يقع في كون الله إلا ما أراده الله ﷻ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [٣].

---

(١) سورة يوسف الآية (٣٢).

(٢) سورة يوسف الآية (٢٤).

(٣) سورة يوسف الآيات (٣٣-٥٣).

٢-يوسف الداعية السجين:

بالرغم من أن سجن يوسف عليه السلام كان ظلما وعدوانا، لكن لم يمنعه ذلك من مواصلة طريق الدعوة، وتقديم النصيحة، وهو في السجن قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[1].

لقد توسما فيه الصلاح والتقى، بسبب أخلاقه العالية فقالا: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[2].

فالداعية له سمته الدائم من العقيدة الصحيحة، والعبادة السليمة، وحسن الخلق، ويظهر ذلك عليه في كل وقت وحين، حتى في الأوقات الحالكة من السجن، وما فيه من ضيق وصعوبات.

لقد قدم لهم يوسف عليه السلام الدليل المادى على صدقه قبل تأويل الرؤيا، حيث كان ينبئهم بنوع الطعام قبل أن يأتى، وهذا إخبار بالغيب لهم، كما أنه يرفع يوسف عندهم درجة من الصلاح إلي النبوة، حيث لا يعلم الغيب إلا الله أو من أطلقه الله عليه من الرسل والأنبياء قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾[3].

---

(1) سورة يوسف من الآية (٣٦).
(2) سورة يوسف الآية (٣٦).
(3) سورة الجن الآية (٢٧).

لقد ظهر تواضع يوسف عليه السلام مع أقرانه في السجن، حينما نسب هذا العلم، وتلك المعرفة إلي صاحبها الحقيقى، وهو الله عز وجل قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[1]. فهى دعوة لهم إلي الإيمان بالله وتوحيده، فهو القادر على كل شيء، وهو العالم بكل شيء.

ومن مظاهر التوحيد التي يجب أن يتحلى بها كل مسلم، الولاء والبراء ومفارقة ماعليه القوم من شرك ووثنية، فقد أعلن ذلك يوسف صراحة وهو يعرفهم بالله فقال: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[2].

كما أنه متبع لأبائه السابقين من الأنبياء والمرسلين فليس بدعا في الرسالة، ولا مبتدعا في الدين، وإنما هو متبع كل الاتباع قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة يوسف من الآية (٣٧).
(٢) سورة يوسف الآية (٣٧).
(٣) سورة يوسف من الآية (٣٨).

ثم ينسب يوسف عليه السلام النعمة إلي الله وحده فيقول:: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (١).

ثم يخاطب يوسف عليه السلام عقل أصدقائه في السجن، حيث وضح لهم أيهما أفضل آلهة متعددة متفرقة باطلة، أم إله واحد حق؟ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ (٢) وإذا كان الله هو الإله الحق فإن ما يدعون من دونه الباطل، آلهة صنعوها بأيديهم، وسموها من عندهم، لا تملك لنفسها النفع والضر، فكيف مع غيرها؟.

ثم يقدم يوسف عليه السلام لهم أبرز قضية في توحيد الله، وهى قضية الحكم، فيجب أن يكون لله وحده، لا لغيره من الآلهة الباطلة أو المخلوقين من البشر، ومن ثم فتجب له العبادة وحده.

٣-يوسف وزير التخطيط والزراعة:

وتبدأ قصة يوسف عليه السلام كويز للتخطيط والزراعة، في تأويله لرؤيا الملك، فهو متخصص في تعبير الرؤيا بتأييد من الله ﷻ ويعيش مظلوما في سجن، ويستفتى من خصومه في تخصصه، ومع ذلك يقدم لهم التعبير الصحيح والنصيحة الصادقة، دون مقابل مادى أو معنوى.

---

(١) سورة يوسف الآية (٣٨).

(٢) سورة يوسف الآية (٣٩).

لقد وضع يوسف خطة خمس عشرية لإنقاذ البلاد من مجاعة، كانت ستأكل الأخضر واليابس، إذا لم يكن لديهم الخطة الصحيحة للخروج من الأزمة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾[١].

فالأكل على قدر الحاجة فقط، والزيادة يخزن لفترة الجدب والجفاف والأزمة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[٢].

ففى وقت المجاعة والشدة تعتمد الأمة على المخزون الاستراتيجى، فإذا لم يكن لديها ما يكفيها فماذا تصنع في هذه الظروف الصعبة؟ بلا شك أنها سوف تضطر إلي أن تمد يدها إلي غيرها بالدين، والدين هم بالليل ومذلة بالنهار.

وبعد الشدة يأتى الفرج، وبعد الظلام يأتى نور الفجر الصادق، ومن ثم يأتى العام الخامس عشر الذي ينزل فيه الماء وتخضر فيه الأرض، ويثمر فيه الزروع، وتجنى فيه الثمار، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[٣].

لقد عرض على يوسف عليه السلام أن يذهب لمقابلة الملك فرفض الخروج، حتى تثبت براءته بالدليل والبرهان، وفتح ملف القضية من جديد، فظهرت براءة يوسف ساطعة كالشمس، مضيئة كالقمر، واضحة كفلج الصبح، واعترفت امرأة العزيز بالحقيقة كاملة، التي ظهر فيها التدبير الخفى من نفسها الأمارة، وشهادة النسوة اللاتى كن معها، وخرج يوسف عليه السلام من السجن بريئا مكرما إلي قصر الملك قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ مَا

---

(١) سورة يوسف الآية (٤٧).

(٢) سورة يوسف الآية (٤٨).

(٣) سورة يوسف الآية (٤٩).

خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[١].

يوسف من السجن إلي الوزارة، ولا شك أن الأصل في الإنسان أن لا يزكى نفسه ولا يشهد لها، ولا يطلب الولاية لنفسه أيضا، لكن إذا غابت الكفايات فيجب أن يكون في مقدمة الصفوف، كما أنه نبى مؤيد الوحى فلا يخشى عليه من العجب والكبر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾[٢]. فالأمانة تقدم على التخصص في مجال القيادة والوزارة، وذلك لأن خزائن الأرض تحت يديه، هو الذي يوزعها دون رقيب أوحسيب من البشر، فلابد أن يكون يكون أمينا، كما أن خبرته العلمية هى التي أهلته لهذا المنصب الكبير، من أجل ذلك قدم الأمانة على العلم في الآية السابقة (إنى حفيظ عليم). كما نلمح في الآية أنه قال: (خزائن الأرض) أى أن نتاج أرض مصر يكفى لأهل الأرض كلها، إذا وجدت القيادة الراشدة التي توظف الإمكانات، وتفجر الطاقات، وتصنع المعجزات.

ويختم هذا المشهد بتمكين الله له في الأرض، فلا يقع في كون الله إلا ما أراده الله ﷻ وهذا توفيق من الله ﷻ له أولا وأخيرا، ودور يوسف هو الأخذ بالأسباب، وإتقان العمل، والأجر والمثوبة من الله ﷻ وحده قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[٣].

❁❁❁

(١) سورة يوسف الآية (٥١).
(٢) سورة يوسف الآية (٥٥).
(٣) سورة يوسف الآية (٥٦).

٣- سنة الله في إقامة الدولة المسلمة من خلال قصة سليمان عليه السلام.

الأسس التي أقام عليها سليمان عليه السلام الدولة المسلمة هي:-

١. العلم والقوة.
٢. أن الدولة لها رسالة وغاية.
٣. القائد البصير بشؤون الرعية.
٤. قيام الأفراد بواجباتهم نحو تلك الغاية.

١ - العلم والقوة:

إن دولة تريد أن تنهض لابد أن تقوم على العلم الواسع من علوم الدنيا والدين وأول العلم: العلم بالله ومعرفته وتوحيده والتوكل عليه واستمرار العون والتوفيق منه قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾[١].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾[٢].

وأما علوم الدنيا فهي مهمة في حياة البشر، حيث إن الله فطر الكون على سنن وقوانين لا تتبدل ولا تتغير قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾[٣].

---

(١) سورة محمد الآية (١٩).
(٢) سورة الطلاق الآية (١٢).
(٣) سورة طه الآية (٥٠).

وعلوم الدنيا تقوم على التجربة والتخطيط لعمارة الكون قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[1].

فيوسف عليه السلام وضع خطة خمس عشرية أنقذ البلاد من مجاعة كانت ستأكل الأخضر واليابس، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[2].

وذو القرنين صنع سدا قويا من الحديد والنحاس ليحمى المستضعفين من ظلم يأجوج ومأجوج. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ ﴾[3].

وطالوت عليه السلام اختاره الله ملكا على بنى إسرائيل لما يتمتع به من بسطه العلم والجسم.

---

(1) سورة هود الآية (٦١).

(2) سورة يوسف الآيات (٤٧-٤٩)

(3) سورة الكهف الآيات (٩٣-٩٧)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾[1].

ومن بين العلوم المهمة العلم باللغات، لأن الأمة مكلفة بدعوة العالم إلي الإسلام، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[2].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾[3].

والعلوم كلها هبه وفتح من الله أولا وأخيرا إذا صدقت النية وصحت العزيمة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾[4]. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾[5].

---

(1) سورة البقرة الآية (٢٤٧).
(2) سورة آل عمران الآية (١٠٤).
(3) سورة إبراهيم الآية (٤).
(4) سورة النمل الآية (١٥).
(5) سورة النمل الآية (١٦).

وأما القوة فقد تمثلت في ذلك الجيش القوى المدرب الذي يحمى الحق ويدافع عنه، فلا بدُ للحق من قوة تحميه قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾[١].

إن الإسلام أمرنا باستمرار القوة حتى ولو لم نستخدمها قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[٢]. وفي الحديث قال ﷺ: **"ألا إن القوة الرمى"**[٣].

٢- أن الدولة لها رسالة وغاية:

إن أي أمه تعيش بلا رسالة وبلا غاية فهي إلي زوال لا محالة، أين التتار، أين الفراعنة، أين الحضارات القديمة، لقد ذهبت مع موت أصحابها.

أما أمة الإسلام فهي باقية إلي قيام الساعة لأن لها رسالة تتمثل في هداية البشرية إلي الإسلام وإخراج الناس من الظلمات إلي النور، تعبيد الناس إلي الله، وأن تكون كلمة الله هي العليا وأن يكون الدين كله لله، وإقامة العدل في الحياة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾[٤].

---

(١) سورة النمل الآية (١٧).

(٢) سورة الأنفال الآية (٦٠).

(٣) الحديث أخرجه الإمام أبو داود (٢٥١٤). عن عقبة بن عامر الجهني ﷺ.

(٤) سورة ص الآية (٢٦).

إن الأمم التي أهدافها وضيعة، ورسالتها أرضية، وغايتها استعباد الآخرين لها فهي أمم إلي زوال لا محالة، أين الاتحاد السوفيتي وغيره الآن؟.

٣- القائد البصير بشؤون الرعية:

إن سليمان كان في غاية اليقظة والانتباه، حتى إنه استطاع أن يكتشف خللا بسيطا في المملكة وهو غياب جندي بسيط دون إذن من القائد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[1]. إن القائد البصير يضع العقوبة على قدر الخطأ، فلا بظلم أحدا، ولا يطبق الحكم إلا بعد أن يسمع حجة المتهم فهو يتروى حتى تثبت إدانته قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾[2].

أحيانا قد يكون في الجندي ما ليس في القائد، وفي الطالب ما ليس في المدرس، وفي الابن ما ليس في أبيه، وفي الهدهد ما ليس في سليمان.

قال تعالى على لسان الهدهد مخاطبا سليمان، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[3].

٤-**قيام الأفراد بواجباتهم**: إن دولة سليمان لا تعرف البطالة، ولا الكسل، ولا أن يكون الإنسان عالة على الآخرين وهو بصحة جيدة، فهذا الهدهد البسيط كان له دور هام في الجيش وهو تامين المياه، وهو يقوم بدوره هذا اكتشف خللا في حياة الناس يتعارض مع رسالة الدولة وغايتها فرفعه سريعا إلي القائد الأعلى ليعالجه بسلطانه.

---

(١) سورة النمل الآية (٢٠).

(٢) سورة النمل الآية (٢١).

(٣) سورة النمل الآية (٢٢).

لقد ركز الهدهد على القضايا المهمة التي رآها وماذا فعل سليمان فيها؟.

١- امرأة تدير مملكة، ومعها قوة وجيش وسلطان، وهي وقومها يعبدون غير الله، لقد شخص سبب الانحراف في تزيين الشيطان، ثم تحسر وتأسف على عدم عبادتهم لله ﷻ الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض، ويعلم ظواهر الناس وبواطنهم وخفاياهم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾[1].

٢- أراد سليمان أن يتأكد من صدق الخبر قبل أن يأخذ قرارا فحمله رسالة إلي بلقيس قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾[2].

٣- تلقت بلقيس الرسالة فأثنت عليها، لأنه ابتدأها بالبسملة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾[3].

٤- شاورت بلقيس رجالها ووزراءها في قضية مصيرية لا تريد أن تستبد برأيها فيها قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾[4].

---

(1) سورة النمل الآية (٢٣).
(2) سورة النمل الآية (٢٨).
(3) سورة النمل الآيتان (٢٩-٣٠).
(4) سورة النمل الآية (٣٢).

٥- ردُ الوزراء الأمر إليها، لأنهم قوم عقيدتهم مضطربة، فليس لهم رأي حازم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[١].

٦- أرادت أن تختبر سليمان هل نبي مرسل، أم حاكم يريد توسيع مملكته فأرسلت له الهدايا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[٢].

٧- رد سليمان الهدايا لأنه لا يريد دنيا، وعنده ما يكفيه، وتوعدهم إذا لم يسلموا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[٣].

٨- علم سليمان أنها قادمة مع قومها فأراد أن يختبر ذكاءها وفطنتها للأمور قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[٤].

٩- الذي حمل الكرسي أو عرش بلقيس إلي سليمان كان رجلا صالحا يعرف اسم الله الأعظم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴿٤٠﴾ ﴾[٥].

---

(١) سورة النمل الآية (٣٣).
(٢) سورة النمل الآية (٣٥).
(٣) سورة النمل الآية (٣٧).
(٤) سورة النمل الآية (٤١).
(٥) سورة النمل الآية (٤٠).

١٠- تواضع سليمان أمام ما أعطاه الله من نعم وفضل فلم يستكبر ويغتر مثلما فعل قارون، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[١].

١١- نكر سليمان لها العرش لينظر ذكاءها فكانت موفقة في إجابتها قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾[٢].

١٢- علم أنها ستدخل في الإسلام فأراها آية من عطاءات الله له عند دخولها الصرح قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾[٣].

١٣- الذي منع بلقيس أن تكون مسلمة قبل ذلك أنها ورثت الحكم عن أبيها الكافر قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[٤].

حينما أسلمت بلقيس كان إسلامها إسلام ملوك وأمراء قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾[٥].

❁❁❁

---

(١) سورة النمل الآية (٤٠).
(٢) سورة النمل الآية (٤٢).
(٣) سورة النمل الآية (٤٤).
(٤) سورة النمل الآية (٤٣).
(٥) سورة النمل الآية (٤٤).

٤- سنة الله في الابتلاء والعقوبة من خلال قصة أصحاب الجنة.

يعتقد كثير من الناس أن الابتلاء يكون بالنوازل والخطوب؛ والنقص والحرمان والفقر والمرض والشدائد والكروب. وهذا فهم ضيق لحصر الابتلاء في جانب واحد دون باقي الجوانب المتعلقة بالموضوع.

فقد يكون الابتلاء بالعطاء والمنح، وقد يكون بوفرة المال وكثرة العيال، وقد يكون بكثرة النعم واتساعها قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[1].

نعيش اليوم مع قصة من قصص القرآن الكريم فيها عظة وعبرة، فيها هداية ونور، تبرز لنا عدة جوانب هامة يحتاجها المسلم اليوم ليتعلم من أنوار التنزيل ما ينير بصيرته، ومن نهاية السابقين ما يكون له عظة وعبرة، فالعاقل من اتعظ بغيره.

وقصة أصحاب الجنة التي حكاها القرآن الكريم في سورة القلم، تحكى لنا درسا من دروس التاريخ، إنهم فتية عاشوا في أرض اليمن، خلف لهم أبوهم حديقة كبيرة، وارفة الظلال، كثيرة الثمار، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، ذلك لأن أباهم كان يسير في تعامله مع ثمار هذه الحديقة سيرة حسنة، فيرد ما زاد عن حاجته وأولاده إلي الفقراء و المساكين فيؤدى حق الله ﷻ في هذه الحديقة إلي أصحابه كما أمر القرآن الكريم في قوله تَعَالَىٰ: ﴿ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾[2].

([1]) سورة الأنبياء الآية (٣٥).

([2]) سورة الأنعام الآية (١٤١).

فواهب النعم هو الله ﷻ وشكر النعم يكون من جنسها، حتى تدوم وتستقر نعم الله عليه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾[1].

فكان هذا الأب يمضي بهذه السيرة الحسنة مع الفقراء والمساكين، فاستمرت و توالت نعم الله عليه، لكن أبناءه لم يكونوا على هذه السيرة، فغيروا مسيرة أبيهم وسنته ففكروا ودبروا وقرروا أن يقطعوا الثمار ليلا، لئلا يعطوا الفقراء حقهم، وظنوا أنهم بعملهم هذا يوفر المال الكثير، والربح الوفير، فاتهموا أباهم بالسفه في الإنفاق، فهو لا يصنع حسابا لمستقبلهم، فلما غيروا نيتهم وسيرة أبيهم غير الله حال بستانهم، فأرسل الله عليه طائفا من قبله فدمره وأحرقه، فلما رأو هذا المشهد أمامهم ظنوا أنهم أخطأوا الطريق، لكنها الحقيقة المؤلمة، والعقوبة الصارمة.

ويحكى القرآن ذلك كله في قوله تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[2].

إنها العقوبة الإلهية لما غيروا نيتهم وسيرة أبيهم غير الله حالهم من النعم إلي النقم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا

---

(١) سورة إبراهيم الآية (٧).

(٢) سورة القلم الآية (١٧-٢٧).

مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾[1]. يقول أحد المفسرين: إن الله لا يغير ما بقوم من الكروب حتى يغيروا ما بأنفسهم من الذنوب فلا يكون التغير إلا بعد التغير.

لقد كان الجزاء من جنس العمل، فلما خالفوا عادة أبيهم مع الفقراء خالف الله عادته معهم في الكرم والعطاء قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾[2].

إن تغير النية والعزم على التطبيق كان سببا في حلول النقم ووقوع العذاب عليهم.

أن الإصرار على المعصية سبيل الخراب وفقدان النعم، ونزول النقم، وهذه صورة من صور العذاب الدنيوي، فكيف بالعذاب الأخروي الذي ينتظر المخالفين قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[3].

لقد أحبو المال أكثر من حبهم لله وأوامره، فعذبهم الله بأموالهم حينما حرمهم منها، فمن أحب شيئا غير الله عذبه الله به: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[4].

إن الفتنة يعرفها العقلاء قبل أن تقع فيتحاشون الوقوع فيها ويبعدون عن أسبابها، أما الأغبياء فلا يعرفون الفتنة إلا بعد وقوعها وحلولها: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل

---

(١) سورة الرعد الآية (١١).
(٢) سورة فاطر الآية (٤٣).
(٣) سورة القلم الآية (٣٣).
(٤) سورة القلم الآية (٢٦-٢٧).

لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾[1].

فما حلت عقوبة إلا بمعصية، وما رفعت عن الناس إلا بتوبة، وهل بعد منع الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام حقهم من مال الله ﷻ ذنب، فياليت الأثرياء البخلاء أن يتعظوا بغيرهم قبل أن يفاجئوا بزوال النعم أو نزول المنية فيحاسب على ما جمع ويعاقب على ما قصر: قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[2].

لقد تجاوزوا حدودهم حينما تعلقوا بحب المال وآثروا أنفسهم على الفقراء و المساكين وبخلوا عليهم بما أعطاهم الله إياه فليس لهم إلا مباشرة السبب، والمعطى الحقيقي إنما هو الله ﷻ.

وإذا كانت المعصية هي التي تسببت في العقوبة بحلول النقم، فقد قال النبي ﷺ: **" إنَّ الرَّجلَ ليُحرمُ الرِّزقَ بالذَّنبِ يُصيبُه"**[3].

إن التوبة النصوح تمحو ما مضى، فمراجعة النفس بعد وقوعها في الخطأ وندمها على ما قدمت هو لون من التوبة التي يرفع بها البلاء. قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ

---

(١) سورة القلم الآية (٢٨-٣١).

(٢) سورة ق الآية (٣٧).

(٣) الحديث ذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٢٨٩/٣ عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ .

يَتَلَوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[1]. **ومما سبق يتبين أن:**

١ – أن المال كله ابتلاء فليكن العبد حذرا في التعامل معه؛ حتى لا يقع في شراكه.

٢ – إن المالك الحقيقي للمال هو الله ﷻ والذي يملك ويعطى قادر على أن يمنع ويحرم.

٣–إن الله ﷻ له طلاقة القدرة بجنود لا نعلمها. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾[2].

٤–إن تغيير النية يؤدى إلي نزول العقوبة الإلهية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[3].

٥ – إن المعاصي والإصرار عليها يسبب منع الرزق ونزول النقم.

٦ – إن مراجعة النفس بعد الخطأ والتوبة النصوح إلي الله ﷻ وسيلة لمحو الذنب ورفع العقوبة.

❁❁❁

(١) سورة القلم الآيات (٣٠–٣٢).
(٢) سورة المدثر الآية (٣١).
(٣) سورة الروم الآية (٤١).

المبحث الثامن

مراعاة فقه الواقع.

❁❁❁

الخاتمة والنتائج.

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، والسراج المنير، سيد الأولين والآخرين، ورحمة الله للناس أجمعين.

وبعد:

فهذه دراسة حول **القواعد المنهجية للدعوة عند السلف**، اجتهدت قدر الوسع في انتقائها وتحديدها، والقيام بدراستها دراسة موضوعية؛ لتكون لبنة في بناء فقه الدعوة، وخطوة مكملة في طريق الحياة الدعوية، مستهدفا من دراسة الموضوع، تسليط الضوء على أهمية هذه القواعد في الميدان العملي الدعوي، حتى تساهم في التشكيل العقلي والفكري للدعاة، فيسيروا على هدى وبصيرة، ويكونوا سببا في هداية الخلق للخالق، ودلالة الناس على الله ﷻ بوعي وفقه وتميز.

فلا يكفي أن يكون الداعية عالما بأحكام الدين، حافظا لنصوصه، وإنما يحتاج إلى دراسة الأحكام وفقهها، وتوظيفها وتطبيقها بأفضل صورة في ميدان الدعوة العملي.

وقد توصلت إلى جملة من النتائج والتوصيات، أجملها فيما يأتي:

١-أن القواعد المنهجية للدعوة باب عظيم من أبواب فقه الدعوة، وهى تحتاج إلى علم وفقه ودراسة من الدعاة إلى الله ﷻ حتى يحسنوا فهم الدعوة وتبليغها على أحسن وجه، وأفضل حال.

٢-أن هذه القواعد منهج أصيل في الدعوة الإسلامية، قررها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وطبقها النبي ﷺ في مجتمعه، وفقهها وعمل بها الصحابة الكرام والتابعون من بعدهم، والسلف الصالح من هذه الأمة.

٣-أن هذه القواعد لها علاقة بعضها مع بعض، فهي سلسلة متصلة الحلقات، فيصعب الفصل بينها أو العمل ببعضها وترك البعض الآخر، فالقواعد يكمل بعضها بعضا حتى تشكل فرعا قائما بذاته من علوم الدعوة، فلا غنى للتدرج عن الأولويات، ولا غنى للبلاغ عن مراعاة أحوال المدعوين، ولا غنى للخلاف عن مراعاة معرفة السنن الإلهية، فهي تمثل منظومة متكاملة، تساهم وتشكل عقلية الداعية في وسطية وتوازن، بعيداً عن الغلو والتطرف، والإفراط والتفريط.

٤- أن القواعد الدعوية كثيرة ومتنوعة، أوصلها بعض الباحثين إلى ثلاثين قاعدة، للتقارب الشديد بينها وبين قواعد أصول الفقه، وما تناولته هنا إنما هي أبرزها وأهمها، أو ما هو موضع اتفاق بين علماء الدعوة والباحثين في هذا التخصص.

٥- تبين من هذه الدراسة أن السلفية عبارة عن صفات معينة، من سار عليها وتحقق بأوصافها فهو من السلف، وإن جاء بعد القرون الثلاثة الفضلى، وأن منهج السلف يتميز بأنه قام على إتباع الأصلين الأساسين في الإسلام، القرآن الكريم والسنة النبوية، والتحاكم إليهما عند الخلاف، وأنه منهج يقوم على الاقتداء بالنبي ﷺ في كل ما صدر عنه، من قول أو فعل أو تقرير أو صفة، والفهم الشمولي للإسلام، وتقديم الشرع والنقل على العقل المجرد، وأن علماء المسلمين وجمهور الأمة كانوا يثنون على

منهج السلف في الفهم والعلم والعمل، وتقديم أقوالهم على أقوال من جاء بعدهم من الخلف.

٦- أن قاعدة فقه الأولويات في الدعوة تجعل الإنسان يعيش في توازن واعتدال، حينما يقدم ما حقه التقديم، ويؤخر ما حقه التأخير، وأن هذه القاعدة أصلها القرآن الكريم، وفصلتها السنة النبوية، وسار عليها النبي ﷺ والصحابة والسلف من بعدهم، وأن تطبيق هذه القاعدة حياتنا المعاصرة يساهم في حل كثير من المشكلات الدعوية، التي تنشأ في غياب فقه الدعوة.

٧- إن فقه التدرج في العمل الدعوي، قاعدة دعوية، وسنة إلهية، ساهمت في تيسير الأحكام، وتهيئة النفوس للاستجابة، والقبول والإذعان، وقد ظهرت معالم التدرج في الإسلام في الدعوة، والتشريع، وفى طلب العلم، وإعداد الدعاة، وفى التربية، والإصلاح والتغير، والتدرج في كل ذلك نجح أيما نجاح، وحقق نتائج مبهرة، حينما نقارن بين رسالة الإسلام الخاتمة، وبين غيره من الرسالات السابقة، أو الملل والأديان، أو المذاهب المعاصرة.

٨- أن فقه البلاغ في العمل الدعوى يتطلب من الداعية أن يكون صاحب صفات عالية، تجعله يؤدى دوره على أحسن وجه، وذلك حينما يعلم أنه مطالب بالبلاغ وليس الهداية، وأن الله يأجره على عمله، سواء استجاب له أحد أم لا، وأنه لا يجرح أحدا من المخطئين، وإنما يصوب العمل الخاطئ، دون أن يتعداه إلى صاحبه، وأن الداعية قد يحتاج إلى المداراة مع المدعوين لاستمالتهم إلى الحق، لكن لا يستخدم المداهنة على الإطلاق، وأنه مطالب بالرفق واللين، وليس الشدة والقسوة، وكذا مطالب بالتبشير

والتيسير، وليس التنفير والتعسير، وذلك إذا أراد لدعوته أن تنجح، ولرسالته أن يكتب لها القبول، وهو في هذا كله، يتبع هدى النبي ﷺ مقتديا به في تبليغ الدعوة.

٩- أن فقه الاختلاف من المسائل المهمة في ميدان الدعوة الإسلامية، فهو يفتح مجال العقول أمام الآراء المتعددة، التي يحتملها الدليل، وهناك الخلاف المحمود وكذا المذموم، ولاشك أن الاختلاف له أسباب وضوابط وآداب، إذا ترسخت عند الدعاة والعاملين في ميدان الدعوة، ساهمت في حل كثير من المشكلات التي تظهر على الساحة، حينما تغيب هذه القاعدة الدعوية بضوابطها الشرعية.

١٠- قاعدة مراعاة أحوال المدعوين، تطلبت من الداعية أن يكون واسع الثقافة، على علم ودراية بطبائع البشر، وعاداتهم وتقاليدهم، ومشكلاتهم المختلفة، والبيئة التي يعيشون فيها، فالناس متفاوتون في كل ما سبق، ومن ثم يختار الداعية لغة الخطاب بالوسائل والأساليب المناسبة، وتنوع الخطاب الدعوى مثل ما كان يفعله النبي ﷺ مع المدعوين، فيعطى لكل فرد من النصيحة ما يتناسب مع حالته.

١١- السنن الإلهية قانون إلهي في التعامل مع الكون والحياة والإنسان، والداعية لا يعيش معزولا عما سبق، وهو يحتاج هذه السنن، لأنها تكشف له الماضي، وتشرح الحاضر، وتستشرف المستقبل، ويمكن توظيف هذه السنن في عمارة الكون بمنهج الله ﷻ وتحذير الناس من المخالفة، لأن السنن غلابة، وفي هلاك السابقين عظة وعبرة، ليعتبر الناس بمآلهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ

حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[1].

١٢- فقه الواقع قاعدة مهمة من قواعد الدعوة الإسلامية، لأنه ينبني عليه كثير من الأحكام الشرعية، وهو أحد الروافد الرئيسة التي يحتاج إليها الداعية، وهو يمارس عمله في ميدان الدعوة، وهو يجعل الداعية يتعامل مع الناس وهو في وسطهم، وليس في عالم آخر يعيش في الظل خلف الكتب والمكتبة.

وهو يعني فهم واقع الناس الذي يعيشونه، هل يعيشون في ظروف عادية أم اضطرارية، وفهم النوازل والحوادث التي تنزل بالناس، وسماع ذلك من الناس أنفسهم، وأن يسأل المتخصصين الثقات في هذه الوقائع المعاش في كل ما يخص حياة المدعوين من الناس جميعا. حتى يحسن فهمهم، والتعامل معهم، واختيار الوسائل والأساليب والفتاوى التي تتناسب مع ظروفهم.

❁❁❁

(1) سورة يوسف الآية (١١١).

التوصيات.

١- أن تدرس مادة فقه الدعوة في جميع الكليات الشرعية، لتساهم في تكوين الحس الدعوى لدى الخريجين، حيث إن الدعوة فرض عين على جميع المسلمين، على قدر الوسع والطاقة والمعرفة والعلم.

٢- عمل دورات مستمرة في فقه الدعوة، للأئمة والخطباء والدعاة، يدرس فيها قواعد الدعوة بالتفصيل، حتى تحقق التوازن والوسطية والكفاية، في التعامل مع المدعوين، في جميع الأحوال، ووضع اختبار لهم، للتأكد من صحة الفهم ورسوخه عند الدارسين.

٣- العمل على طباعة ونشر الكتب المتعلقة بفقه الدعوة، في صورة سلسلة دورية، تصدر للأئمة والخطباء والدعاة، لتقدم لهم كل جديد في هذا العلم، وذلك لتطوير الجودة والأداء، بما يتناسب مع المتغيرات المحلية والعالمية.

٤- العمل على طرح هذه القواعد الدعوية بأسلوب سهل وميسر على عامة المسلمين، من خلال خطب الجمعة والدروس المسجدية، والندوات والمحاضرات، لتكون ثقافة عامة للمجتمع، في التعامل مع الدين وتعاليمه، ومع الواقع ومتغيراته، مثل فقه الأولويات، وفقه التدرج، وفقه البلاغ، وفقه الاختلاف، والسنن الإلهية، فقه الواقع.

٥- دراسة الشخصيات الدعوية التي لها أثر مباشر في الدعوة، فساهمت في الإصلاح والتغيير، وجمعت بين تعاليم الشرع والدين، وفقه الواقع، مثل مصعب بن عمير، والحسن البصري، وكذلك من الدعاة المصلحين على مر التاريخ الإسلامي الطويل، بالإضافة إلى دراسة منهجهم وأسلوبهم في الدعوة، حتى يكونوا صورة عملية حية، أمام الدعاة والأئمة والخطباء فيقتبسوا من أسلوبهم ومنهجهم. **الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.** ❁❁❁

المراجع

القرآن الكريم.

كتب السنة.

١- الإتقان في علوم القرآن/ للسيوطي/ مؤسسة الرسالة بيروت/ ط الأولى سنة ١٤٢٩هـ. سنة ٢٠٠٨م.

٢- الأحكام السلطانية والولايات الدينية/ للماوردي/ ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٥هـ.

٣- أدب الدنيا والدين/ على بن محمد الماوردي/ دار الكتب العلمية بيروت ط الرابعة سنة ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م.

٤- أساس البلاغة/ للزمخشري/ دار المعرفة بيروت/ ط ١٤٠٢هـ.

٥- أسس الدعوة وآداب الدعاة/ د/ محمد السيد الوكيل/ دار الوفاء المنصورة/ ط الثالثة سنة ١٤١٢هـ. سنة ١٩٩١م

٦- الأسس العلمية المنهج الدعوة الإسلامية/ د عبد الرحيم المغذوي/ دار الحضارة للنشر والتوزيع/ ط الأولى ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.

٧- أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم د/ محمود بن أحمد الرحيلي/ دار العاصمة الرياض/ ط الأولى ١٤١٤هـ.

٨- أصول الدعوة/ د. عبد الكريم زيدان/ مكتبة دار الوفاء المنصورة/ ط السادسة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٩- الاعتصام/ للشاطبي/ المكتبة التجارية الكبرى/ بدون تاريخ.

١٠- الأعلام العلمية في مناقب ابن تيمية/ للحافظ البزار/ تحقيق زهير الشاويش/ المكتب الإسلامي بيروت/ ط الثانية ١٣٩٦هـ.

١١- إعلام الموقعين/ لابن القيم/ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد/ نشر دار الفكر بيروت ط الثامنة سنة ١٣٩٧ هـ سنة ١٩٧٧م.

١٢- آفات على الطريق/ د. سيد نوح/ دار الوفاء/ ط الحادية عشر١٤١٦هـ - ١٩٩٥م،

١٣- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر/ لأبي بكر الخلال/ تحقيق الشيخ عبد القادر عطا/ دار الباز للنشر والتوزيع مكة/ ط الأولى ١٤٠٦هـ.

١٤- أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة/ د يوسف القرضاوي/ ط مؤسسة الرسالة بيروت/ ط الثانية عشرة ١٤١١هـ.

١٥- البداية والنهاية/ لابن كثير/ تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرون/ دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م

١٦- بدائع الفوائد/ لابن القيم/ دار الكتاب العربي بيروت/ ط سنة ١٤٢٢ هـ سنة ٢٠٠٤م

١٧- تاريخ الخلفاء للسيوطي/ دار اليقين للنشر والتوزيع بالمنصورة/ ط الأولى سـ١٤٢٣ هـ.

١٨- تاريخ بغداد/ للخطيب البغدادي/ دار الكتب العلمية بيروت/ ط الأولى ١٤١٧هـ.

١٩- تاريخ نجد/ حسين بن غنام/ تحقيق د. ناصر الدين الأسد/ دار الشروق بيروت ط الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٢٠- التعريفات/ لعلي بن محمد بن علي الجرجاني/ حققه إبراهيم الإنباري/ دار الكتاب العربي بيروت/ ط الرابعة ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

٢١- تفسير التحرير والتنوير/ للطاهر بن عاشور/ مؤسسة التاريخ العربي بيروت لبنان/ ط الأولى سنة ٢٠٠م.

٢٢- تفسير المنار/ محمد رشيد رضا الحسيني/ الهيئة المصرية العامة للكتاب ط سنة ١٩٩٠م.

٢٣- تلبيس إبليس/ لابن الجوزي/ دار الكتب العلمية بيروت/ ط الثانية ١٣٦٨هـ.
٢٤- جامع بيان العلم وفضله/ لابن عبد البر/ ط دار ابن حزم الرياض.
٢٥- الجامع لأحكام القرآن/ تفسير القرطبي/ ط مؤسسة مناهل العرفان بيروت.
٢٦- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع/ للخطيب البغدادي/ دار الكتب العلمية بيروت/ ط الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٦م
٢٧- جمهرة اللغة/ لابن دريد/ تحقيق رمزي منير البعلبكي/ دار العلم للملايين بيروت/ ط سنة ١٩٧٧م.
٢٨- الحكمة والموعظة الحسنة وأثرهما في الدعوة إلى الله/ د. أحمد المورعي/ دار الأندلس الخضراء جدة/ ط الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
٢٩- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/ لأبي نعيم/ مطبعة السعادة/ ط ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٣٠- درء تعارض العقل والنقل/ لابن تيمية/ تحقيق محمد رشاد سالم/ جامعة الإمام محمد بن سعود/ ط سنة ١٤٠١ هـ سنة ١٩٨١م.
٣١- الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها/ د. أحمد غلوش/ دار الكتاب المصري القاهرة/ ط الثانية ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
٣٢- الدعوة إلى الإسلام د/ أبو بكر ذكرى/ ط دار المعرفة مصر/ بدون تاريخ.
٣٣- الدعوة قواعد وأصول/ أ. جمعة أمين/ دار الدعوة بالإسكندرية/ ط الرابعة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
٣٤- الرحيق المختوم صفي الرحمن المباركفوري/ دار الفكر بيروت/ ط الأولى سنة ١٤٢١هـ سنة ٢٠٠٠م.
٣٥- الروح/ لابن القيم/ دار ابن تيمية الرياض/ ط الأولى ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

٣٦- زاد المعاد في هدي خير العباد/ لأبي بكر محمد بن القيم/ مؤسسة الرسالة بيروت/ ط الأولى سنة ١٤٠٧ هـ سنة ١٩٨٦م.

٣٧- السنن الإلهية في الحياة الإنسانية/ شريف الخطيب/ مكتبة الرشد للنشر والتوزيع الرياض/ ط الأولى سنة ٢٠٠٤م.

٣٨- سير أعلام النبلاء/ للذهبي شمس الدين الذهبي/ تحقيق شعيب الأرنؤط/ مؤسسة الرسالة بيروت/ ط الثانية ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م

٣٩- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة/ اللالكائي/ تحقيق د أحمد سعد علوان/ دار طيبة بالرياض/ ط الثانية.

٤٠- شرح صحيح مسلم/ للنووي/ تحقيق خليل مأمون شيحا/ دار المعرفة بيروت/ ط الثانية ١٤٠٨هـ - ١٩٩٥م.

٤١- الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم د/ يوسف القرضاوي/ دار الوفاء/ ط الرابعة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

٤٢- صيد الخاطر/ لابن الجوزي/ دار الكتب العلمية ط/ المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.

٤٣- الطبقات الكبرى/ لابن سعد/ دار صادر بيروت/ بدون تاريخ.

٤٤- عظماؤنا في التاريخ/ د مصطفى السباعي/ دار السلام القاهرة/ ط الأولى ١٤١٨هـ.

٤٥- العواصم من القواصم/ لابن العربي/ دار ابن حزم بيروت/ ط الأولى سنة ١٣٩٩م

٤٦- غريب الحديث/ لأبي إسحاق الحربي/ مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي أم القرى مكة/ ط الأولى ١٤٠٥هـ.

٤٧- الفتاوى الكبرى/ لابن تيمية/ ط ابن حزم الرياض/ ط الثانية/ ط مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف المدينة المنورة، سنة ١٤١٦هـ سنة ١٩٩٥م.

٤٨- فتح الباري شرح صحيح البخاري/ لابن حجر العسقلاني/ تحقيق الشيخ ابن باز/ ترقيم وترتيب محمد فؤاد عبد الباقي/ دار الكتب العلمية بيروت/ ط الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

٤٩- فتح القدير للشوكاني/ دار الكتب العملية بيروت/ سنة ٢٠٠٣م.

٥٠- الفصل في الملل والأهواء والنحل/ لابن حزم الظاهري/ مكتبة عكاظ/ الأولى سنة ١٤٠٢هـ سنة ١٩٨٢م.

٥١- فصول في الدعوة الإسلامية/ د حسن عيسى عبد الظاهر/ مؤسسة الرسالة بيروت/ ط الأولى سنة ١٤١٢هـ.

٥٢- فقه الأولويات د/ محمد السيد الوكيل/ المعهد العالي للفكر الإسلامي/ ط الأولى سنة ١٩٩٧م.

٥٣- فقه الأولويات دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة/ د يوسف القرضاوي/ مكتبة وهبه القاهرة/ ط الرابعة سنة ١٤٢٢هـ- سنة ٢٠٠٠م.

٥٤- فقه الدعوة إلى الله/ عبد الرحمن حبنكة الميداني/ دار القلم بيروت/ ط الأولى ١٤١٧هـ.

٥٥- فقه الدعوة في إنكار المنكر/ عبد الحميد البلالي/ دار الدعوة بالكويت/ ط الرابعة ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٥٦- فقه السيرة/ للشيخ محمد الغزالي/ دار الكتب الحديثة القاهرة/ ط السابعة ١٩٧٦م.

٥٧- الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي/ دار إحياء السنة النبوية مكة المكرمة/ ط ١٣٩٥هـ.

٥٨- في ظلال القرآن أ/ سيد قطب/ دار الشروق القاهرة/ ط العاشرة ١٤٠٢هـ.

٥٩- فيض القدير شرح الجامع الصغير/ عبد الرؤف المناوي/ دار المعرفة بيروت/ ط الثانية سنة ١٣٩١هـ سنة ١٩٧٢م.

٦٠- قواعد التحديث/ للقاسمي/ دار إحياء الكتب العلمية/ ط الثانية سنة ١٣٨٠ هـ.

٦١- الكامل من اللغة والأدب/ للمبرد دار الكتب العلمية بيروت/ ط سنة ١٤١٩ هـ.
٦٢- كشف الخفاء/ للعجلوني/ دار إحياء التراث العربي بيروت/ ط الثالثة ١٣٥٢هـ.
٦٣- كشف مصطلحات الفنون/ محمد التهانوني/ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.
٦٤- لسان العرب/ لابن منظور/ دار صادر بيروت لبنان/ دار إحياء التراث العربي/ ط الثالثة.
٦٥- مختار الصحاح/ للرازي/ دار الفكر. ط/ المركز العربي للثقافة والعلوم بيروت لبنان.
٦٦- مختصر منهاج القاصدين/ لابن قدامة المقدسي/ تحقيق زهير الشاويش/ المكتب الإسلامي/ ط السابعة ١٤٠٦هـ..
٦٧- مدارج السالكين/ لابن القيم/ تحقيق محمد حامد الفقي/ دار الكتاب العربي بيروت/ ط ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م
٦٨- المدخل لعلم الدعوة/ محمد أبو الفتح البيانوني/ مؤسسة الرسالة/ ط الأولى ١٤١٢هـ.
٦٩- المصنف/ للحافظ عبد الرزاق الصنعاني/ تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي/ المكتب الإسلامي بيروت ط الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
٧٠- مع الله دراسات في الدعوة والدعاة/ محمد الغزالي/ المكتبة الإسلامية القاهرة/ ط ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
٧١- معالم في الطريق/ أ. سيد قطب/ دار الشروق القاهرة/ بدون
٧٢- المعجم الوسيط/ لمجمع اللغة العربية بالقاهرة/ ط الثالثة سنة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.
٧٣- معجم مقاييس اللغة/ أحمد بن فارس الرازي/ تحقيق عبد السلام محمد هارون/ ط مصطفى الحلبى القاهرة/ سنة ١٣٩١هـ سنة ١٩٧١م.
٧٤- مفاتيح الغيب/ للرازي/ دار الفكر/ ط الثالثة سنة ١٤٠٥هـ.
٧٥- مفتاح دار السعادة/ لابن قيم الجوزية/ دار الكتب العلمية بيروت/ بدون تاريخ.

٧٦- المفردات في غريب القرآن/ للراغب الأصفهاني/ دار المعرفة للطباعة والنشر ببيروت/ دار القلم دمشق/ ط الثالثة ١٤٢٣هـ.
٧٧- مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي/ محمد رشيد رضا نموذجا/ حازم زكريا محي الدين/ دار النوادر/ ط الأولى ١٤٢٨هـ ٢٠٠٨م.
٧٨- مقدمة ابن خلدون/ لابن خلدون/ مؤسسة الكتب الثقافية/ ط الثانية سنة ١٤١٧ هـ.
٧٩- من أجل حوار لا يفسد للود قضية/ د/ محمود محمد عمارة/ مكتبة الإيمان بالمنصورة/ ط الأولى ١٤٢٦هـ٢٠٠٢م.
٨٠- من القرآن إلى القرآن للشيخ/ محمد الصواف/ مؤسسة الرسالة بيروت/ ط الأولى سنة ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.
٨١- مناقب الشافعي/ للبيهقي/ دار التراث القاهرة/ سنة ١٣٩٠ هـ.
٨٢- منهاج الدعوة وأساليبها/ د علي جريشة/ دار الوفاء/ ط الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م.
٨٣- منهاج السنة/ لابن تيمية تحقيق د/ محمد رشاد سالم/ مكتبة ابن تيمية القاهرة/ ط سنة ١٤٠٩هـ سنة ١٩٨٩م.
٨٤- منهج التربية الإسلامية/ أ. محمد قطب/ دار الشروق القاهرة.
٨٥- الموافقات للشاطبي/ دار المعرفة بيروت/ سنة ١٤١٥هـ.
٨٦- نحو أسلوب أمثل للدعوة الإسلامية/ د. محمود محمد عمارة/ دار التراث العربي القاهرة/ ط الثانية ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٨٧- نزهة المتقين شرح رياض الصالحين/ د مصطفى الخن/ مؤسسة الرسالة بيروت/ ط الأولى سنة ١٣٩٧هـ سنة ١٩٧٧م.
٨٨- النهاية في غريب الحديث والأثر/ لابن الأثير/ دار الفكر/ ط الثانية سنة ١٣٩٩هـ.
٨٩- هداية المرشدين/ الشيخ على محفوظ/ دار الاعتصام/ ط التاسعة ١٩٧٩م.

❁❁❁

السيرة الذاتية الخاصة بالدكتور/ أحمد عبد الهادي شاهين.

المؤهلات:

(١) ليسانس أصول الدين والدعوة من جامعة الأزهر كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة سنة ١٩٨٩م قسم الدعوة والثقافة الإسلامية بتقدير (جيد جدا مع مرتبة الشرف).

(٢) ماجستير في الدعوة والثقافة الإسلامية من جامعة الأزهر كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية سنة ١٩٩٥م بعنوان (مشكلات الشباب النفسية والاجتماعية وعلاج الإسلام لها) بتقدير (ممتاز).

(٣) الدكتوراه في الدعوة والثقافة الإسلامية ومقارنة الأديان. من جامعة الأزهر كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية سنة ١٩٩٩م بعنوان (خصائص الدعوة في العهدين القديم والجديد والقرآن الكريم دراسة مقارنة) بتقدير (مرتبة الشرف الثانية).

الوظائف السابقة:

١. عمل إماما وخطيبا بوزارة الأوقاف المصرية من ١/ ٣/ ١٩٩٠م. حتى ٢٠/ ٢/ ١٩٩٣م.
٢. عمل معيدا بجامعة الأزهر في كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية في ٢١/ ٢/ ١٩٩٣م. حتى ٢٥/ ١٢/ ١٩٩٥م.
٣. عمل مدرسا مساعدا في كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية في ٢٦/ ١٢/ ١٩٩٥م. حتى ٤/ ٥/ ١٩٩٩م
٤. عمل مدرسا بقسم الدعوة في كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية من٥/ ٥/ ١٩٩٩م حتى ٣٠ يونيو ٢٠٠٣م.
٥. عمل أستاذا مساعدا بقسم الدعوة في كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية من ٣٠ يونيو ٢٠٠٣م حتى ١يوليو ٢٠٠٤.
٦. عمل أستاذا مشاركا في الجامعة الإسلامية بأمريكا متشجن دوترويد من ١ يوليو ٢٠٠٤م حتى ٣٠ يونيو ٢٠١١.
٧. عمل أستاذا للدعوة والثقافة الإسلامية ومقارنة الأديان في جامعة طيبة. بالمدينة المنورة. المعهد العالي للأئمة والخطباء. من ١ يوليو ٢٠١١ م.

٨. **الوظيفة الحالية: أستاذ بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية ومقارنة الأديان في جامعة الأزهر.**

التخصص الدقيق: (الدعوة والثقافة الإسلامية ومقارنة الأديان).

المواد التي يقوم بتدريسها:/ الدعوة/ الخطابة/ الثقافة الإسلامية/ تاريخ الخلفاء/ إسلام في المشرق/ الفرق/ فقه السيرة النبوية/ الاستشراق/ التنصير/ مقارنة الأديان/ اليهودية/ النصرانية/ مناهج الدعوة/ آيات الله الإنسانية/ آيات الله الكونية/ قضايا معاصرة/ خلق المسلم/ رسالة المسجد/ حقوق الإنسان في الإسلام.

أعمال أخرى:

(١) انتدب للتدريس في كلية الدراسات الإسلامية للبنات بالإسكندرية، ومعهد الثقافة بوزارة الأوقاف، ومعاهد إعداد الدعاة.

(٢) يقوم بالخطابة والدروس والمحاضرات في مساجد الأوقاف بجمهورية مصر العربية، ومساجد الجمعية الشرعية منذ عام ١٩٨٩م حتى الآن.

(٣) سافر إلى دول أوروبا وأمريكا لإلقاء خطب الجمعة والمحاضرات والدروس الرمضانية، وحضور المؤتمرات والندوات العلمية.

(٤) له العديد من المقالات في مجلة التبيان المصرية. وجريدة الأهرام القاهرية. وجريدة عقيدتي. والأحاديث الإذاعية بإذاعة القرآن الكريم ونداء الإسلام من مكة المكرمة.

يجيد الحديث باللغة الإنجليزية، واستخدام الحاسب الآلي.

تاريخ الميلاد:٢٧/ ٢/ ١٩٦٧م.

الحالة الاجتماعية: متزوج وله أربعة من الأولاد.

عنوان السكن في مصر: محافظة الدقهلية – مدينة أجا – خلف الإدارة الزراعية.

عنوان العمل في مصر: كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية ت/ ٠٤٨/ ٢٣١٦٨٩١.

البريد الإلكتروني: drahmed1967@yahoo.com.

❁❁❁

المؤلفات الخاصة بالدكتور/أحمد عبد الهادي شاهين.

✍ سلسلة كتب في الدعوة والخطابة:

١. الدعوة إلى الإسلام قواعد وأصول.
٢. وسائل الدعوة وأساليبها في ضوء القرآن والسنة والواقع.
٣. القواعد المنهجية للدعوة عند السلف.
٤. السيدة عائشة ﵂ وجهودها في الدعوة الإسلامية.
٥. الدعوة الإسلامية في أمريكا (رؤية من الداخل).
٦. الخطابة قواعد وأصول.
٧. المساجد بين الاتباع والابتداع.
٨. في ظلال خلق المسلم. الجزء الأول.
٩. في ظلال خلق المسلم. الجزء الثاني.
١٠. في ظلال خطب الجمعة. الجزء الثالث.
١١. في ظلال خطب الجمعة. الجزء الرابع.
١٢. في ظلال خطب الجمعة. الجزء الخامس.
١٣. في ظلال خطب الجمعة. الجزء السادس.
١٤. واحة الإمام في إرشاد الأنام. ١٠٠ خطبة مترجمة إلى اللغة الإنجليزية.
١٥. الوحدة الإسلامية فريضة وضرورة.
١٦. قطوف من الأدب والحكمة.

❁❁❁

سلسلة كتب مشكلات الشباب:

١٧. مشكلة الانحراف الجنسي عند الشباب وكيف عالجها الإسلام؟.

١٨. مشكلة الإدمان والتدخين عند الشباب وكيف عالجها الإسلام؟.

١٩. مشكلة الغلو في الدين عند الشباب وكيف عالجها الإسلام؟.

٢٠. مشكلة القلق عند الشباب وكيف عالجها الإسلام؟.

❁❁❁

سلسلة كتب مقارنة الأديان.

٢١. اليهودية في ضوء العهد القديم وموقف القرآن الكريم منها.

٢٢. النصرانية في ضوء العهد الجديد وموقف القرآن الكريم منها.

٢٣. خصائص الدعوة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم والسنة.

٢٤. المسيح عليه السلام بين النصرانية والإسلام (دراسة مقارنة).

٢٥. التنصير وخطره على العالم الإسلامي.

٢٦. دور القساوسة التبشيري في الحروب الصليبية.

٢٧. الاستشراق في ميزان الإسلام.

٢٨. العلمانية وخطرها على المجتمعات المسلمة.

٢٩. الحوار بين الأديان. (تعايش لا ذوبان).

٣٠. تحقيق مخطوط (الأدلة العقلية على أشرفية الشريعة المحمدية).

لإبراهيم بن محمد الراوي العراقي.

❁❁❁

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة.	**٣**
مشكلة الدراسة.	٥
أهداف الدراسة.	٥
تساؤلات البحث.	٦
الدراسات السابقة.	٧
منهج البحث.	١٠
خطة الدراسة.	١١
التمهيد.	**١٢**
التعريف بعنوان ومصطلحات البحث.	١٢
المطلب الأول: تعريف القواعد في اللغة والاصطلاح.	١٢
المطلب الثاني: تعريف المناهج لغة واصطلاحا.	١٣
المطلب الثالث: تعريف الدعوة لغة واصطلاحا.	١٦
المطلب الرابع: تعريف السلف في اللغة والاصطلاح.	٢٤
المطلب الخامس: هل السلفية فترة زمنية أم صفات معينة؟.	٢٨
المطلب السادس: مميزات منهج السلف في الدعوة.	٢٩
المطلب السابع: ثناء العلماء على منهج السلف.	٣٧

المبحث الأول: مراعاة فقه الأولويات في الدعوة.	٤١
مقدمة.	٤١
المطلب الأول: تعريف فقه الأولويات لغة واصطلاحاً.	٤٢
المطلب الثاني: أهمية فقه الأولويات.	٤٦
المطلب الثالث: فقه الأولويات في القرآن الكريم.	٤٨
المطلب الرابع: فقه الأولويات في السنة النبوية.	٥٣
المطلب الخامس: العلم قبل العمل.	٦١
المطلب السادس: أولوية الكيف على الكم.	٦٦
المطلب السابع: أولوية فرض العين على فرض الكفاية.	٦٩
المطلب الثامن: أولوية الأصول على الفروع.	٧٢
المطلب التاسع: أولوية المتفق عليه قبل المختلف فيه.	٧٣
المطلب العاشر: أولوية العمل المتعدي للغير على العمل القاصر على الذات.	٧٥
المطلب الحادي عشر: أولوية العمل الدائم على العمل المنقطع	٧٨
المبحث الثاني: مراعاة فقه التدرج في الدعوة.	٨٠
مقدمة.	٨٠
المطلب الأول: تعريف التدرج في اللغة والاصطلاح.	٨٢
المطلب الثاني: أقسام التدرج.	٨٤
المطلب الثالث: فوائد التدرج.	٨٦

المطلب الرابع: التدرج في الدعوة.	٩٤
المطلب الخامس: التدرج في التشريع.	١٠٠
المطلب السادس: التدرج في طلب العلم.	١٠٨
المطلب السابع: التدرج في إعداد الدعاة.	١١٤
المطلب الثامن: التدرج في التربية.	١١٧
المطلب التاسع: التدرج في الإصلاح والتغيير.	١١٨
المبحث الثالث: مراعاة فقه البلاغ في الدعوة.	**١٢٣**
مقدمة.	١٢٣
المطلب الأول: تعريف البلاغ لغة واصطلاحا.	١٢٤
المطلب الثاني: البلاغ في القرآن الكريم.	١٢٥
المطلب الثالث: البلاغ في السنة النبوية.	١٢٦
المطلب الرابع: الترغيب في البلاغ.	١٢٨
المطلب الخامس: الداعية مطالب بالبلاغ وليس الهداية.	١٣٠
المطلب السادس: أجر الداعية يقع بالبلاغ وليس بالاستجابة.	١٣٣
المطلب السابع: الحكم على الأعمال لا على الأشخاص.	١٣٤
المطلب الثامن: الداعية مطالب بالمداراة وليس المداهنة.	١٣٦
المطلب التاسع: الداعية مطالب بالرفق لا الشدة والقسوة.	١٣٩
المطلب العاشر: الداعية مطالب بالتبشير والتيسير لا التنفير والتعسير	١٤٦

المبحث الرابع: مراعاة فقه الاختلاف.	**١٥٣**
مقدمة.	١٥٣
المطلب الأول: تعريف الاختلاف لغة واصطلاحاً.	١٥٤
المطلب الثاني: أهمية الاتحاد في القرآن الكريم والسنة النبوية.	١٥٧
المطلب الثالث: كلمة الاختلاف القرآن الكريم والسنة النبوية.	١٥٨
الموقف الصعب.	١٦٠
الاختلاف المذموم.	١٦٢
المطلب الرابع: أسباب الاختلاف.	١٦٧
المطلب الخامس: أدب الاختلاف في الإسلام.	١٧١
المطلب السادس: عدم الإنكار في المسائل الخلافية والاجتهادية.	١٧٩
المبحث الخامس: مراعاة أحول المدعوين.	**١٨٨**
مقدمة.	١٨٨
المطلب الأول: التعريف بمراعاة أحوال المدعوين.	١٨٩
المطلب الثاني: تقسيم المدعوين في القرآن الكريم.	١٩٠
المطلب الثالث: مراعاة أحوال المدعوين في السنة النبوية.	١٩٢
المطلب الرابع: تنوع الخطاب الدعوي مع المدعوين.	١٩٤
المطلب الخامس: صور من مراعاة الرسول ﷺ لحال المدعوين.	٢٠٩
المبحث السادس: مراعاة فقه السنن الإلهية في الدعوة والدعاة.	**٢١٥**

مقدمة.	٢١٥
المطلب الأول: تعريف السنن الإلهية في اللغة والاصطلاح.	٢١٦
المطلب الثاني. أهمية معرفة السنن الإلهية.	٢١٨
المطلب الثالث. خصائص السنن الإلهية.	٢٢٢
المطلب الرابع. نماذج للسنن الإلهية من قصص القرآن الكريم.	**٢٢٧**
١-سنة الله في الأسباب والمسببات من خلال قصة ذي القرنين.	٢٢٧
٢-سنة الله في الابتلاء والتمكين من خلال قصة يوسف عليه السلام.	٢٣٠
٣-سنة الله في إقامة الدولة المسلمة من خلال قصة سليمان عليه السلام.	٢٣٧
٤-سنة الله في الابتلاء والعقوبة من خلال قصة أصحاب الجنة.	٢٤٥
المبحث السابع: مراعاة فقه الواقع.	٢٥٠
الخاتمة: وتشتمل على أهم نتائج البحث.	**٢٥١**
التوصيات.	**٢٥٦**
المراجع.	**٢٥٧**
السيرة الذاتية.	**٢٦٤**
الكتب والمؤلفات.	**٢٦٦**
الفهرس.	**٢٦٨-٢٧٢**

❁❁❁